

PRINCETON UNIV. LIBRARY

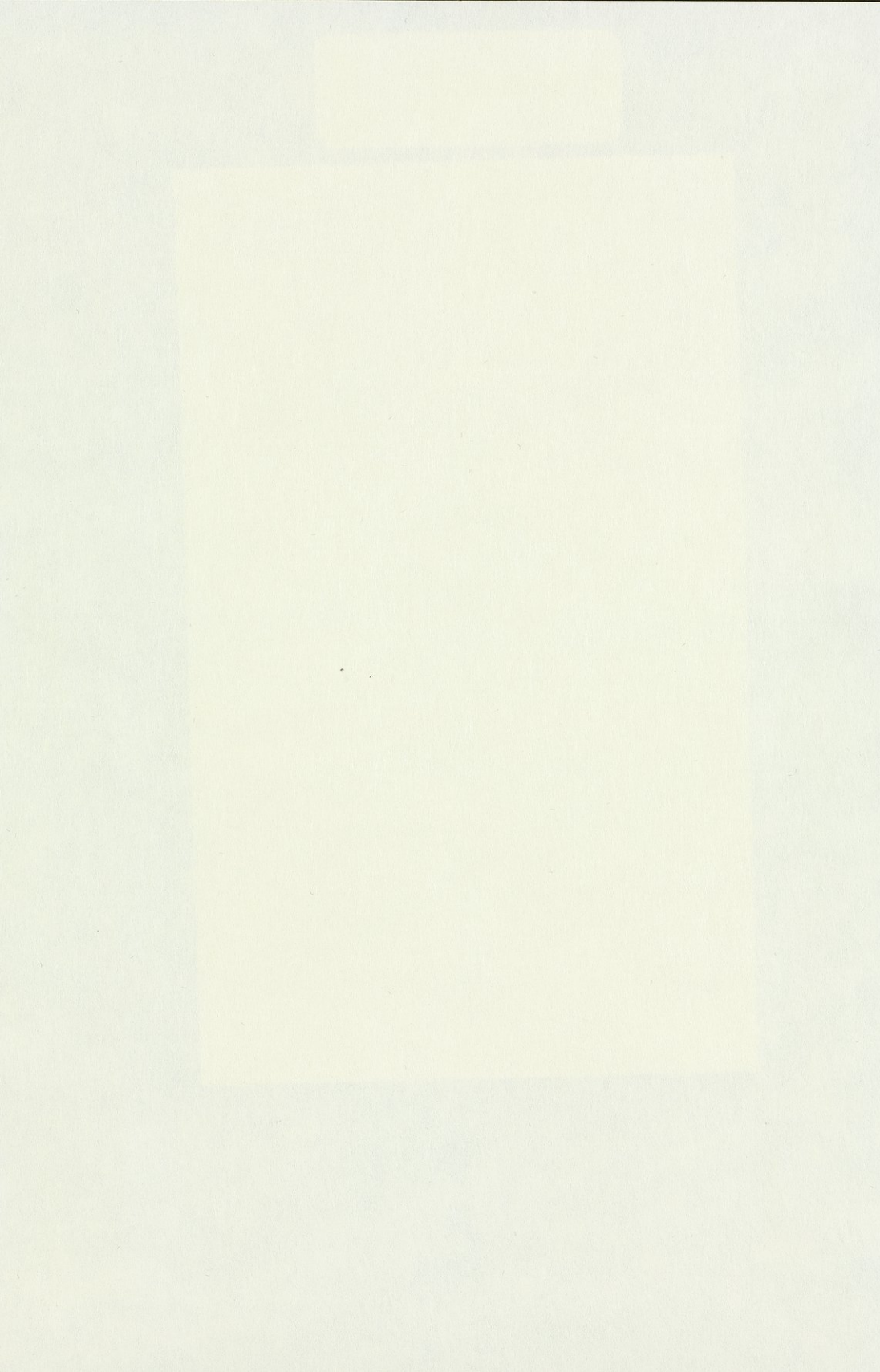


3 2101 01352 6957

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

JUN 15 2008



تاریخ

al-Sandūbī, Hasan

الاعتفال بالمراد النبوي

من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول

Ta'rīkh al-ih̥tiḥāḥ

تأليف

حسن السندوبي

رئيس مكتبة وقاعة محاضرات وزارة الأوقاف
بقية الغوري

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

[الطبعة الأولى]

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد ؛ فقد جمعني مجلس من الفضلاء ، يضم نخبة من العلماء ، وفريقاً من الأدباء ، في أحد سرادقات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، فتذاكروا تاريخ هذا الاحتفال ومتى نبتت فكرته ، وأيان نشأت غُرتة . فذهب كل واحد منهم مذهباً ، وارتأى رأياً ، وتَظَنَّى ظناً ، وكثر الأخذ والرد فيما بينهم ، وأنا أسمع وأزن . فلما رأيت أنهم جميعاً في وادٍ ، وحقيقة الأمر في وادٍ آخر ؛ أخذت أورد لهم نبذاً مما أعلم في هذا الموضوع ، ومما وقفت عليه من شؤونه وملابساته أثناء مطالعاتي

فقالوا لي بلسان واحد : ولم لا تضع مؤلفاً في هذا الشأن الذي تضاربت الأفكار في أصله ، وتصارعت الآراء في حقيقة نشأته وفصله ، وذكر أول من فكر فيه ، وفي أي بلد من بلاد الإسلام غُرست دوحته ، وسميت أيكته مع التوسع في إيضاح الأدوار التي مرت به حتى صار على ما هو عليه الآن ؟

فقلت : تالله لقد كلفتموني شطاطاً ، وحملتوني كلاً ! أما تُعفوني من

هذا العبء الفادح ؟

فقالوا : ومن له سواك !

فقلت : على الله توكلت ، وإليه أنبت ، وبه استعنت .

وبعد ذلك كانت نقابة الصحفيين قد طلبت إليّ أن ألقى محاضرة في ناديها . وقد اعتزمت الاحتفال فيه بذكرى المولد النبوى الشريف - فرأيت أن تكون المحاضرة في هذا الموضوع ، فكتبت خلاصة موجزة في ذلك وبعثت بها إلى النقابة ، فأعلنت النقابة عنها في الصحف .

غير أن حادثاً لم يكن في الحسبان وقع في تلك الليلة حال دون إلقائها . فاستعدتها من النقابة ، وفي خلال ذلك خاطبني كثير من الناس الذين يعتد برأيهم ، وأنشأوا على الفكرة ، وحشوا على بعثها مبسوطه ، وإخراجها مفصلة ؛ لأن كثيراً من الخاصة ، بله العامة ، لا يعلمون من هذا الأمر شيئاً يمكن الأطمئنان إليه ، أو الاعتماد به ، وهم لذلك يتشوفون إلى عرفان الكثير المحقق منه .

ولا أريد أن أشرح ما لاقيت - في تحقيق هذه الفكرة وإبرازها على أفضل ما رأيت من الوجوه الصالحة - من العنت والإرهاق ، لأن أبواب هذا الموضوع موصدة في وجه مستفتحها ، ومغاليقه محكمة أمام طارقها . وذلك لأن جمهور المؤرخين وكتاب الأخبار لم يُعطوا هذا الأمر شيئاً مما يستحقه من العناية والاهتمام ، ولم يحفلوا بتدوين ما يحسن تدوينه من ظروفه وأحواله ، ولم يبسطوا ما يفيد بسطه من أسبابه ونتائجه . ولذلك لم أكد أعرّ إلا على القليل من الإشارات يُلوّحُ بها بعضهم الفينة بعد الفينة . ولكن من حسن الحظ أو من سؤته ، أن الموضوع لذلى موقعه ، وحسن لدى

مشرعه ، وصار من المطالب النفسية التي يرتاح لها العقل ، وينشط لها الفكر . فلم أقف أمام هذه المغاليق مبهوتاً ، بل جردت سيف العزم ، وأرهفت حدّ الهمة ، ومضيت في سياحتي في بطون الكتب ، أمتدل من إشارة على عبارة ، وأتبع صحائف التواريخ والأسفار ، لا صفاًح الشواهد والأحجار ، وأستخرج الأوراق ولا أعدو الآثار ؛ حتى استوى لى من ذلك ما يقع في سفر يملأ العين ويرتاح إليه الفؤاد .

ولست في حاجة إلى أن أنوه بما لاقيت من عناء في تقويم أود ما كتب بعض المؤرخين ، وتمييز ما حشده في مؤلفاتهم من سمين وغث ، وقشيب ورث ، ما لا يفتن إليه إلا القليل من أهل الدراية والفهم النافذ ، أما أولئك الوادعون في مهاد قصورهم ، الرافلون في بحاج النعيم من سوح دورهم ، المتمتعون بمطالع شمسهم ومغارب بدورهم ، فلا يعدون في أذئاب الناس ولا في ذوائبهم ، وإن ظنوا أنهم بثرأهم وجوه الخلق وجباهم . فهم وإن وضعهم الثراء في المقدمة ، فقد وضعتهم الأنانية ، والفاقة من المزايا الإنسانية ، في المؤخرة . لأنهم إنما يعيشون لأنفسهم ، ولا ينشطون إلا لشهواتهم . ولذلك صح فيهم قول من قال :

أرى زمنا نوكاه أكرم أهله ولكننا يشقى به كل عاقل

مشى فوقه رجلاه والرأس تحته فكب الأعالى بارتفاع الأسافل

وليس يعلم ما يعانيه الكاتب المحقق في سبيل تحرير الصواب فيما يعرض له من بحوث ، وما يضحي به في تقويم أخطاء المؤلفين من قدماء ومحدثين ،

وما يبذل من دم القلب ، ونور البصر ، وضياح الزمن ، إلا من دفع في أمثال هذه المآزق .

وهذا كتاب يجد فيه العالم بُغْيَتَهُ ، والباحث مُنْيَتَهُ ، والأديب لذته ، ومحِبُّ الأطلاع طَلْبَتَهُ . فهو للعارف مسلاة ، وللشاذى معارف ومعلومات . وقد رأيت أن أجعله مرتباً على الدول ومفصلاً على أحداث الأول . فتحدثت فيه عن حظ الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى عهد الخلفاء الراشدين فى عصر الإسلام الأول . ثم فى عصر الدولة الأموية ، ثم فى عصر قيام الدولة العباسية بالعراق . وعلمت الأسباب التى حالت بين هذه الدول وبين التفكير فى العناية بهذه الذكرى الكريمة .

ولما جاء دور الدولة الفاطمية ، وهى صاحبة اليد البيضاء فى إنشاء هذه الحفلات ، والتنبُّه إلى وجوبها ، واتخاذها من شعائر الدولة ؛ أوضحت الكثير مما رسمته فى إقامة معالم المولد النبوى الشريف ، ووصفت ما كانت تبذله فى هذا السبيل من طائل الأموال ، وببالغ الخفاوة ، وما كان ينعم به الناس على عهدها من صنوف الخيرات ، وما كانوا يتمتعون به من ألوان المبرات ، كما أبّنت عن مظاهره الحاشدة ، ومواكبه الحافدة ، ومعامله الرائعة ، ومشاهده البارة ، وتدفق جماهير الأمة على شهود حفلاته ، وحضور أسمطته ، وتناول العطايا والمنح من مخصصاته ، وتقبل الهدايا والألطف من مبراته . حتى انقراض الدولة ، وزوال الأسرة .

ثم تحدثت فيما كان للمولد من حظ ، وما كان للاحتفال به من شأن ، فى عهد الدولة الأيوبية . تلك الدولة التى زعم كثير من المؤرخين أنها ألغت

جميع المواسم والأعياد التي كان للفاطميين السبق إلى ابتدائها . فأثبت أن مولد الرسول صلوات الله عليه لم يكن من المواسم المملوغة في عهد هذه الدولة ، وأنه كان يقوم على خير الوجوه وأفضلها .

ثم أمضيت الكلام في دولة المماليك البحرية وما كان لها من الشأن والعناية بحفلات المولد ، وكذلك دولة المماليك الجراكسة ، وما استحدث فيه من رسوم ومظاهر .

ولما أظل مصر عهد الولاة العثمانيين - بعد رحيل السلطان سليم - وصفت قيمة عنايتهم بالمولد ، وضوؤة اهتمامهم به . إلى أن استبدت بالامر المماليك المصريين المعروفين بالبيكوات ، فكانت عنايتهم به واهتمامهم له ، على قدر سعة أفق كل زعيم منهم .

كما أوضحت ما كان لنابوليون والحملة الفرنسية من رسوم وعادات ، ومظاهر ونفقات ، في إحياء المولد والاحتفال به على الوجه المناسب لظروفه وملابساته .

أما في عصر الدولة المحمدية العلوية فحدث عن إيضاح المعالم ، وإبانة المراسم ، وانتظام الحفلات ، وإقامة الزينات ، ولا حرج ؛ فقد كان محمد على الكبير مؤسس هذه الأسرة الكريمة ذا عناية فائقة بإحياء هذه الذكرى ، واهتمام كبير بالاحتشاد لها . وعلى سنته الصالح جرى أولاده من بعده وأحفاده . كبراً إثر كابر . من ولاية وخديويين .

وفي عهد الملك العظيم فؤاد الأول الذي نقل مركز مصر من خديوية أو سلطنة متواضعة ، إلى ملكية بارعة وصفت مابذله جلالته رحمه الله من

توجهات صالحة لكي تكون أيام المولد الشريف في عداد أيام البهجة الشاملة والسرور الغامر ، وتكون لياليه مواسم عامة تنعم فيها الأمة بما يفرج من كرباتها ، ويصلح من شأنها في غدواتها وروحاتها .

أما في عهد شبلة الرئبال جلالة الملك الصالح المتوكل على الله « فاروق الأول » ، حفظه الله ، فقد تحدثت بما وسعه البيان عن عنايته السامية ، ورعايته الكافية ، في أحياء أيام هذه الذكرى الكريمة ولياليها ، حتى صارت من غرر الأيام ، ودرر الليالي . وقد نسقت ذلك كله في أماكنه من صحائف هذا الكتاب .

ومع استيفائي لهذا الموضوع استيفاء ليس وراءه مطمع لمستزيد ، قد خللت أبوابه ببعض طريفة ، ساق بعضها تداعى المعاني وانثيال الأفكار ، واقتضى الكثير منها منافع الاستطراد . فصدرت الكتاب بكلمة مجملة في أثر مولد الرسول صلوات الله عليه ، في نهضة العرب ، وإنبات الحياة الكريمة فيها . ولما أفضى بي الكلام إلى عصر الدولة الفاطمية ، رأيت أن أصدر القول فيها ببعض في حقيقة أمر العبيدين وقيمة قول الطاعنين في نسبهم العلوي ، وحررت صحة هذا النسب بالحجج الدامغة ، ورددت قول خصومهم بالبراهين الساطعة ، حتى ظهر الحق في شأنهم ، وانهمز الباطل ، وانماز الطيب من الخبيث الذي غمرهم ، وطُهِرُوا تطهيرا .

وعند حديثي عن العصر المملوكي ، توجهت موضوعهم ببعض في شأن الممالك البحرية وأصولهم ، والنظر فيما رموا به من اسم الرق ، وأزلت عنهم وصمته من الوجهة الإنسانية . كما ألمعت مع ذلك بما كان

لهم من رسوم ونظم ، وعادات وسنن . ولم أحرم الممالك الجراكسة من نظرة في حقيقة أمرهم ، وما ابتدعوه في حفلات المولد ، مما لم يسبقهم إليه غيرهم . كما ذكرت وفود بعض الملوك والأمراء على مصر ملتجئين إلى سلاطين وادى النيل في ذلك العهد ، طالبين حمايتهم من خصومهم ، أو إنجادهم على أعدائهم . وفي عهد السلطان الغورى عقدت بحثا في الأسباب التي حملت السلطان سليم العثماني على غزو الديار المصرية . وما تقدم على ذلك من خيانة بعض الأمراء تلك الخيانة التي أفضت إلى سقوط البلاد بين يدي ذلك الجبار العادي . وعقبت على ذلك بمقارنة بين قبيز وسليم . إلى غير ذلك مما يجد فيه القارئ لذة وطرافة وفائدة في ثقافة ، وتقويما في معارفه ، واتساعا في معلوماته . ويتبين فيه الباحث جدة في التفكير ، وحدة في ابتكار الرأي والنظر .

على أنني لم أغفل الحديث عما كانت تقوم به بعض الدول الإسلامية في غير الديار المصرية ، من العناية البالغة بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، بل وقفت من ذلك على نماذج صالحة أثبت منها : ما كانت تضطلع به الدولة العثمانية في بلادها ، وما كانت تقوم به بعض دول المغرب الأقصى في شمال أفريقيا ، وعرضته في باب مفرد ، ليحوز موضوعنا صفة الكمال إن شاء الله تعالى .

وقد خطر لي فوق هذا أن أفرد ، في أعقاب الكتاب ، قسما أخصه بالحديث عن المواسم والأعياد عامة ، سواء ما كان منها قديما ، وما استحدث منها في عهود الدول الإسلامية ، وما لا يزال باقيا منها

إلى اليوم . فإذا انبعثت الهمة إلى تحقيق هذا الخاطر الحقته به ، وإلا
أفردت له كتابا خاصا .

ولا بد لي من أن أشير هنا إلى أنى لم أستعمل عبارات بعض المؤرخين
والكتاب الذين اعتمدت على أخبارهم ، لما رأيته فيها من الغموض حيناً
وسوء التعبير أحيانا ، ومخالفة القواعد البيانية في أكثر ما يوردون . وقد
سبكت ذلك كله في الأساليب المستقيمة ، وأثبت معانيها والمراد منها في
العبارات الواضحة السليمة . اللهم إلا بعض الروايات جئت بها على وجهها
للاستشهاد أو للتعقيب عليها .

والله أسأل أن يمدني بعونه وإسعاده ، وأن يمنحني الكريم من توفيقه وسداده .

مصطفى السمرجلي

القاهرة في } ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧
} ٢٥ من إبريل سنة ١٩٤٨

كلمة

في ذكرى المولد النبوى الشريف

تمضى القرون والأعوام ، وتتوالى الشهور والأيام ، ويدور الفلك دوراته على بنى الإنسان ؛ بين سعادة وشقاء ، وغبطة وبلاء ، ويأس ورجاء ، وبؤس ورخاء ، وذكرى مولد المصطفى سيد المرسلين ، وإمام الهداة والمتقين ؛ لا تبرح تتردد على الألسنة ، وتحقق لها القلوب والأفئدة .

ولا بدع ؛ فقد كان العالم قبل مبعث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، يمج في غمرات من الجهالة ، ويسبح في ظلمات من الضلالة ، وتغشاه موجة من الشرك بالله ، وتظله سحابة من الكفر والفسق والفجور ، تكاد تعم سكان البسيطة ، وتطفي على أهل الأرض قاطبة ، فلا وازع من دين ، ولا رادع من خلق ، ولا دافع إلى الخير من ضمير ، وذلك على الرغم من شرائع الأنبياء الذين تقدموه ، وزواجر رسل الله الذين سبقوه . وقد مضت فترة من الرسل نسى الناس معها أن لهم إلهاً تفرد بالوحدانية ، ورباً توحد في الوجود بالربوبية ، وتقديس في جلاله بالصمدانية . كما تناسوا أن له كتباً أنزلها على رسله ، وكلمات لقنها أنبياءه ، فيها هدى وبشرى للمؤمنين ، وموعظة وذكرى للعارفين الموقنين . وامتدت هذه الفترة وطال أمدها حتى عبد الخلق غير الخالق ، واستنزوا الرزق من غير الرازق ، وحتى محبت من نفوسهم آثار الحرية الفطرية ، وشوهت في خصائصهم معالم الإنسانية ،

وفقدوا فيما بينهم عوامل التعاطف ، وبواعث التراحم ، ونوازع الإخاء والمساواة فى الحقوق والواجبات ؛ فدانوا لبني الإنسان ، وألّّوا ما صنعت أيديهم من التماثيل والأوثان ، وعبدوا الصور المنحوتة ، والأصنام المنجورة الممقوتة وتخيلوا فى الكواكب قوى قاهرة ، وآلهة قادرة ، وأرواحا خفية أرواحاً ظاهرة ، لها سلطانٌ على الأكوان ، وتصرفٌ فى حركات النفوس ونبضات القلوب وطباع الأبدان . فأسلّوا قيادهم لأوهامهم ، وغدوا فى طباع ابن منها طباع الحيوان .

غير أن رحمة الله تعالى تداركت هذه الإنسانية المنحرفة عن طريق الهدى ، والمستسلمة لعوامل الردى ، فتجلّت إرادته تعالى على الكائنات ، وظهرت مشيئته بأنوارها الباهرة بين الأرض والسموات . فكان من دلائل الرضا الإلهى ، وبوارق النعم على الوجود ، أن ولد للإنسانية المعذبة ، نبيّ الرحمة ، ومنقذ الأمة ، المؤيد من الله تعالى بالقول الصادق المبين : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » ،

ففى مثل هذا اليوم ، ومنذ أربعة عشر قرناً ، انبعثت معجزة الوجود ، وتمت حكمة الله بمولد أشرف مولود . فاستنارت بمولده الأكوان ، وأرخ بمبعثه عصر العلم والعرفان ، وتفتحت أبواب الحق والعدل والإحسان .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار الدنيا ليكون الوسيلة العظمى بين الخلق والخالق ، والوصلة الكبرى بين البرية والبارئ . فكان المبشر من اتبع هداه ، بعظيم رضوان الله . والمنذر من دان لهواه ، بأليم غضب الله . وكانت بعثته شاملة للناس عامة ، وكانت رسالته غامرة كل أمة . وليكى

يسقط كل حجاج ، وينهار كل عناد ولجاج ، أيده الله تعالى بقوله الحق ،
في محكم كتابه الصدق : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ،
فصدع بأمر مولاه ، وجاهد في سبيله حتى بلغ رضاه .

فإذا احتفل العالم الإسلامي ، في مشارق الأرض ومغاربها ، بهذه الذكرى
السعيدة ، واتخذ أيامها له من غُرر أيام مواسمه وأعياده ، فإنما يحتفل
بذكرى ميلاد من أنقذ الله على يديه الإنسانية الضالة ، ورفع يمين طالعه
نير الاستعباد عنها ، وفك بواسطته أغلال الاستبداد بها ، وجعله سببا في
استرداد خصائصها الصحيحة ، ومزاياها السليمة ، وأنار للإنسان بشريته
الخالدة ، سُبُل السلام إلى سيادته ، وأوضح له مناهج الخير إلى سعادته .

أخذ محمد بن عبد الله بيد الإنسانية فانتشلها من وهدة الهمجية التي
تردت فيها أجيالا متطاولة ، ورقى بها في معارج المدنية القائمة على طمأنينة
النفس ، وراحة القلب ، واستقامة العقل ، وسوق الخلق . وعلم الإنسان أن
له وجودا ، وأن لوجوده غاية هي أسمى مما يختلج في النفوس ، ويضطرب
في الصدور ، ويتردد في الرؤس ، ويتلألأ في الأذهان . ولأجل أن يصل
به إلى هذه الغاية السامية ، ويضع يده على هذا الكنز الثمين : علمه أن ينظر
إلى نفسه ، وأن يفاضل بين يومه وأمه ، لأن من عرف نفسه حق المعرفة ،
عرف الله تعالى في أشرف نفحاته . ثم أرشده كيف يعمل حتى يتكامل
بالفضائل ، ويتطهر من أدران الرذائل ، ويتزين بحمائل الشمائل . ومن
جوامع ذلك أن يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ، وأن يباعد بينه وبين
الشر ما استطاع إلى ذلك من سبيل ، لينزل بخالصة نفسه في منازل الأبرار ،

وليسكون من المصطفين الاخيار . لأن من أثر أخاه في الإنسانية بالحجاب على نفسه لحق بمقامات المخلصين ، واقتعد مقاعد الصديقين . وناهيك بها من آداب سماوية ، وتعاليم ربانية .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى أمر الله ، ما شاء الله أن يُقيم ، ثم أذن له تعالى في جهاد أهل العناد من المخالفين ، وفي مقارعة ذوى الغفلة والمنحرفين ، فاتجه بجهاده - بادی ذی بدی - إلى ما كان متغلغلا في النفوس البشرية من نوازع الشرك بالله - وهو رأس كل شر في الوجود ، وأُس كل رذيلة في الدنيا - فلما دخل الناس في دعوته ، وأيقن المتخلفون بنصرته ، أنشأ يحارب الرذائل الموروثة عن الأسلاف ، ويقارم النقائص السارية من الآباء إلى الأخلاف ، ويناهض المفساد والشرور والآثام ، ويناضل الطبع البشرى لتطهيره من عوامل الإجرام ، حتى إذا بلغ من ذلك ما شاء الله أن يبلغ ، رسم للأمم - بأمر الله تعالى - خطط الحياة الصالحة ، واختط لهم مناهج النجاة من دواعي التأخر والانحطاط ؛ فكان دستور القويم ، وناموسه الحكيم ، وقانونه المستقيم ، قول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ » .

وكان من فضل الله على الناس أن اختار رسوله الأمين ، ومصطفاه الكريم ، من صميم العرب . وأن جعل لسانه عربيا مبينا ، وأنزل كتابه الجامع ، بهذا اللسان البارع . وذلك لأن العرب من بين سائر الأمم المعروفة في عهد التنزيل ، قد وهبوا من جليل المزايا وكريم الخصال ، وحميد السجيا

وبارِع الخلال . ما لم يكن مجموعاً لآمة أو متوفراً في شعب من تلكم الأمم والشعوب التي عاصرتهم . فقد طبعهم الله على درجة عالية من قوة الإدراك والتعقل ، وفطرهم على حدة الذهن ، وإرهاف الحس ، واستنارة البصيرة ، وجبلهم على النظر فيما يعرض عليهم من الأمور والأقوال والفكر والآراء . كما حباهم البارئ بصفاء القلوب من أكدار الحياة ، واختصهم بالكثير من التمييز بين المنافع والمضار . وإن كانت الأدهار التي مرت بهم تحت سماء بيئتهم الكالحة قد حجبت هذه المزايا إلى حين ، وأضفت عليها غشاء من الجهالة حال بينهم وبين ظهور معدنهم الذهبي البراق . ولهذا لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الهدى لم يحتج في استجابتهم إلى المديد من الزمن ، بل ما هو أن بسط لهم دعوته حتى استجاب له أذكارهم نفساً ، وأنقاهم فطرة ، وأصفاهم عقلاً . ثم تبعه بعد ذلك من والاهم ، بعد قليل من الاستبانة والاستيضاح .

ولا يرْعُك ما كان من بعض سادات العشائر منهم ، من التشديد والعناد في مناهضة ما كان يدعو إليه ، والتصدى لتفنيده ومحاولة إقلاعه عما يبشّه فيهم من المبادئ التي لا عهد لهم بمثلها ، والعمل على خذلانه ، فما حملهم ذلك إلا أن كثيراً من قادتهم وذوى الأحساب والرأى فيهم ، كان يخشى انفلات زمام سلطانه المطلق على قومه من يده ، كما حسب حساب انتقال السيادة عنه إلى من كان يراهم دونه ، ويعدهم من أتباعه ، وبذلك يصبح مسوداً بعد أن كان سيداً ، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً . فن أجل ذلك أذن الله لنبيه الكريم في اتخاذ أسباب القوة ، والاستعانة بوسائل المدافعة والزيادة عند الضرورة

القصوى . على أن الأمر لم يلبث أن تكشفنت نتائجه لمن كان أشرفهم عناداً وأصلبهم عوداً ، وأبعدهم إيغالا في حب التفرد بالسلطان ، والاختصاص بالنفوذ وسعة الجاه . فأدرك بعد أن راجع بصيرته ، أن محمداً لم يرد بدعوتهم إلى الله سلب سلطانهم ، أو التفرد بالنفوذ المطلق دونهم ، وإنما أراد بدعوته إيّاهم إخراجهم من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة ، ومن ذل العبودية لغير الله إلى عز السيادة والحرية بحول الله . فلما تبيينوا ذلك دخلوا في دين الله أفواجا ، وتسابقوا إلى حظيرته أفراداً وأزواجا .

لذلك لم يكذب يمحض على مبعثه صلى الله عليه وسلم نيفٌ وعشر من السنين حتى كانت دعوته الحققة تتجاوب أصدائها في أمم الأرض ، ويتردد ذكرها على الألسنة في الخافقين . فكان ذلك إرهاباً لنجاح تلك الفتوحات العظيمة التي تمت على أيدي الخلفاء من بعده ، وتمهيداً لانتشار دين الله بين الشعوب والأمم المختلفة ، فأقبل الناس عليه من أقاصى البلاد وأدانها ، وأكب أهل التفكير منهم على أصوله يستوضحون كنهه ، ويتبينون مراده ، ويستشفون مراميه وأغراضه ، ويستثمرون مكامن أسرارهِ . حتى إذا علم منهم من كتب الله له الهداية أنه سهل التناول ، سمح المبادئ ، مرضى الطريقة ، غير معقد الأصول ولا مبهم الأحكام ، اعتنقه طيّب النفس ، هادئ البال ، مطمئن الضمير . ولهذا لم تعقد العشرة الثامنة من القرن الأول إلا كان هذا الدين الحنيف قد عم - أو كاد - بقاع الأرض من سهول آسيا وصحارى أفريقيا وجانب كبير من أوربا . أو كما قال نابوليون بإعجاب : « لقد فتح العرب نصف الدنيا في نصف قرن » . وصار معروفاً عند كل ناطق بلغة من لغات

البشر ، وأصبح اسم الله يتلألأ في خواطر الملايين من بنى الإنسان ، وتعمر به قلوبهم ، وتحقق له أفئدتهم . وامتدت حدود سلطانه من أواسط الصين شرقاً ، إلى شواطئ الأطلنقى غرباً . وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

من أجل هذا كله ، وهو قليل من كثير ، وَبَرَضَ مِنْ غَزِيرٍ ، أرى أنه يجب على كل مسلم ، ويفرض على كل عربى ، ويحسن بكل إنسان آتاه الله عقلاً سليماً ، وطبعاً مستقيماً ، ورأياً حكيماً ، ووهبه ذهنًا صافيًا ، أن يوجه عنايته الفائقة إلى الاحتفال بهذه الذكرى السعيدة ، ذكرى مولد سيد المرسلين ، وإمام الهداة والمتقين ، وخاتم الأنبياء والصديقين ، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين ، « وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

عصر الاسلام الأول

١ - في عصر النبوة :

كان عصر الإسلام الأول ، عصر النبوة ، ومستهل الرسالة ، ومطلع شمس البعثة ، ومبتدأ نشر الدعوة ، وتنبيه العقول إلى الاعتبار بالكائنات ، والنظر في خلق الأرض والسموات ، وتحريك القلوب إلى معرفة الخالق ، وتوحيد المبدع الرازق . ثم تحرير الإنسانية من رق العبودية ، ووضع القواعد الصالحة للدولة المثالية ، وتشديد أركان الاجتماع على سنن الفطرة السليمة وأحكام دين الله القويم . ولم شعث العروبة بعد أن فرقها الأهواء ، ومزق شملها الطغاة الأقوياء . والعمل على توحيد كلمتها وتوجيهها إلى ما أعده الله لها من المجد والاستعلاء ، ونسج غوارب الفخر وحسن العقبي بالاندفاع إلى بسط سلطان كتاب الله الكريم ، والتمكين له في قلوب المستجيبين ، وإظهار آياته على أعين المخالفين ، وبث كلماته في نفوس المتلهفين ؛ ليكون لهم بذلك العلو في الأرض ، والحياة الحرة الكريمة بين الأمم . وما عند الله - فوق ذلك كله - خير وأبقى . والعاقبة للمتقين .

٢ - في عصر الخلفاء الراشدين :

ففي هذه الأحوال ؛ لم يفكر أحد من الخلفاء الراشدين ، عليهم رضوان من الله ، في أن لمولد الرسول صلوات الله عليه ، من الشأن ما يوجب تذكره بصورة عامة ، أو الاحتفال به واقترانه بالواجبات الهائلة التي ألقاها الدين على عواتقهم ، ولم يروا فيه مارآه غيرهم ، ممن جاء بعدهم ، من مظاهر

العزة وآيات التقوى والصلاح . وما كان يُعد عندهم سبباً من أسباب استئالة القلوب واجتذاب النفوس إلى الخير والفلاح . بل ما هو أن انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ؛ حتى انصرفوا بما أوتوا من قوة الإيمان بالله تعالى ، إلى توطيد أركان الدين في أنحاء الجزيرة العربية ، وتثبيت قواعد الإسلام في سهولها ونجودها ، على تقوى من الله ورضوان ، وتوطيد دعائمه في طوايا النفوس التي عراها من الاضطراب إثر الوفاة ماعراها ، ثم النهوض بعد ذلك ببث الدعوة المحمدية في الأمم المجاورة لأرضهم ، والشعوب المتاخمة لديارهم ، ثم التوسع في الجهاد لإعلاء كلمة الله في مختلف الأجناس البشرية ، وطرق أبواب الفتوح لإدخال الناس في دين الله كافة . وذلك بعد أن قاموا بمناهضة نزوات الدعاة الكذبة ، والمتلبئين الفجرة ، وإخماد ثورات العصاة والمتزين ، وتطهير الأرض من البُغاة والخارجين . وكان لهم من ذلك ما شاء الله أن يكون .

من أجل ذلك لم يفكروا في إحياء هذه الذكرى الكريمة ، ذكرى المولد النبوى الشريف ، ولم يجر لهم الاحتفال بها على خاطر . فإن الفرائض مُقدمة على النوافل .

٣ - في عصر الدولة الأموية :

وجاء من بعدهم الخلفاء من بني أمية ، فُشغلوا بمنازعة خصومهم من العلويين ، ومقارعة منافسيهم من الزبيريين ، ثم تجردوا لمحاربة الخوارج والمتمردين ، ونهَدُوا للعمل على تمكين قواعد ملكهم ، وتثبيت أركان دولتهم وتوحيد أزمّة الحكم والنفوذ والسلطان في أيديهم . على أنهم مع هذا كله ،

لم يلههم ذلك عن بعث البعوث ، وإزجاء الجيوش ، وبث السرايا ^(١) يتلو بعضها بعضاً إلى أقاصى البلاد ، ومتناثى الممالك ، ومتباعد الأمم ، ومتطرف الشعوب ، لمشر راية الإسلام فى مختلف الدول ، وإدخال خلق الله فى دين الله القويم .

لذلك لم يركض خاطر العناية بالذكرى النبوية فى رأس أحد من رؤسهم ، ولم يفكروا فى أن للرسول الكريم يوم ميلاد يصح تذكاره ، أو اعتباره عيداً من أعياد الأمة الإسلامية ومواسمها الحافلة . كما لم يفكر فى هذا زعيم ممن تفردوا بإنشاء الدول منهم فى أطراف البلاد التى تدين بالإسلام كبلاد الأندلس وأفريقية ، وما والاها ، فى تلك الحقبة .

٤ - فى عصر الدولة العباسية :

ثم تلا الأمويين فى حكم البلاد الإسلامية ، خلفاء بنى العباس . فكان أكبر همهم ، بادية ذى بدء ، انتزاع الملك من أواخر المروانيين ، ومطاردة الدعاة من الغالين ، ومناجزة الناجمين من أبناء عمومتهم العلويين والصابيين ، والتنكيل بكل من يحدث نفسه بالخروج عليهم ، أو يغمض عينه على قذى من سلطانهم .

وهم كذلك لم يثمنهم ما كانوا فيه من هذه الشدائد والحن ، عن بث

(١) السرايا ، جمع سرية : وهى فرقة من الجيش كانت تؤلف من ٤٠ رجلاً إلى ٤٠٠ وكان من شأنها أن تتقدم الجيش الزاحف ، للاستطلاع . وقد تلتقى بطلائع العدو فقتلته معه فى عراك إلى أن يلاحق بها الجيش . ويغلب أن يكون جنودها من الصفوة الممتازة بالشجاعة والنجدة والبسالة .

السرايا ، وإزجاء الصوائف والشواتى ^(١) إلى أطراف الممالك الدنية ، وتجميع الجند فى حدود الدول القصية ، وحشد الجيوش فى الثغور والمخاوف ، وإنشاء المساح ^(٢) على أفواه الدروب ، وفى قوارع المسالك . وإعداد المستطاع من القوى للطوارئ المييرة ، ورد عادية الجيوش المغيرة ، وكبح جماح الطامعين من الدول الأوربية ، والأهم الأسيوية ، والأجناس الإفريقية . لهذه الأسباب كلها مجتمعة ، أو متفرقة ، لم تجر فكرة اتخاذ مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، عيداً إسلامياً ، أو موسماً قومياً ، يحسن الاحتفال به ، على قلب أحد من هؤلاء جميعاً . ولو كان خطر لأحد من العباسيين خاطر الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة ، لحال دون إنفاذها أن تكون من الأسباب التى يتذرع بها أنصار الدعوة العلوية ، وأعضاء الفكرة الطالبية ، ويكون فى ذلك تقوية لدعوتهم ، وإرهاق لحدهم ، فلا تفتأ فتنبهم تتوالى فى كل صباح وفى كل مساء ، حتى لا يكون للدولة من شاغل إلا مدافعتهم ، ورد عاديهم . وعلى هذا لم أر أحداً ممن عني بتدوين أخبار هاتيك الدول ، وتسجيل أحداثها ، وتحرير شؤونها وتصرفاتها ، أشار من قرب أو من بعد ، إلى أن هذه الفكرة ، فكرة الاحتفال بالمولد النبوى ، ركضت لأحد من أممتها فى ضمير ، أو خطرت لأحد من خلفائها وأمرائها على قلب . ولا عجب فى ذلك ، لما بيناه من العلل والأسباب .

(١) الصوائف ، جمع صائفة ، وهى الفيلىق من الجيش يقوم للغزو فى فصل الصيف ، والشواتى ؛ جمع شاتية : الفيلىق من الجيش يغزو فى فصل الشتاء ، حسب حالات البلاد واختلاف الأقاليم .

(٢) المساح ؛ جمع مسلحة : وهى فرقة من الجند ترابط فى الدروب الموصلة بين الممالك ، ومن شأنها حفظ الثغور وصيانة المراقب ،

٥ - في عهد ملوك بني بويه:

ولكن العجب العاجب في أن الملوك من بني بويه الديلم^(١) المتغلبين على المستضعفين من خلفاء بني العباس ، والذين بسطوا سلطانهم على بغداد عاصمة الدنيا الإسلامية في تلك القرون ، واستتبوا أنفسهم عن أمتها بالقوة القاهرة في إدارة ملكهم الواسع العريض ردحا من الزمن - هؤلاء القوم الذين كانوا يغالون في التشيع لآل بيت الرسول ، والذين يعرفون ما بين العباسيين والعلويين من خصومة لا يطير غرابها - هؤلاء الديلم مع تشيعهم الظاهر ، لم يفكروا في إحياء ذكرى مولد الرسول صلوات الله عليه ، واتخاذها عيداً يندب الاحتفال به ، ولا اعتبروها موسماً يصح التلبية إليه . مع أنهم اتجهوا بالكثير من عنايتهم إلى التوسع في إحياء بعض الأعياد الفارسية ، وعلى الخصوص : أيام النيروز والمهرجان . فقد كانوا يعنون بها ويطعمون لها الاحتفالات الشائقة .

ومع أن معز الدولة الذي كان من عظماء ملوكهم ، وواسطة عقدهم ، كان أول من دعا إلى إشهار الاحتفال بعيد (الغدير) بالفرح والسرور ، وإلى إحياء (يوم عاشوراء) بالتحازن والتباكي والنواح ، وحمل الناس فيه على

(١) زعم بعض النسابين أن الديلم من أصل عربي . فقد روى أبو عبيد القاسم ابن سلام أن باسل بن ضبة خرج مغاضباً لأبيه فوقع بأرض الديلم فتزوج امرأة من العجم فولدت له (ديلماً) فهو أبو الديلم .

قلت : وضبة هذا هو ابن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وكان لضبة ، فيما قيل ، ثلاثة أولاد ، هم : سعد ، وسعيد ، وباسل ، والآخر هو الذي يزعمون أنه أبو الديلم ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

إظهار أنواع الآسى ، والمبالغة فى إبداء الانزاح ، وهذان اليومان هما من أيام الشيعة المذكورة ، ومواسمها المشهورة . مع هذا كله ، لم يفكر فى إحياء الذكرى النبوية ، وهى أولى بالإحياء والتفخيم ، وأدخل فى باب التشيع لأبناء الرسول ، من كل ماعداها من الذكريات

ولما كانت صلوات المودة ، وأواصر التفاهم متوشجة فى ذلك العهد ، بين آل بويه فى بغداد ، وآل عبيد الله الفاطميين فى مصر ، على تباعد ما بينهما من عوامل السياسة ، إلا أن روح التشيع كان يؤلف بين وجهات نظرهما الدينية . وكانت هذه الصلات وهاتيك الأواصر ، تظهر حيناً ، وتختفى أحياناً بسبب ما كان بين الدولتين ، العباسية والفاطمية ، من التنافس . فلم ير المعز لدين الله الفاطمى بأساً فى انتهاج سنن معز الدولة الديلى ، فى شهر هذين اليومين (يوم الغدير) و (يوم عاشوراء) وإحيائهما فيما أحيا أو ابتدع من أيام المواسم والأعياد التى أعطاها من عنايته ما تستحقه من رعاية صادقة . وقد ترسم ذلك سائر فرق الشيعة فى أكثر البلاد والممالك الإسلامية .

٦ - فى ابتراع المولد النبوى :

وهنا يجمع بى أن أقول : إن هذه المواسم والأعياد والمولد ، وما شاكلها ، وجرى فى سبيلها ، إنما تعد من البدع التى لم يأذن بها الله ، ولا ورد فيها ما يشير إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بها ، أو أشار إليها ، أو باشرها ، فى قول أو فعل - حاشا عيذى الأضخى والفطر - وكذلك لم يعرفها أحد من الصحابة ، على طبقاتهم ، ولم يشهدها أحد من التابعين ، على درجاتهم ، ولم ينوّه بها أحد من الأئمة المجتهدين الذين ضبطوا

أصول الشريعة ، وحزروا فروعها ، وبينوا مدلولاتها .
على أنه - وقد أصبحت هذه البدعة حقيقة واقعة ، وأمرأً جماعياً - يحسن أن ينظر
إليها بما يلبسها منها من نتائج . فإذا كان للأمة فيها مرفق من مرافق الخير ،
وكانت من الشؤون التي يغلب فيها الصلاح على الفساد ، والمنافع على المضار -
كانت من البدع المستحسنة التي لا بأس بمباشرتها في حدود المصلحة العامة ؛
وإلا فتعد من البدع التي يجب النظر في شأنها ، والعمل على الإقلال منها
وعدم تغذيتها بما يقويها حتى تزول من تلقاء نفسها ، مع الزمن .
وقد ثبت على الدهر أن هذه المواسم والأعياد ، بل والموالد أيضاً ،
فيها الكثير من الفوائد ، وفيها الكثير من المنافع ، وليس فيها ما يتعارض
والصالح العام . فأكثرها صار أسواقاً تتبادل فيها المتاجر ، وتتعاوض فيها
الصنائع ، وتنفق فيها السلع والبضائع ، ويتعارف فيها الناس ، وتُبدل في
أثنائها صنوف الخيرات ، وتفيض أنواع المبرات . ويجد فيها المعروف
نفاقاً ، والتخاضع وفاقاً . ويسهل فيها التعامل بين متباعدى الديار ،
ومتناهي الأقطار .

هذا : ومن الأمور البديهية أن لكل زمن أفضيته ، ولكل دهر شرعته
ولكل عصر تطورات ، ولكل جيل شؤون ومبتدعات . وليس في هذه الحياة
خير لا يتمخض عن شر ، وأيس فيها شر لا يتولد منه خير . والعمدة على
صدق النية والاتجاه نحو الفضيلة ، والعبرة بقيمة الفوائد العامة الحاصلة من
البدعة ، وتغلب المصلحة المرسل على المفسدة العارضة . وإجماع الأمة على
الأمر له خطره ، والرضاء العام له اعتباره وقدره .

عصر الدولة الفاطمية

١ - في ظهور هذه الدولة وملاساته

رأيت أنه يحسن بي ؛ قبل التحدث فيما كان للخلفاء الفاطميين من بني عبيد الله بمصر من شأن ، في ابتداع فكرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، وما كانوا يقومون به من فائق العناية ، وفاخر الاحتشاد ، وما كانوا ينفقونه في سبيله من الأموال الطائلة ، والخيرات الحافلة - أن أتحدث هنا أولاً عن أسباب ظهور هذه الدولة وعلمه وملاساته ، وما اقترن به من الحوادث والوقائع . ثم أعقد بحثاً في حقيقة أمرهم ، والنظر فيما دار حول نسبهم العلوي ، من أخذ ورد ، وتعديل ونقد ، وأن أعرض للأسباب التي دعت إلى إثارة الغبار عليهم ، ومحاولة تناولهم من هذه الناحية للحط من أقدارهم ، وأوضح موقف دولتهم وخلفائهم من الدولة العباسية وخلفائها . ليكون المطلع على بيئة من حالهم ، واستنارة في شأن نسبهم . ولئلا يُخدح بما تناقله بعض المؤرخين وأصحاب الأخبار عن الرواة المقيمين ، مما لا يتفق والصحيح من أحوالهم ، ولا تؤيده المعدلة في شأنهم . فأقول :

من المعلوم عند من له إلمام بالتاريخ الإسلامي ، أن الدولة العباسية إنما قامت ، في أول أمرها ، ومفتتح عهداها ، على الدعوة إلى (الرضا من آل محمد) وهذا التعبير فيه لبس وغموض . فقد يفهم منه العامة أنه يشير إلى آل بيت الرسول من أبناء فاطمة ، وقد يقصد به منتحلوه المعنى الأعم حيث يدخل فيه أعمام الرسول وأولادهم . كما يدخل فيه أبنائه وأنسابهم . فلما استجاب الناس

إلى هذه الدعوة بمعناها المفهوم بداهة ، واستتب الأمر لأبي العباس عبدالله السفاح ولأبي جعفر المنصور ، وانتظم السلطان للدولة العباسية ، واتسق لها النفوذ والحكم ، وجهت همتها إلى النظر فيمن يرى له الحق في منازعتها الأولوية بدعوى الخلافة الإسلامية ، وإلى من يصح أن ينظر إلى ما صار إليها وأصبح في يدها من ملك عريض ، ودولة مترامية الأطراف - على أنه أحق به وأجدر - فلم ترأماهما من ينافسها في ذلك بحجة واضحة وسلطان مبين ، إلا شيوخ السلالة العلوية من أبناء فاطمة ، وهم (آل محمد) وعترته على التحقيق . ومع أن العباسيين إنما قاموا على أساس الدعوة إلى الفواطم من أبناء علي وباسمهم استجابت لهم الأمم . واثالت عليهم زعماء الشيعة ، ورجال الدعوة ، وبدعوى الثأر لهم نكّلوا بالأمويين وثلوا عروشهم ، وشادوا ملكهم الضخم على أنقاض دولتهم . مع هذا كله ؛ فقد وجه أبو جعفر المنصور ومن تلاه من أولاده وأحفاده ، جل همتهم إلى إبادة أبناء علي ، ومحو سلالته من فاطمة ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فكانوا يطاردونهم حيثما ثقفوا ، ويعفون آثارهم أينما وجدوا .

بشوا عليهم العيون ، وقعدوا لهم بالمرصد ، وتتبعوا ظلالهم في أنحاء البلاد ، وطلبوهم تحت كل حجر ، وخلف كل مدر ، فما ظهر منهم داع في أى مصر من الأمصار إلا سيرت إليه الجيوش ، ولا نبغ فيهم قائم إلا استبيحت منه الحرمات ، وغرق هو ومن ناصره في بحار من الدماء ، ونكل بأهله شر تنكيل . وما كان يمر يوم من أيام دولتهم دون أن يرى الناس فيه من العلويين قتيلا ، أو مصلوبا ، أو يسمعون عن بعضهم بسجين ، أو طريد ، أو شريد . فالذى ينكشف

أمره في أى قطر من أقطار الدولة ، أو أى بلد من بلادها - قرب أو بعد - قُتل أو صُلب . والذي يتراعى إليهم أمره خارج سلطانهم ، دسوا إليه من يخدم أنفاسه ، بأى وسيلة من وسائل الختف ، بالسهم أو بغيره .

ومع ذلك فقد شملتهم البركة ، وكتب لهم النماء والكثرة ، وصح فيهم قول على أبيهم : بقية السيف أكثر عدداً ، وأنى ولدأ .

كان هذا شأن العباسيين مع أبناء عمومتهم - العلويين والهاشميين - أيام قوة الدولة لا يستهان بها ، وأيام صعود نجمهم في أوج العزة والشوكة . فلما حالت العهود ، وأخذت الدولة في التبدل من سماء العزة والجبروت ، وتغلب على خلفائها الملوك الديالم من بنى بويه ، وانفصلت عن سلطانها بعض الولايات . كان الفاطميون من بنى عبيد الله - وقد نجوا من كيد العباسيين - أسسوا ملكهم بالمغرب ، وشيدوا دولتهم فيه بما تهيأ لهم من قوة ، وما أظهروا من بأس . ثم أخذت شوكتهم في الاشتداد ، وسطوتهم في الامتداد ، حتى استولوا على الكثير من أمصار الدولة العباسية ، وملكوا بضعة من أقطارها العظيمة في أفريقية وفي آسيا . وناهيك بحيازتهم مصر والشام والحجاز واليمن ، وكانت أجل بلاد الدولة العباسية وأفضل أمصارها .

فلما رأى العباسيون هذا الخطر المحدق بهم ، وعلموا ألا قبل لهم بمقاومة هذه الدولة الحديثة الناشئة ، وأنها توشك أن تزيلهم عن عروشهم ، وتقبض على زمام الأمر في عُقر دارهم . ففكر بعض خلفائهم في حيلة تكف عن بلاده غرب حذتهم ، وتدخل الشك على الناس في حقيقة أمرهم ، وتصرف الوجه عن تأييدهم ، والقلوب عن الميل إليهم . وبعد لإعمال الفكر وإدارة

الرأى ، هده التفكير إلى ضلالة رأى فيها أن أقرب شىء يؤدى إلى هدفه المرجو ، ويوصل إلى مقصده المبتغى ، انتحال الطعن فى نسبهم ، ونشر الدعوة إلى نفهم عن آبائهم وأمهاتهم ، وإلحاقهم ببعض الانساب التى تنفر منها القلوب ، وتشمئز النفوس ، وتمجها الاسماع ... وهذه حيلة العاجز وملجأ الضعيف .

أما الطالبيون على العموم ، والعلويون على الخصوص ، فقد كانوا طوال عهود الاضطهاد ، وأزمان تلقى الكروب والويلات - لاسيما من أبناء عمومتهم العباسيين - يلجأون إلى الاستتار ، بقدر استطاعتهم ، ويعيشون فى زوايا الاختفاء ، متهيات لهم الأسباب . وهم فى خلال ذلك لا ينفكون عن بث دعوتهم سرا ، ولا ينون عن لم شعث أنصارهم وشيعتهم ، ولا يغفلون عن اتخاذ الوسائل للإثارة والقيام ، وإعلان دعوتهم متى أنسوا فى أنفسهم القوة والاعتصام . حتى إذا ما ظن أحد زعمائهم بأن الظروف قد واثته ، وحسب أن القدرة على المكاشفة قد حاطته ، ظهر ودعا إلى (الرضا من آل محمد) وقد كان هذا شعار العباسيين فى مناشئ دعوتهم كما أسلفنا . فإذا استحكمت له العدة ، وانعقد له الأمر وبلغ حده ، ورأى حوله تجمع أسباب الغلب والتمكن ، كشف الغطاء عن خبيثة صدره ، وصرف الدعوة إلى نفسه .

وعلى قاعدة التستر والترقب ، والاختفاء والتوثب ، ونشر الدعوة فى السر والاختباز بمقام التوثق ، جرى أمر الفاطميين فى مبتدأ أمرهم ، ومستهل نشأتهم . وفى سنة ٢٨٨ هـ ٩٠١ م وفى عهد الخليفة المعتضد العباسى ، ظهرت الدعوة الفاطمية بالمغرب ، على أيدي أبى عبد الله المحتسب الشيعى وأخيه

أبي العباس . ونشرا دعوتهما في أول الأمر ، على القاعدة المعروفة - إلى (الرضا من آل محمد) فلما استجابت لهما قبائل كتامة القوية الباسلة وأيدتهما بما أوتيت من قوة وبأس ، حتى إذا ما استحكم لهما الأمر ، ودخل الكثير من القبائل الأخرى في دعوتهما ، لم يلبثا أن كشفا القناع وأعلنا بالدعوة إلى عبيد الله المهدي رأس الفاطميين ^(١) . وسرعان ما دخل الناس فيها أفواجا . وكان المعتضد العباسي من أحزم خلفاء بغداد ، وأقواهم نفسا ، وأشدهم أمرا ، وأسرعهم نهوضا في العظام ، وأصبرهم صمودا في وجه المتوثبين على الدولة من العلويين وغيرهم . فأباد منهم من أباد ، وشرد من شرده ، حتى استقام له السلطان المطلق ، واستتب له الأمر المحكم ، واستردت الدولة العباسية في عهده الكثير من رسومها القديمة ، واستعادت الخلافة الإسلامية هيبتها الموروثة . وقد توفي سنة ٢٨٩ هـ ٩٠٢ م .

كان حينما بلغه أمر الدعوة إلى الفاطمي عبيد الله المهدي بالمغرب ؛ كتب إلى بني الأغلب ^(٢) أصحاب القيروان وأمراء أفريقية ، وإلى آل مدرار

(١) الفاطميون الذين قاموا بالمغرب هم : عبيد الله المهدي ، وهو رأسهم وإليه ينتسبون فيقال لهم (العبيديون) تولى خلافتهم في سنة ٢٩٦ هـ ٩٠٨ م وتوفي سنة ٣٤٢ هـ ٩٣٣ م ثم تولى بعده ولده القائم بأمر الله نزار ، وتوفي سنة ٣٣٣ هـ ٩٤٤ م ثم قام من بعده ولده المنصور إسماعيل ، وتوفي سنة ٣٤١ هـ ٩٥٣ م ثم قام من بعده ولده المعز لدين الله معتمد ، وكان دخوله مصر في سنة ٣٦٢ هـ ٩٧٣ م ، وبها توفي سنة ٣٦٥ هـ ٩٧٥ م .

(٢) بنو الأغلب : أسرة عربية تولى القيروان وما والاها ملوك منهم معترفا لهم بالإمارة من الخلفاء العباسيين . وكانوا بها مستقلين مع الإقرار بسلطة الخلافة العباسية . ومؤسس هذه الأسرة هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي =

أصحاب سجلماسة ، ^(١) بمعارضة دعاة الفاطميين وقبضهم والتنكيل بهم ، وإخماد نائرتهم ومع هذا لم يفكر في المساس بنسبهم .

غير أن الدعاة كانوا قد مهدوا السبل ، وعبدوا الطرق ، وأعدوا النفوس لقبول المهدي عبيد الله ، فدخل المغرب منتكرا في زى التجار - وكان ذلك في سنة ٢٩٠ هـ ٩٠٣ م في عهد خلافة المكتفي العباسي - وكان الطلب يلاحقه في كل وجه . فلما بلغ إلى سجلماسة ، هو وولده القائم ، قبض عليهما اليسع بن مدرار أميرها ، وأودعهما السجن ... وما أن علم بذلك أبو عبد الله الشيعي صاحب الدعوة الفاطمية حتى شن الغارة على ابن مدرار وهزم جيشه ، ومنق شمله ، واستولى على سجلماسة ، واستخلصهما من السجن .

وكانت لهم بعد ذلك وقائع وحروب وغارات ، تغلبوا فيها على ملك بني الأغلب ، وعلى من ناوهم من أمراء أفريقية والمغرب وعلى عمال بني العباس ،

= توفي سنة ١٩٤ هـ ٨٠٠ م في عهد هرون الرشيد . وظلت تنتقل في ولده إلى أن وليها آخرهم أبو مضر زيادة الله سنة ٢٣٦ هـ ٩٠٩ م وبه انقرضت دولة الأغالبة باستيلاء عبيد الله المهدي على ملكهم . وكانت هذه الأسرة من أجل الأسر التي جاهدت في سبيل الله . ومن أشهر مآثرها غزوها صقلية واستيلاؤها عليها وعلى غيرها وضمها إلى إمارتها ، مما هو مفصل في بطون التاريخ .

(١) كان لخوارج الصفرية والاباضية شأن يذكر بأفريقية والمغرب . ففي سنة ١٤٠ هـ ٧٥٧ م وقع اختيارهم على عيسى بن يزيد الأسود ، وكان من الموالي ، فاختمت سجلماسة واتخذها دار ملك لهم ، ثم سخطوا عليه فأوثقوه وألقوا به على قنة جبل فهلك في سنة ١٥٥ هـ ٧٧٢ م ثم تولى بعده ملوك من أولاده وأحفاده إلى أن كانت سنة ٢٧٠ هـ ٨٨٣ م حيث تولى اليسع بن المنتصر بن مدرار ، وهو الذي قتله أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي سنة ٢٩٦ هـ ٩٠٩ م ثم جرت بعد ذلك خطوب وأحداث وفتن لاحتل لذكرها هنا ، وقد ألم بها ابن خلدون في تاريخه .

وفر منهم زيادة الله بن الأغلب صاحب القيروان ، واستولوا على البلاد ، ودانت لهم العباد ، وصفا الزمان ، واستتب الأمر .

ولما قبض عبيد الله المهدي على أزمة السلطان في المغرب ، واشتدت شوكته في أفريقية ، وخضعت لنفوذه قبائل البربر ، وناصرته عشائر العرب ، أحس من أبي عبد الله الشيعي وأخيه صاحب دعوته ، إدلالا عليه ، وتنفجا بما قام به من نشر الدعوة ، وتمهيد الدولة . ورأى منهما تمردا على أوامره ، واثمرا على منابذته والخروج عن طاعته ، فلم يطق على ذلك صبورا ، بل بادرهما في الحال بالتخلص منهما ، وأذاقهما الموت الوحشي . ولم يرع في جانبهما إلا ولا ذمة .

وقد جرى في فعلته هذه على ما جرى عليه أبو جعفر المنصور العباسي من قبل ، في أمر أبي مسلم الخراساني القائم بالدعوة العباسية . وكما فعل عبد الملك بن مروان من قبلهما في عمرو بن سعيد بن العاص .

والملك عقيم ، لا يرعى في تثبيت أركانه ، أصرة من أوامر القربى . ولا يقيم وزنا في تشييد دعائمه ، لوشيجة من الوشائج والصلات مهما كانت قيمتها ، ولا يحتمل الإدلال من أي كائن مهما عظم بلاؤه وتوفرت على يديه أسباب السلطان والنفوذ ووسائل الحكم . لا فرق في ذلك بين قريب النسب ، أو بعيد السبب .

أراح المهدي نفسه من الوسوس التي أقضت مضجعه ، وكادت تكدر عيشه ، من حركات أبي عبد الله وأخيه . وبذلك تم له الأمر ، وصفا الوقت ، وأقبل عليه الخلق يبائعونه بالإمامة ، ويدعون له على منابر البلاد بالخلافة .

واختط مدينة (المهدية) واتخذها دار ملكه ، وقاعدة سلطانه ، ومبعث سطوته ونفوذه .

غير أن ماصارت إليه هذه الدولة الفتية من عظيم الشوكة ، وخطر السلطان نعص على خلفاء بني العباس حياتهم ، وكدر عليهم عيشتهم ، وأقض مضاجعهم وصارت شجى في حلوقهم ، وقدأ في عيونهم . خصوصاً بعد أن انتزع منهم الفاطميون الكثير من ولاياتهم ، وشاركوهم في ممالكهم . ولم يكفهم ذلك بل بثوا دعائهم فيما بقي من بلادهم ، بين الظهور والخفاء ، فدخلوا عليهم عقر دارهم ، وتغلغلوا في عاصمتهم ، وصار لهم في بغداد شعبة هائلة يعتد بها ويعمل حسابها .

لم تقف همه عبید الله المهدي عند هذا الحد ، من تكوين الدولة الفاطمية على حساب أملاك الدولة العباسية ، بل فكر وأعد العدة للاستيلاء على الديار المصرية ، وهى مفتاح الحرمين الشريفين ، وصلة ما بين القارتين ، فجهاز جيشاً ضخماً وسيره في أسطول لمهاجمة الإسكندرية . فاحتلها وانتشرت عساكره حتى الفيوم . وكان ذلك في سنة ٣٠٢ هـ ٩١٤ م . ولما ترامت الأخبار إلى المقتدر العباسي في بغداد لم يتوان في إرسال الجيوش من عاصمة الخلافة ، فالتقت بجيش المغاربة وهزمته وفرقت شمله ، بمساعدة من كان بمصر من الجند ، وقتل القائد المغربي حُباشة في المعركة ، وذهبت فلوله إلى برقة . وكان على ولاية مصر في ذلك الحين ، أبو منصور تكين بن عبد الله الخزرى .

ثم توالى بعد ذلك غزوات الجيوش الفاطمية على ثغور الديار المصرية المرة بعد المرة . وكان نصيبها في كل غزوة الفشل الذريع ، والهزيمة الساحقة

إما بدفع الجيوش المصرية، وإما بفتك الأوبئة والأمراض والطواعين الجائحة .
وفي عهد الدولة الأخشيدية ، أيام زمام الأمر في يدي كافور ، رأى
ذلك الخصى النابه بشاقب فكره ، أن الأمر يحتاج - في رد عادية الفاطميين -
إلى سياسة خاصة . وكان على شيء كثير من الحنكة والدهاء ، وعلى مواهب
من وفور الحكمة ونفوذ البصيرة . لاسيما أن الجيوش المصرية قد أفنتها
كثرة الغارات وفرقتها توالى الحروب واستمرار المعارك في رد جيوش
القرامطة وغيرها من فرق التخريب والتدمير ، وعناصر الإفناء والاجتياح ،
بله الأمراض الوافدة ، والأوبئة الفاتكة . ففكر كافور في كل هذا وقدر ،
وأدار الرأي وتبصر ، وانصرف جل اهتمامه إلى أن يكفى البلاد جوائح
هؤلاء المغيرين ويقل من شبابة مطامعهم .

وبينا هو يضرب أخماسه لأسداسه ، حضرت أم المعز لدين الله إلى مصر
قاصدة الحج إلى بيت الله الحرام . فانهز كافور هذه الفرصة المواتية ، وأكرم
وفادتها وحاطها بالكثير في صنوف الرعاية والعناية ، وأفاض عليها من
ألوان البر والإكرام ما عقد لسانها عن أداء ما يجب من الحمد والشكر . ولم
يكتف بما شملها به من كبير العطف أثناء مقامها بمصر ، بل زاد على ذلك
بأن أرسل معها إلى الأماكن المقدسة ثلثة من الجيش المصرى ، ترعاها
وتحفظ ركبها الفخم الذى كان مؤلفا من هودج خاص لها ، وقطار كبير من
الجمال يحمل أمتعتها ، ويقل حاشيتها .

ولعل هذا كان أساسا لفكرة (المحمل) التى نشأت في عهد شجرة الدر .
وحصل الافتتان في تسيير ركبها في حراسة فرقة من الجيش ، وفي أبهة

بالغة ، واحتفال كبير . ثم جرى العرف بعد ذلك على إرسال المحمل بحفاوة عظيمة إلى اليوم .

ولم يلجأ كافور إلى ذلك إلا لأن طريق الحج في تلك الآونة ، كان غير مأمون . فأدت السيدة أم المعز فريضتها آمنة مطمئنة ، ثم عادت إلى بلادها راضية مرضية ، تذكر لكافور حسن الرعاية ، وللبصريين جميل العناية ، وتشيد بما لاقت من كرم الضيافة . ثم تحدثت إلى ولدها المعز بكل ما شاهدت وما لقيت ، مطلقة لسانها بعظيم الشكر وجميل الشناء ، مما أثلج صدره وحل من نفسه محلا كريما . وحفظ لكافور وللبصريين هذه اليد العالية في الكرم ، ولم ير ججدها من نبيل الشيم .

ثم وإلى كافور بعد ذلك إرسال الهدايا إلى المعز وخواص حاشيته ، وسعى معيه المشكور إلى أن عقد بينه وبين المعز معاهدة صداقة وحسن جوار ، كما يصنع ودهاة السياسة في هذا العصر . فكف بذلك عدوان الجيوش المغربية ، وشمل حركة الأساطيل الفاطمية ، وكسب لمصر صداقة القواد وإعجابهم ، فلم يحركوا ساكنا ، ولم ينقضوا عهدا .

وظلت هذه المعاهدة قائمة الشرائط ، مرعية الأركان ، ما بقى الأمر لكافور . فلما توفي سنة ٥٣٥٧ هـ ٩٦٨ م وانتقل الأمر من بعده إلى بقايا الإخشيديين ، ساءت الحال في الديار المصرية ، وقام التنافس بينهم على الملك ، واستحضر التنافر على النفوذ ، وعجز الوزراء عن إرضاء الجند ولم يتمكنوا من صرف أرزاقهم ، لاضطراب تحصيل الجباية ، وضياع الأموال في الفتن ، فعمت الفوضى ، واختل النظام ، وذهب الأمن ، وذاع الخوف والقلق ، وشمل

الهلول والفرح، هنالك لم ير العقلاء وأهل الرأي من المصريين، مندوحة عن الاستعانة بالمعز حليف مصر. فكتبوا إليه بوصف ما صارت إليه الحال من السوء، ودعوه إلى المبادرة بالحضور لإنقاذ مصر مما أصابها من الفتن، وانتشالها مما تردت فيه من أسباب الخراب والدمار.

كانت الأحوال في مصر قد ترامت إلى أسماع المعز في المغرب، فترى إلى أن وصلت إليه رسالة المصريين بالدعوة. هنالك لم يبدأ من المبادرة إلى الإنقاذ، فجهز جيشاً لجباً بقيادة جوهر الصقلي، وأمدّه بالأموال الجسيمة، والاعتدة العظيمة، فوافى بذلك كله الديار المصرية. وإلى هذا أشار ابن هاني الأندلسي^(١) في قصيدته التي أنشدها بين يدي المعز بالمنصورية والتي أولها: تقول بنو العباس هل فتحت مصرُ فقل لبني العباس قد قضى الأمرُ وقد جاوز الإسكندرية جوهرُ تطالعه البُشرى ويقدمه النصر وقد أوفدت مصر إليه وفودها وزيد إلى المعقود من جسر ها جسر فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت وأيديكم منها ومن غيرها صفر فلا تكثروا ذكر الزمان الذي خلا فذلك عصر قد تقضى وذاعصر وبعد، فلم يكن الفاطميون بدعا. من الملوك الذين تقدموهم على الزمن،

(١) هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدى الأندلسي. كانوا يلقبونه (متنبى الغرب) وهو أشعر الشعراء المغاربة بلا منازع. ولد بإشبيلية سنة ٣٢٦ هـ ونبغ في قول الشعر نبوغاً لفت إليه ملوكها وأمرائها، فكان حظاً عندهم ثم رحل إلى المغرب واتصل بالمعز لدين الله ومدحه وأشاد بذكر رجاله وقواده وحظى عنده. فلما هم المعز بالانتقال إلى مصر شيعه ابن هاني وأنشده هذه القصيدة الفاخرة، وهى من أجل شعره. ثم أخذ في الاستعداد للحاق بالمعز والعيش في كنفه بمصر فلما وصل إلى برقة توفى هناك سنة ٣١٢ هـ ٩٧٣ م وأسف عليه المعز أسفا شديداً.

أو القادة والزعماء الذين جاءوا من بعدهم فأنشأوا الدول ، وشادوا الممالك ،
في انتهاز الفرص للاستيلاء على البلاد ، واهتبال الشُّهز لبسط النفوذ والسلطان
على الأمم ، ما ساعفتهم المقادير ، وواتاهم الحظ والتدبير . فهذه سُنّة من سنن
الاجتماع البشرى ، بل هي خاصة من خواص الظواهر الطبيعية . جرى
عليها طُغاة السلف ، وتأسى بهم فيها دُهاة الخلف . ولا تزال ظاهرة الأثر ،
بينمة المعالم في دول الأرض وأمم العالم إلى اليوم . وستبقى في الدنيا ما بقي
في الحياة إنسان يدب على وجه الثرى . لا يحول دون عملها في النفوس
معاهدات ، ولا يمنع من مقتضياتها محالفات . ولو أنك نظرت بعين المفكر
الخبير ، لرأيت أن الشرائع السماوية على جلالها وقديسيها ، لم تقو على حل
عقدتها ، ولم تؤثر في خضد شوكتها ، أو فلحدثها . فما ظنك بالقوانين
الوضعية التي ابتدعها هذا الإنسان الناقص الملمات ... ؟

ولا يغرنك ما تقرأ في الحين بعد الحين ، أو ما تسمع في الفترة بعد
الفترة ، من تلك العبارات الصماء ، وهائتيك الألفاظ الجوفاء ، التي يرددها
طغاة السياسة الأوربية في العصور الحديثة كلها اتجهت أطماعهم إلى اغتيال
أمة ، أو اختداع شعب ، من كلمات (الحرية) وعبارات (الديمقراطية)
والفاظ (العدالة) ومخدرات (الاعتراف بحقوق الشعوب في تقرير مصايرها)
ولا تخدعنك تلك المنشآت التي يدعون إلى تأسيسها ، كلها حفزهم الخوف من
انكشاف مرايمهم ، مثل (عصبة الأمم) و (مجلس الأمن) و (هيئة الأمم
المتحدة) وغير ذلك من مجالس الوزراء ، ومجامع الكبراء . فما كان هذا كله
إلا من بدع الساسة ، وأساليب الدهاة الغالين ، اختلقوها وزيفوها على

أُممهم وشعوبهم ، ليجاروهم في مطاعمهم . كما اخدع بها بعض الأمم والشعوب التي لم يتيها لها ماتيها لهم من أسباب القوة الحربية - من غربية وشرقية .

وقد دلت الأحداث الأخيرة بعد الحرب الماضية ، أن تلك العبارات التي لا تزال تتردد على الألسنة الأوربية ، والمجالس أو الهيآت التي أنشئت ودعى الناس إلى الالتجاء إليها لكشف الظلمات ، وإنصاف المستضعفين من الأمم والشعوب - على أنها لم توجد إلا لستر مطاعم الغلاة في الاستعمار ، وحجب ما يحول في نفوس الجبابرة من اجتياح الأمم المستضعفة ، والشعوب المستكينة ، ولم تكن إلا أداة لتأييد الأقوياء في استغلال الضعفاء .

كما أوضحت الوقائع والشواهد أن الدولة القوية ، بأسلحتها المختلفة ، لا تعرف عهداً ولا ميثاقاً ، ولا نقيم وزناً لعقد أو حلف ، إلا إذا كان ذلك مع دولة تماثلها في القوة ، وتناظرها في العدة الحربية . أما إذا كان الحلف أو العهد مع دولة دونها في شيء من ذلك ؛ فلا يكون إلا لاستغلالها وفرض السلطان عليها ، أبت ذلك أم رضيت . مستعملة في الوصول إلى أغراضها ومطامعها أساليب الكذب والغش والخداع والنفاق . ومن وراء ذلك القوة الغاشمة . والدول الأوربية مع هذا تزعم أنها وأممها قد بلغوا في معارج المدنية الأوج ، وسامتوا في الحضارة أعنان السماء .

وإذا كانت هذه الخلال التي بدت وتبدوا منهم إنما هي من ثمرات المدنية ، ومن دلائل الحضارة الإنسانية ، فلعنة الله عليها من مدنية وحضارة ، ورحم الله أزمان الخشمية السافرة ، وعهود البربرية الظاهرة . فقد كان أولئك المنعوتون بالبرابرة والبداة ، أصدق في أقوالهم ، وأقصد في أفعالهم ، من

هؤلاء الأوربيين أهل المدنية والحضارة العصرية .

وقد كان الفاطميون ممن جرى على السنة الطبيعية ، ومن ترسموا آثار أسلافهم فيها ، ولم يكونوا بدعا منهم في تصرفاتهم . غير أنهم لم يعقدوا العزم القاطع على إرسال جيوشهم إلى مصر ، ولم يلتدبوا للاستيلاء على وادى النيل ، إلا بعد أن وصلت إليهم الدعوة الصريحة من المصريين ، وإلا بعد أن كتب إليهم بها العقلاء من أهل الرأي وذوى المكانة فيهم . وبعد أن فقدت الأمة كل أمل في استصلاح الحال ، واستتباب الأمن والاطمئنان على الأنفس والأموال والحرمان ، مما لا يمكن احتماله أو الصبر عليه . وذلك من جراء الفتن التي نشبت بين الأسر . الإخوة يديدة على الملك والسلطان .

قد يقال : ولم لم يستنجد المصريون في هذه الحالة بالدولة العباسية ، وهي أقرب إليهم ، وأمس رحما ، من الدولة الفاطمية ؟ لا سيما وقد كانت لها على مصر السيادة الاسمية ؟

فأقول : إن المصريين كانوا في تلك الحقبة أبصر بشؤونهم ، وأدرى بمكان المصلحة لهم ، وأعلم بما يضرهم وما ينفعهم . وقد جربوا الدولة العباسية في كثير من الحوادث ، فلم يروا منها ما كانوا يتوقعون من الخير والصلاح ، بل كثيرا ما رأوا أن همّ ولاية هذه الدولة كان جل ما ينصرف إلى مصالحهم الخاصة ، ثم إلى ما يهملها من الجبايات والضرائب . وذلك فضلا عن أن الدولة العباسية كانت في ذلك العهد واقعة تحت نير استبداد المتغلبين من الترك والديلم ، ثم السلاجقة بعد ذلك . فلم يكن لخلفاء بني العباس معهم

حول أو طول ، ولم يكن لهم من مظاهر السلطان والنفوذ إلا اسم الخلافة .
أما الأمر والنهى والتصرف المطلق ، فقد كان فى أيدى أولئك المتغلبين .
يضاف إلى ذلك أن الدولة العباسية كانت تصطبى نار الفتن والاضطرابات
التي كادت تكون عامة فى كل بقاع ممالكها . فمن معارك بين بنى بويه أنفسهم
منافسة على التغلب على بغداد ، ومن حروب لا ينادى وليدها ، مع القرامطة ،
ومن وقائع لا تقف رحاها مع غيرهم من الدعاة والناجمين ، والخوارج والشافريين
فى أغلب الولايات .

وعلى هذا فقد كانت الدولة العباسية فى ذلك الزمن غارقة فى بحار من
الدماء ، وليس فى مقدورها إطفاء نائرة الفتن وانتشال مصر من الجوع
والخوف ، وهى تسبح فى لجج من الإضطرابات وتعانى مضض الخوف والجوع .
طاف كل هذا فى خواطر المصريين ، فاتجه الرأى الصالح إلى الدولة الفاطمية ،
تلك الدولة الناشئة القوية ، ذات الشوكة والنفوذ ، ولأنها الدولة الفتية التى
ظهرت فى عالم السياسة جامعة كل عناصر التمكين وأسباب البقاء . وعلى
الخصوص لأنها قامت على دعوة الأصالة العلوية ، والنسب الفاطمى الكريم .
والمصريون بطبيعة تاريخهم الإسلامى من أميل الأمم إلى التشيع ، كما أنهم أقرب
المتشيعين إلى الاعتدال . فهم يحبون عليا وآل على وأبناء على ، ولا يبغضون
أحدا من أصحاب رسول الله . ولا يفرقون بينهم فى الفضل . ففهم السنة
الحسنة ، وفهم التشيع المحمود . لا يحملون فى كل هذا عصية جائرة ،
ولا يضمرون نصية فائرة .

وكذلك كان للبصريين العذر الواضح فى دعوة الفاطميين لإقامة نظم

الحكم في البلاد ، لأن جيوشهم التي كانوا يعتمدون عليها في طمأنينة الأمة ، وحفظ الأمن بين الرعايا في الأوقات العصيبة ، كانت قد تفانى معظمها في رد غارات القرامطة ، ودفع عادية العادين من ذوى الفكر المقووضة ، والمذاهب المدمرة - عن اجتياح ديارهم ، وتخريب أوطانهم ، كما اجتاحوا الكثير من ولايات الدولة العباسية وممالكها ، وخربوا ديارها ، وأبادوا عبادها . فما كان للدولة العباسية إذ ذاك من الجيوش ما يمكن الاستغناء عن بعضها لإنجاد الديار المصرية ، ولا كان لمصر من الجند والقادة ما تقوى به على رد السكينة في ربوعها ، وانتظام الأمر ونشر ألوية الأمن في البلاد .

لهذا كله مجتمعا أو متفرقا ، كانت دعوة المصريين للفاطمين ، والاستعانة بقوتهم ، والتدرع بمحدهم وشوكتهم ، من الضروريات التي لا معدى هن الالتجاء إليها .

فأنت ترى أن الجيش الفاطمي الذي قاده جوهر الصقلي ، لم يزحف إلى مصر فاتحا ، ولم يحجى إليها في هذه المرة غازيا ، ولكنه حضر مدعوا من أهل الرأى فيها ، وذوى المسكنة من بلنها . وما استجاب الدعوة إلا لإنقاذ الأمة من عوامل الفوضى ودواعي الاضطراب ، التي كانت تعانها من جراء فتن الأخشيديين وتنازعهم على الحكم ، وتناحرهم على الملك .

ولو كان الفاطميون من صنف أو اشكم الغزاة المخربين المستغلين ، لما بادروا عند وطء أقدامهم أرض مصر ، بتخطيط القاهرة المعزية ، وإنشاء القصور الفخمة فيها ، ولما فكروا في وضع قواعد الجامع الأزهر وتشبيد أركانه . وذلك كله بأموالهم التي حملوها معهم من خزائن ملكهم بالمغرب .

كما انتشلوا بها الأمة من بين أياب القحط ، وبرائن الجوع والفاقة . فقد مد المعز لدين الله جوهر القائد بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وأوصاه في سيرته السياسية والعمرانية والاجتماعية ، بما كان يوصى به خلفاء الإسلام الأول قادة جيوشهم عند بعثهم وتسميهم للشركمة الله . ثم حضر المعز بنفسه ، بعد أن تمهدت له الأمور ، على رأس جيشه المنصور . وكان فيما حمله معه إلى مصر ، خزائن الأموال الحافلة بكريم النضار .

قال أصحاب الأخبار ، ومقيدوا الوقائع والآثار : إن المعز حضر إلى مصر بمئات من الجمال عليها سبائك الذهب ، كل سبيكة في قدر رحي الطاحون ، حتى إن الجمل الواحد لا يستقل بأكثر من سبيكتين ، ولا يقوى على حمل غيرهما . وذلك بخلاف المسكوكات التي حوتها الخزائن العديدة . ولا تسلم مع هذا عما جاء به معه من الذخائر العظيمة ، والتحف الثمينة ، والأعلاق النفيسة . كما جاء برفات آباءه في صناديق لتدفن في أرض السكينة المحروسة . وما تحسن الإشارة إليه ، أن المعز لدين الله كان على جانب عظيم من العلم والثقافة ، فقد كان متفوقا في معرفة كثير من العلوم والفنون والآداب ، التي كان لها شأن في ذلك العهد كما كان متبحرا في فقه الشريعة ، أصولا وفروعا . وكان يحيد ، إلى جانب لغته العربية ، كثيرا من اللغات الأخرى . لا سيما الرومية ، والبربرية ، والصقلبية ، والسودانية ، مع الوقوف على لهجاتها .

ولو كان المعز من الفاتحين المستغلين الجائرين ، لألحق الديار المصرية بقاعدة مملكة بأفريقية ، ولجعلها ولاية تستغل ، وضيعة تستثمر ، لعاصمة دولته بالمغرب . شأن الغزاة والفاتحين ، والطغاة المستغلين . ولكنه تنكب

هذه الطريقة الجائرة ، وألحق ملكه الضخم في أفريقيا والمغرب ، بالديار المصرية ، وجعل بلاده تابعة لمصر . وبهذا أضاف إليها ملكا كبيرا ، وسلطنة مترامية الأرجاء ، ما كانت تحلم بها في يوم من الأيام . وصارت بذلك « القاهرة المعزية » قاعدة للدولة الفاطمية .

ومما حدث - قبيل قدوم المعز إلى الديار المصرية - أن الشريف الحسن ابن جعفر الحسني^(١) صاحب الحرمين الشريفين ، ثار بأرض الحجاز ، وقطع الخطبة للخليفة العباسي ، وخطب باسم المعز في مكة ، وكتب بذلك إلى جوهر بمصر . فبعث جوهر بأمره إلى المعز بالمغرب ، وبشره بما تم له من هذا الفتح العظيم ... فمُرَّ المعز بذلك ، وأرسل إليه بتقليده ولاية الحرم الشريف وأعمال الحجاز . واستمرت الخطبة ، منذ ذلك التاريخ ، للفاطميين أصحاب مصر ، بالحرمين الشريفين ، إلى أيام الحاكم بأمر الله . وفي خلال هذه الفترة ، تم استيلاؤهم على الشام والحجاز واليمن ، وخطب لهم على منابرها .

وكان الحاكم بأمر الله ، لما ولي الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٣٨٦ هـ ٩٩٦ م بعد وفاة العزيز بالله قد صدرت عنه بعض التصرفات الدالة على الشذوذ ، إذ بينا تراه من أعقل الناس ، إذ ابك تلبس منه سخفا لا يحىء من مثله . وكان كما قيل ،

(١) هو أبو الفتح الحسن بن جعفر بن محمد الموسوي الحسني العلوي ، أحد أشرف مكة وأمراء الحجاز على عهد الدولة العباسية ، ثار في بلاده ودعا إلى البيعة للمعز الفاطمي ، فجاءته الخلع والهدايا ومرسوم الولاية على الحجاز . ولما مات المعز حاول خلع الطاعة الفاطمية ، وادعاء الخلافة لنفسه ، غير أن الأمر لم يتم له ، ولم تنهيا له أسبابه ، فلم يلبث أن عاود الطاعة والبقاء تحت السيادة المصرية ، وجاءه تجديد التقليد في سنة ٣٨٤ هـ في عهد العزيز بالله وظل في ولاية الحرمين الشريفين إلى أن توفي سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٩ م .

غريب الأطوار ، مضطرب الأحوال . وكان مع هذا على جانب عظيم من الخبث والمكر والدهاء ، لا يمكن ضبط أعماله ، ولا تفهّم أفعاله ، ولا الوقوف منها على منابع الخير ، أو عوامل الشر . يصنع الشيء وضده ، ويصدر الأمر وعكسه .

فإلى عهد الحاكم لم يكن بين الدولة العباسية ، والدولة الفاطمية شيء من العهود أو المواثيق ، والاتفاقات السياسية المدونة . وإنما كانت الحال بين الدولتين ، حال المتاركة والتربص . أما رعايا كل من الدولتين فلم تكن دونهم حواجز تمنع كلا منهما دخول أى بلد من بلاد إحدى الدولتين ، أنى شاء ، ومتى شاء . وعلى هذا فقد كانت مصر وبغداد ، وما يليهما من البلاد ، حافلة بالكثير من رجال الأمتين ، على اختلاف طبقاتهم ، وتنوع وسائلهم ومنازلهم . وقد كان الخليفة القادر بالله العباسي يضرر الشر للفاطميين منذ ولى الخلافة العباسية ولذلك اتخذ المحضر المعروف بالطعن في نسبهم وامتنع عنه الشريف الرضى وكان ذلك في عهد العزيز بالله وكذلك لما ترامت إليه أخبار الحاكم الفاطمي وشذوذه في أطواره ، مما استشعر منه الخطورة على دولته . فأخذ يفكر في انتهاز الفرصة على المقادير قد آذنت بالإدالة من الدولة الفاطمية التي لا يؤمن جوارها . فهداه التفكير إلى أن يفاجئ العالم الإسلامي بتجديد الطعن في نسبهم ، ونفيهم عن أواصر القرْبى بالبيت العلوي الكريم مستنداً إلى تصرفات هذا الحاكم الشاذة ، وانصراف الوجوه عنه .

٢ — في حقيقة النسب الفاطمي :

لما فكر الخليفة القادر بالله العباسي في إعلان الطعن في النسب الفاطمي بعد أن استقر رأيه عليه ، توجس خيفة من أن يكون هذا السهم غير مأمون العاقبة ، وأن تكون هذه الفكرة غير مضمونة النتيجة ، لاسيما أن

أحداً من أسلافه الذين شهدوا انبلاج فجر الدولة الفاطمية ، وظهورها في عهدهم - لم يخطر له خاطر الطعن في نسبهم ، أو تزيف دعوتهم . مع أن هذه الطبقة من الخلفاء العباسيين قد كانت من الفاطميين الأول ، في محن متوالية ، وخطوب متتالية . وفوق هذا فإنها سياسة خطيرة ، لأن للشيعنة شأنًا لا يستهان به في حاضرة ملكهم (بغداد) وفي غيرها من الولايات العباسية . وهم أعلم بأنسابهم ، وأحكم عناية بضبط الأصول وحفظ الفروع من أنسابهم . والعلويون معترفون بصحة النسب الفاطمي ، مقرونين بآصرة القربى النبوية لهم . وفيهم المجاهر بذلك ، كما فيهم المصانغ المخافت .

مرت هذه الخواطر في بال القادر ، وأخذ يوازن بين الإقدام عليها ، والنكوص عنها . ووقع في التردد والاضطراب ، بين المضي والإحجام . . . وفي هذه الفترة كان السيد الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى ، والد السيد المرتضى والشريف الرضى ، يتولى من شؤون الدولة العباسية ببغداد ، نقابة الطالبين بالعراق ، وإمرة الحج ، والنظر في المظالم ، وغير ذلك من الأعمال الهامة . وكان ولده المرتضى والرضى يتقلدان نيابته في هذه الوظائف كلها . فبينما الخليفة القادر العباسي في تفكيره في شأن العزيز الفاطمي صاحب مصر ، وفي تقديره فيما إذا جازف في إعلان إنكار نسب الفاطميين ، أو إذا أضرب عن هذا السلاح والنظر في محاربتهم بسلاح آخر ، إذا بأبيات من الشعر رفع إليه ، من قول الشريف الرضى ، يجر فيها بصحة النسب الفاطمي ، ويعترف فيها اعترافاً صريحاً لالبس فيه ولا إبهام ، بسلامة هذا النسب من كل مغمر . والظاهر أن الشريف الرضى صنع هذه الأبيات عندما أحس بما

ياتويه القادر من مهاجمة هذا النسب الذى لم يجرؤ على الشك فيه أحد من أسلافه . وكانت الآيات :

مَا مُقَامَى عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدَى مَقُولٌ صَارَ وَأَنْفٌ سَحِيٌّ
وَابَاءُ مُخْلَقٌ بِي عَنْ الضَّيْمِ كَمَا زَاغَ طَائِرٌ وَخَشِيٌّ
أَيُّ عُدْرَةٍ لَهُ إِلَى الْمَجْدِ إِنْ ذَلَّ غُلَامٌ فِي كَفِّهِ الْمَشْرِفِيُّ
أَحْمِلُ الضَّيْمِ فِي بِلَادِ الْأَعَادِي وَبِمَصْرِ الْخَلِيفَةِ الْعَالَوِيِّ
مَنْ أَبَوْهُ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَايَ إِذَا ضَامَنِي الْبَعِيدُ الْقَصِيُّ
لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سَيِّدَا النَّاسِ جَمِيعاً مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ
إِنَّ ذُلِّيَّ بِذَلِكَ الْحَى عِزٌّ وَأُوَامِيَّ بِذَلِكَ الرَّبِّعِ رِيٌّ
مِثْلَ مَنْ يَرْكَبُ الظَّلَامَ وَقَدْ أَسْرَى وَمِنْ خَلْفِهِ هِلَالٌ مُضِيٌّ

فلما اطلع القادر على هذه الآيات غضب لذلك وتمسكه الغيظ ، وثار به ثائر الحقد . فأمر بعقد مجلس للنظر فى هذا الأمر الجلل ، ودعا إليه النقيب أبى أحمد وولديه وجماعة من القضاة والفقهاء والأعلام ، وعرض عليهم آيات الشريف الرضى . وقال للحاجب :

قل للنقيب أبى أحمد ، قل لولدك محمد : أى هوانٍ قد أقام عليه عندنا ، وأى ضيم لقى من جهتنا ، وأى ذل أصابه فى مُلْكنا ... وما الذى يعمل معه صاحبُ مصر لومضى إليه ؟ أكان يصنع إليه أكثر من صليعنا ! ألم نُؤَلِّهِ النِّقَابَةَ ؟ ألم نُؤَلِّهِ الْمَظَالِمَ ؟ ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز ، وجعلناه أمير الحج ... ؟ فهل كان يحصل له من صاحب مصر أكثر من هذا ... ؟ ما نظنه كان يكون ، لو حصل عنده ، إلا واحداً من أفناء الطالبين بمصر ... ؟

فقال النقيب أبو أحمد : أقا هذا الشعر فما لم أسمع منه ، ولا رأيناه بخطه ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه ، وعزاه إليه ... ؟
فقال القادر : إن كان كذلك فليكتب الآن محضر يتضمن القدر في أنساب ولاية مصر ، ويكتب محمد خطه فيه ... ١

فكتب المحضر بذلك ، وشهد فيه جميع من حضر المجلس ، ومنهم النقيب أبو أحمد وولده المرتضى . ثم حملا المحضر إلى الشريف الرضى فامتنع عن التوقيع بخطه فيه ، وقال : لا أكتب ! واعتل ببعض الأسباب ...

ولما انتهى الأمر إلى القادر بامتناع الشريف الرضى وَجَمَّ على سوء أضمره ... وبعد أيام صرف أبا أحمد وولديه عما كان بأيديهم من الأعمال . وكان ذلك في سنة ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م في عهد العزيز بالله الفاطمي . وظلوا في حالة العزل إلى سنة ٣٩٤ هـ ١٠٠٣ م حيث سعى بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة بن بويه لدى الخليفة القادر حتى رد إليهم تلك الأعمال ، بالإصالة لأبي أحمد ، وبالنسبة لولديه مع إضافة قضاء القضاء إلى أبي أحمد وتلقيبه بالطاهر الأوحدي المناقب . غير أنه لم ينظر في القضاء لامتناع الخليفة عن الإذن له به .

أما الحاكم فإنه حينما رفع إليه ما كان من عزل النقيب أبي أحمد وولديه بسبب الآيات التي يشيد فيها بدسهم ، لم يتردد في إرسال الأموال الجزيلة إلى هؤلاء السادة الأشراف وغيرهم من الطالبين . كما غمر بعض ولاية الأعمال في الدولة العباسية بالكثير من هباته ومنحه وعطاياه . وكان ذلك كله تحت طي الخفاء . ولم يقف دهاؤه السياسي عند هذا الحد ، بل تبادل الهدايا والتحف والصلوات مع بهاء الدولة - وكان ملوك آل بويه جميعاً من غلاة الشيعة كما هو معروف -

ثم خابره في بذل مساعيه لدى القادر حتى يرد إلى النقيب وولديه وظائفهم ويعيد إليهم أعمالهم فكان ما أراد على أتم حال ، مع زيادة الإكرام والإجلال ولما كانت سنة ٣٩٦ هـ ١٠٠٦ م فوجيء القادر بخبر أقض مضجعه ، وأطار لبه ، وأفقده رشده . فقد ترمى إليه أن الشريف محمد ^(١) أمير الحج العراقي ، خطب للحاكم صاحب مصر ، بالحرمين الشريفين . وزاد على ذلك أن حمل الناس على القيام عند ذكر اسم الحاكم ... وأن الحاكم أعد كسوة للكعبة وغالى في صنعها من القباطى المصرية البيض ، وبعث بها محبة الحج المصرى في السنة التالية ، في ركب عظيم مع أموال جلييلة وزعت في أهل الحرمين الشريفين . وفي سنة ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ م ثار الشيعة في بغداد وساروا في مظاهرة صاخبة وهم يهتفون باسم الحاكم صاحب مصر ، ويقولون (يا حاكم يا منصور) وقد وقع تصادم بينهم وبين أهل السنة . وكانت فتنة كاد يُقتل فيها الشيخ أبو حامد الإسفراينى ^(٢) عندما تدخل بينهما . وقد أثار ذلك حفيظة القادر فأمر الفرسان من حرسه الخاص بإعادة الحال إلى السكينة ، فشتتوا شمل الشيعة ، وأعانوا أهل السنة .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى أن أحد ولاة الدولة

(١) هو أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوى ، كان نقيباً للطالبيين بالكوفة ، وكان يتولى إمارة الحج . وهو من أفاضل أهل البيت وأكبرهم . توفى سنة ٤٠٣ هـ

١٠١٢ م

(٢) هو الاستاذ أبو حامد احمد بن محمد الإسفراينى ، كان من أعيان العلماء ، وأعلام الفقهاء ، وكان شافعى المذهب . وكانت له مكانة جلييلة في بغداد ، ومنزلة ملحوظة لدى الخلفاء العباسيين ، على أنه كان شديداً في دينه ، قويا في اعتقاده وبقينه ، ولذلك كان موضع رضاهم تارة ، وسخطهم أخرى . توفى في بغداد سنة ٤٠٦ هـ ١٠١٥ م

- وهو قرواش بن المقلد صاحب الموصل وما والاها - أعلن الدعوة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، للحاكم . وكان ذلك في سنة ٤٠١ هـ ١٠١١ م كما صنع أبوه من قبل . وكل هذا وقع بتدبير الحاكم وأمواله . وأمر قرواش خطباء هذه البلاد بالدعاء للحاكم على منابرهما ، بعد أن وضع لهم صورة الخطبة وكلفهم إلقاءها على الناس في المجمع العامة . فاستجاب له أهل ولاياته ، مؤيدين له في وثباته ، وقد بذل القادر له أموالاً ضخمة لكي يعدل عن ذلك . وبعد مخبرات وخطوب ، ووعد ووعد ، وترضيات كثيرة ، راجع الطاعة .

أمام هذه المكايد التي كان ينصب الحاكم حبالها ، وحيال هذه الأخطار المحدقة بدولة الخلافة الإسلامية في بغداد ، من جراء مكر الحاكم ، ولما كافه المحضر الذي أمر القادر بتحريره في القدح في نسب الفاطميين ، لم يثمر ثمرته المرجوة ، بل جاء بغير المراد منه . لم ير القادر بداً من التفكير في عمل محضران ، لا ينفي فيه عن الفاطميين نسبهم الشريف ، حسب ، بل يلحقهم بنسب أحد المجوس ، أو أحد اليهود ، كما يتضمن الطعن في عقائدهم ، ويرميهم بالكبائر التي تُنفّر القلوب منهم ، كالكفر والفسق والزندقة والإلحاد . عساه يبلغ من التسيكيل بالحاكم ما يشفي الغلة ، وينقع الفؤاد .

ففي سنة ٤٠٢ هـ ١٠١١ م عقد القادر مجلساً كتب فيه محضر يؤكد فيه نفى الفاطميين عن النسب العلوي ، وينسبهم إلى أحد كفرة المجوس ، كما يرميهم بالمروق من الإسلام ، والخروج على الشريعة المحمدية . إلى غير ذلك مما حشاه به من الأباطيل . ثم ألزم أهل المجلس بإقرار ذلك والشهادة بصحة

ما أملاه عليهم . فوقعوا مرغمين ، على السماع . وفيهم بعض الأشراف ،
وبعض الفقهاء .

ومضى الحال على ذلك فترة لحق فيها هذا المحضر الزائف بأخيه السابق ،
ولم يحدث أثره المطلوب .

وفي سنة ٤٤٤ هـ ١٠٥٢ م إذ كان القائم بن القادر على الخلافة
العباسية ببغداد ، والمستنصر العبيدي على الخلافة الفاطمية بمصر ، أصدر
القائم ممشوراً بنى على محضر آخر وقعه فريق من الأشراف والعلماء ، بالظن
في نسب الفاطميين . وعملت منه نسخ أذيعت في الأقطار الإسلامية .

وقد أشار ابن خلدون في تاريخه الكبير ج ٣ ص ٤٤٢ إلى هذا المحضر
الثالث ، كما أشار إليه المقرئ في خطه ج ١ ص ٣٥٦ .

وقد خُذع بعض المؤرخين بهذه المحاضر ، وراعتهم أسماء من وقعوها ،
فراحوا يذيعون تلك المطاعن ويحفلون بها . وفاتهم أن السياسة لا قلب لها
ولا ضمير ، ومن شأنها إحالة الحقائق ، وترويج الأباطيل . ومن طبيعتها
التلاعب بقول الناس ، والإلحاح في الدعايات الضالة ، حتى يعلق الزائف بالخواطر ،
وينفي الصحيح ، وتضطرب النفوس بالشكوك . وخلف من بعد أولئك المؤرخين
خلف أخذوا ينقلون عنهم بلا بحث ولا نقد ، ولا نظر في العلل والأسباب ،
ولم يفكروا في أنه ليس من السهل على مستقيم العقل ، سليم الطبع من الآفات ،
نفي امرئ عن نسبه بمجرد السماع من خصمه ، أو عن له غرض سيئ في هذا
النفي . ولا يكون ذلك إلا بعلم لا ترقى إليه الظنون ، ولا تحالجه الشبهات ،
ولا تحيط به الريب . كذلك ليس من الهنات الهيئات سلب أحد من المسلمين

دينه ، أورميه بصفة من صفات الكفر ، أو الإلحاد ، أو الزندقة ، أو المروق ؛
 لمظهر خفي التعليل ، أو لمجرد اتهام عدو كاشع بغيض ، فضلا عن تجريد
 أسرة بأكملها - كالأسرة الفاطمية - عن الإسلام . فالغايات السياسية ، كما هو
 مشاهد ، تبرر الوسائط وإن بعدت عن طرق العدل ، وعدلت عن سبل الحق .
 وليس من شك في أن أولسكم الأعلام الذين ذيلوا تلك المحاضر بتوقيعاتهم ،
 قد لقنوا ما برر لهم وضع أسمائهم ، مع بسط الرغبة ، وسل سيف الرهبة .
 وفيهم من وقَّع تحت تأثير الخديعة التي هم كثيرا ما يكونون على استعداد
 لقبولها ، لما عليه هذه الطبقة من تغليب حسن الظن ، والغفلة عن أحاييل
 الشهوات والمطامع النفسية ، وقصر النظر عن إدراك نوايا السوء في ستر
 الحقائق وتزيين الأباطيل .

وما زال المولعون بإيراد الأقاصيص ، يتناقلون أمر الفاطميين ، مرددين
 المطاعن في نسبهم ، مع التبرع بالمغالاة في رميهم بما يأباه الدين ، وتمنع منه
 الشريعة . إلى أن قام سيد المؤرخين في القرن الثامن الهجري ، العلامة
 المحقق عبدالرحمن بن خلدون ، وحمل على هذه المسألة بما آتاه الله من علم
 واسع ، وعقل راجح ، ونظر ثاقب ، ومنطق سليم . فحَصَّ الحقائق ، وكشف
 الغطاء عن الأسباب والدوافع ، وقذف بالحق على الباطل قدمغه ، ولطم
 أولسكم النِّقَلَةَ الأغرار على وجوههم ، وبرأ الفاطميين المظلومين بما رُموا به ،
 وأثبت نسبهم الشريف بما لا يحتمل الشك أو يتناوله الظن . مع أنه كان قد مضى
 على انقراض دولتهم حوالى القرنين والنصف . . قال في مقدمته المشهورة :
 « ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأنياب

في العبيدين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفهم عن أهل البيت ، صلوات الله عليهم ، والطلعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق . يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس ، تزلها إليهم ، بالقدح فيمن ناصبهم ، وتفننا في الشتمات بعدوهم . ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات ، وأدلة الأحوال ، التي اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دعواهم والرد عليهم .

« فإنهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة ، على أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة (الرضى من آل محمد) واشتهر خبره ، ودلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم ، خشيا على نفسيهما فهربا من الشرق محل الخلافة ، واجتازا بمصر . وأنها خرجا من الإسكندرية في زى التجار . ونمى خبرهما إلى عيسى النوشري ^(١) عامل مصر والإسكندرية ، فسرح في طلبهما الخيالة حتى إذا أدركا ، خفي حالهما على تابعهما ، بما لبسوا به من الشارة والزى . فأفلتا إلى المغرب . وأن المعتضد أوعز إلى الأغلبة أمراء القيروان ، وبني مدرار أمراء سجلماسة ^(٢) بأخذ الآفاق عليهما ، وإذكاء العيون في طلبهما

(١) هو الأمير عيسى بن محمد النوشري . كان من أمراء الدولة العباسية وولاتها الأكفاء وقادتها الشجعان المظفرين . تقلب في مناصب الدولة بالولايات وقيادة الجيوش ، فكان حسن السياسة جيد الإدارة . ولده الخليفة المكتفي العباسي معونة مصر في سنة ٢٩٢ هـ ثم ولده أعمالها كلها من جنوبها إلى أقصى شمالها . كما ضم إليه النظر في ولاية الحجاز توفي سنة ٢٩٧ هـ ٩١٠ م

(٢) سجلماسة : كانت بلدة في إقليم من المغرب الأقصى إلى الجنوب الشرقي من جبال درن (الأطلس) أنشأها عيسى بن يزيد الأسود رأس الأباضية ، وجد الأمراء بني مدرار سنة ١٤٠ هـ والآن يطلق هذا الاسم على الإقليم كله ، وتسمى سجلماسة الآن =

فعر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار ، على خفي مكانهما ببلده ، واعتقلهما مرضاة للخليفة .

وهذا قبل أن يظهر الشيعة على الأغلبة بالقيروان . ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب وأفريقية . ثم باليمن . ثم بالإسكندرية . ثم بمصر والشام والحجاز . وقاسموا بني العباس في مالك الإسلام ، شق الأبلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ، ويزيلون من أمرهم .

ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها ، الأمير البساسيري ، من موالى الديلم المتغايين على خلفاء بني العباس ، في مغاضبة جرت بينه وبين أمراء العجم^(١) وخطب لهم على منابرهما حولاً كاملاً وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم ، وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم . وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال الأمر ٩١٠٠٠ . واعتبر حال القرمطي إذ كان دعيًا في انتسابه ، كيف تلاشت دعوته ، وتفرقت أتباعه ، وظهر سريعاً على خبثهم ومكرهم ، فسأت عاقبتهم ، وذاقوا وبال

= (تافلت) والظاهر أن اسم (سجلماسة) مأخوذ من لغة البربر . وأرض هذا الإقليم في غاية الخصوبة وبها نهر جار . عليه من البساتين والنخيل ما يعد بالآمال . وبين تافلت ومراكش والجزائر والسودان تجارة واسعة ، لاتكاد القوافل تنقطع منها ذاهبة آية في بواديها . وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له (درعة) من فرض نهرها الجاري . ويصدر عنها من أنواع الاعناب مالا يوجد مثله في شدة الخلاوة .

(١) وقعت هذه المغاضبة بين البساسيري وأبي القاسم (ابن المسلمة) وهو على ابن الحسن بن أحمد ، وكان في أول أمره من الشهود المعدلين . وكان يوصف بالثقة مع سداد المذهب وحسن الاعتقاد ووفور العقل وأصالة الرأي . اتخذته القائم بأمر الله العباسي كاتباً ثم استوزره ولقبه (رئيس الرؤساء ، شرف الوزراء ، جمال الوري) وقد آلت الحال بينه وبين البساسيري إلى أن قتل وصلب في ذي الحجة سنة ١٠٥٩ هـ ١٠٥٩ م

أمرهم ١... ولو كان أمر العبيدين كذلك لعُرف ولو بعد مُهلة ١...
ومهما تكن عند امرئ من خَلِيقَةٍ وإن خالها تُخفى على الناس تُعلم
» فقد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة ، وملِكوا مقام
إبراهيم عليه السلام ، ومصلاه ، وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ،
ومدفنه ، وموقف الحجيج ، ومهبط الملائكة . ثم انقضى أمرهم . وشيعتهم
في ذلك كله ، على أنهم ما كانوا من الطاعة لهم ، والحب فيهم ، واعتقادهم بنسب
الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقد خرجوا مراراً بعد ذهاب الدولة
ودروس أثرها ، داعين إلى بدعتهم ، هاتفين بأسماء صديان من أعقابهم ،
يزعمون استحقاقهم للخلافة ، ويذهبون إلى تعيينهم بالوصية عن سلف قبلهم
من الأئمة . ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الانتصار
لهم . فصاحب البدعة لا يلبس في أمره ، ولا يشبه في بدعته ، ولا يكذب
نفسه فيما ينتحله .

» والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني^(١) شيخ النظار من المتكلمين
يحنح إلى هذه المقالة المرجوحة ، ويرى هذا الرأي الضعيف ! فإن كان ذلك
لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتعمق في الرافضة ، فليس ذلك بدافع
في صدر دعوتهم . وليس مُنْتَسَبُهُمْ بالذى يُغنى عنهم من الله شيئاً في كفرهم .
فقد قال تعالى لنوح عليه السلام - في شأن ابنه - : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ
إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، الباقلاني . كان من
كبار علماء الأشاعرة ، ومن خاصة المتكلمين على هذا المذهب ، وله مواقف مشهورة
في الدفاع عنه والذب عن حياضه . حتى صار بفضلته ومثابرته ، عظيم الانتشار ، كثير
المستجيبين والأتباع . توفي سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م

- لفاطمة يعظها - يا فاطمة أعملي فلان أغنى عنك من الله شيئاً ، ومتى عَرَفَ
أمرؤ قضية ، أو استيقن أمراً ، وجب عليه أن يصدع به : « وَاللَّهُ يَقُولُ
الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ »

« والقوم كانوا في مجالٍ لظنون الدول بهم ، وتحت رِقْبَةٍ من الطغاة ،
لتوفر شيعتهم ، وانتشارهم في القاصية بدعوتهم ، وتكرر خروجهم مرة بعد
أخرى . فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ، ولم يكادوا يُعرفون . حتى لقد سُمي
محمد بن إسماعيل الإمام ، جد عُبَيد الله المهدي (بالـمـكتوم) سمته بذلك
شيعتهم لما اتفقوا عليه من إخفائه ، حذرا في المتعلمين عليهم . فتوسل
شيعة بنى العباس بذلك عند ظهورهم ، إلى الطعن في نسبهم . وازدلفوا بهذا
الرأى الفائل للمستضعفين من خلفائهم ، وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم
المتولون لحروبهم مع الأعداء ، يدفعون به عن أنفسهم وسلطانهم مَعَرَّةَ
العجز عن المقاومة والمدافعة ، لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز ، من
البربر السكتاميين شيعة العبيديين وأهل دعوتهم . حتى لقد أسجل القضاة
بيغداد بنفيهم عن هذا اللسب ، وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس
جماعة ، منهم : الشريف الرضى ^(١) وأخوه المرتضى ، وابن البطحاوى .
ومن العلماء : أبو حامد الأسفراينى ، والقُدورى ^(٢) والصيمرى ^(٣) ،

(١) لم يوقع الشريف الرضى إلا على المحضر الثانى بعامل الضغط وبثوة التهديد
فهو غير ملزم شرعا بما جاء فى هذا المحضر من افتراء .

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن محمد القدورى . انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق
وله فى هذا المذهب آثار قيمة . توفى بيغداد سنة ٤٢٨ هـ ١٠٣٧ م

(٣) هو أبو عبد الله الحسين بن على الصيمرى كان أحد رجال الحنفية بالعراق =

وابن الأكفاني^(١) والأيوردي^(٢) ، وأبو عبد الله النعمان فقيه الشيعة ، وغيرهم من أعلام الأئمة ببغداد في يوم مشهود . وذلك في سنة ثنتين وأربعمئة ، في أيام القادر . وكانت شهادتهم في ذلك على السماع . لما اشتهر وعُرف بين الناس ببغداد ، وعامتها شيعة بنى العباس الطاعنين في هذا اللبس . فنقله الأخباريون كما سمعوه ، وأوردوه حسبا وعوه . والحق من ورائه .

• وفي كتاب المعتضد - في شأن عبيد الله - إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة أصدق شاهد ، وأوضح دليل على صحة نسبهم . فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت في كل أحد .

• والدولة والسلطان سوق العالم ، تجلب إليه بضائع العلوم والصنائع ، وتلمس فيه صوال الحكم ، وتُحدَى إليه ركاب الروايات والأخبار ، وما نفع فيها نفق عند الكافة . فإن تزهت الدولة عن التعسف والميل والآفن

= وتولى قضاء ربيع الكرخ . ويعد من ثقات المحدثين . توفي ببغداد سنة ٤٣٦ هـ ١٠٤٥ م عن خمس وثمانين سنة .

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الأسدي . عرف بابن الأكفاني . كان من أكابر أهل العلم ومن أجواد الفضلاء . قيل إنه كان مبسوط اليد على الطلاب ، وأنه أنفق من ماله الخاص مائة ألف دينار على العلماء المعسرين والطلاب . أثابه الله . تقلب في مناصب القضاء إلى أن صار قاضي بغداد . قيل إن مولده كان سنة ٣١٦ وتوفي سنة ٤٥٥ هـ ١٠١٤ م ودفن في داره بنهر البزازين في بغداد .

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد الأيوردي أحد فقهاء الشافعية ، ومن أصحاب أبي حامد الأسفرايني . وفي القضاء بالجانب الشرقي من بغداد ومدينة المنصور . وكان يعقد حلقة للفتوى بجامع المنصور . وياق دروسا على الطلاب والعامة بقطيعة الربيع وكان حسن الاعتقاد ، جميل الطريقة ، ثابت القدم في العلم ، فصيح اللسان ، بليغ الشعر . وقد كان مع هذا رقيق الحال يظهر المروءة ويصوم الدهر ويفطر غالبا على الخبز والملح . توفي ببغداد سنة ٤٢٥ هـ ١٠٣٤ م ودفن في مقبرة باب حرب .

والسفسفة ، وسلكت النهج الأمم ، ولم تجر عن قصد السبيل ، نفق في سوقها
الإبريز الخالص ، واللجين المصفى . وإن ذهبت مع الأغراض والحقود
وماجت بسماسة البغى والباطل ، نفق البهرج والزائف . والناقد البصير
قسطاس نظره ، وميزان بحشه وملتمسه .

أقول : ولا شك في أن ابن خلدون قد أصاب شاكلة الحق فيما جاء به من
استدلال على صحة النسب الفاطمى . وفيما أورد من المعلومات ما يؤيد
ما ذهبنا إليه في ذلك . فله دَرَه من هذه الناحية .

غير أننا نأخذ عليه انسياقه في تيار الإشاعات الضالة التي كانت لا تزال
لها بقية في أفواه المرجفين ، وفي أقلام بعض كتاب زمنه المقلدين البعيدين
عن مناهج التحقيق . فذكر ألفاظ الكفر والإلحاد والزندقة ، مقترنة بالفاطميين
المظلومين . وهو يعلم أن رمى المسلمين بما يشعر بالمروق من الدين ، من
أخطر التهم التي تأبأها الشريعة ، ويحرمها الدين . وقد قال تعالى : « يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا
عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ، وهو كذلك عند أهل البصائر مما يتخرج منه ذوو المروءة
من الانقياء . وإذا صحت بعض الأخبار في نسبة بعض الشبه إلى أفراد من
متأخرة الفاطميين ، فلا يخرج ذلك عن ارتكاب بعض الآثام التي ليس
للردة فيها مدخل ، والله وحده هو المطلع على خفيات النفوس ، ومضمرات القلوب ،
وهو المحاسب على عظامها والغافر إن شاء لها ولصغائرها . وما كان لأحد أن
يفتات على مشيئة الله تعالى ، وقد قال في كتابه الكريم : « إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ، ولم يثبت بصورة قاطعة

أن الحاكم ^(١) - وهو مشار هذه التهم - أو أن غيره من خلفاء الفاطميين ، كان يدعو مع الله إلهاً آخر . وما تردد في أوراق المؤرخين مما نسب إليه لا يجوز التسليم به أو الاعتماد عليه دون نظر ، فقد عملت فيه الأغراض الجامعة عملها الشائن . وتناوله بعض الأخباريين على طريق التندر والتلمح والتفكه . ولو فرض وكان شيء من ذلك وقع من الحاكم ، فلا يصح أن يخرج من غمار المسلمين الذين قد يقع منهم بعض ما تنهى عنه الشريعة . وعلى هذا فليس من الإنصاف ، ولا من العدل ، ولا من الدين في شيء ، رميه بما يشعر برذته وخروجه من حظيرة الإسلام . وما عزی إليه من دعوى الألوهية لم يقم عليه دليل صحيح ، ولم تنقل عنه ألفاظ تشير إلى إضماره شيئاً من هذا . وكل ما في الأمر أن بعض البغاة ادعى عليه الحلول . وليس له هو في هذا الآداء أمرٌ ولا نهى .

ولم يكن الحاكم وحده الذي منى بقوم لا يخافون الله ، فادعوا عليه ما لم يأمر به الله . ونسبوا إليه الحلول ، بل رموه بدعوى الألوهية . فقد يما

(١) من طريف ما يروى أنه كان في دمشق رجل يصنع القطائف ، وكان يدين بالرفض ، ويغالى في سب السلف . فبلغ أمره إبراهيم بن سعد متولى حسبة دمشق من قبل الحاكم ، فاعتزم تأديبه ، وكان القطائف حينئذ يرى هذا المحتسب مقبلاً يقول له : بحق مولانا امض عني ... ثم غافله المحتسب يوماً وجاهه من خلفه وقال له : بحق مولانا لا بد أن تنزل . وأمر بإنزاله وتأديبه . فلما ضرب بالدرّة صاح قائلاً : هذه في قفا عثمان ! فقال المحتسب : أنت لا تعرف أسماء الصحابة ، والله لأصفعنك بعدد أهل بدر ... وصفعه ثلاثمائة وبضعة عشر . ثم تركه في شدة وبلغ الحاكم في مصر خبر هذه الواقعة فبعث إلى المحتسب كتاباً يشكره على ما صنع ، وقال : هذا جزاء من ينتقص السلف الصالح ... وكان إبراهيم بن سعد هذا المحتسب مالكي المذهب معتزلي النحلة توفي سنة ٤٠٤ هـ ١٠١٣ م

ادعى السبائية^(١) على الإمام عليّ كرم الله وجهه ، صفة الألوهية ، حتى حاربهم على هذه الدعوى المنكرة ، ونكل بهم أشد تنكيل . وكذلك ادعاها الروندية^(٢) على أبي جعفر المنصور فزقهم شرّ تمزق . فما قال أحد إن الإمام علي أو أبا جعفر المنصور يجب أن يؤخذوا بدعوى غيرهما ، وأن يوصما بما هما بريئان منه . ولا سمعنا أنهما بهذا الادعاء قد خرجا من حظيرة الإسلام . وشأن الحاكم في ذلك شأنهما . غير أن ما ادعى عليهما كان في حياتهما ، وما ادعى على الحاكم كان بعد انتقاله إلى الدار الآخرة . وبعيد عن الإنصاف أن مارى به الحاكم من هذه الدعوى الباطلة ، يجب أن تلقى تبعاتها على عاتق الأسرة الفاطمية ، فترمى في دينها بالعظائم ، وتُدفع عن نسبها الواضح ، بتلك المفتريات . هذا ما لا يقول به عاقل ، ولا يؤيده شرع ، ولا يسنده دين .

وعندى أن رميهم بالمروق من الدين ، أو وصمهم بما يناقض الإسلام ،

(١) هؤلاء السبائية كانوا فرقة غزر بها عبد الله بن سبأ اليهودي المعروف بابن السوداء ، وأوقعها في حباله وصاروا من الغلاة في التشيع . ويقال إنهم انقسموا إلى ١٨ فرقة .

تظاهر عبد الله هذا بالإسلام ليستطيع أن يكيّد للمسلمين ويفسد عليهم عقائدهم ، ويشيع فيهم من الآراء والفكر الخطرة ما يجعل بأسهم بينهم شديدا . فادعى لهم حلول الصفة الإلهية في عليّ وجاراه عليها بعض الأغفال وفاسدى العقول ، لحاربهم الإمام علي ونكل بهم وأحرقهم بالنار فانهز ابن السوداء هذه الفعلة وقال لمن انهزم منهم : إن الإحراق بالنار لا يكون إلا لإله . وإذا فعلى إله . إلى آخر هذه الأضاليل . وكان لهذا الشيطان أثر سيئ ودسائس ماكرة في فتنة عثمان وكانت سبباً في قتله ، وفيما جرّته بعد ذلك من الفتن والويلات على المسلمين : هلك سنة

(٢) الروندية : هم قوم خراسانيون كانوا من أتباع أبي مسلم الخراساني . وكانوا يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن أبا جعفر المنصور هو ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم . أبادهم المنصور بمعاونة معن بن زائدة يوم الهاشمية سنة ١٤١ هـ

أشد وقعا ، وأعظم تنكيلا ، وأكبر جرما ، من نفهم عن نسبهم العلوى .
فإن الأنساب ورفعتها وضعتها ، لا تمت بسبب إلى رضا الله وسخطه ، وليس
لها من الاعتبار عند الله ما لها عند الناس . وقد مضى حكم الله تعالى في قوله
الكريم : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » .

ولا شك في أن ماروى عن الحاكم من تصرفات عليها طابع الشذوذ
إنما جاء من قبل الدعاية السياسية التي تعتمد إليها الدولة المتغلبة في تشويه
سمعة الدولة المغلوبة على أمرها ، وتسويد صفائف تاريخها . فمن طبيعة الدولة
القائمة بذل كل جهد في محو كل أثر حسن يشير إلى مجد الدولة الهاوية ،
ما كان ذلك في الاستطاعة ، ومن أساليبها نسبة كل صفة تنفر القلوب من
رجال تلك الدولة . وعلى هذا جرى الأيوبيون حينما تغلبوا على الفاطميين
في مصر .

وما يضاف إلى الأدلة التي جئنا بها في صحة النسب الفاطمى ، والتي تمزق
المحاضر العباسية ، أن السيد الشريف محمد بن على بن طباطبا المتوفى سنة
٥٧٠٢ ١٣٠٢م يعترف لهم بسلامة النسب العلوى ، وقد مضى على انقراض
دولتهم نحو من قرن ونصف ، ويقرر ذلك في كتابه (الفخرى) فيقول :
« أول خلفائهم المهدي بالله . وهو أبو محمد عبيد الله ، بن أحمد بن
إسماعيل الثالث ، بن أحمد بن إسماعيل الثانى ، بن محمد بن إسماعيل الأعرج
ابن جعفر الصادق ، عليهم السلام » ثم يقول : « وقد روى نسبهم على صورة
أخرى ، وفيه اختلاف كثير . والصحيح أنهم علويون إسماعيليون ، صحيحو
الاتصال . وهذه التي أوردتها هنا هي المعمول عليها ، وبها خطوط مشايخ

النسابين ، ثم روى أبيات الشريف الرضى التى مر ذكرها .

وهذا شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ
١٣٤٨ م وكان من أكابر المؤرخين وأوسعهم علما ، فى عهد السلطان الناصر
محمد بن قلاوون ، وله وضع كتابه الكبير « مسالك الأبصار » له قصيدة فى
ترتيب أسماء الخلفاء ، سماها (حسن الوفا لمشاهير الخلفاء) بقر فى صحتها
النسب الفاطمى ، حيث يقول :

والخلفاء من بنى فاطمة	إلى عبيد الله در فاخر
أبناء إسماعيل نجل جعفر	الصادق القول أبوه الباقر
بالغرب مهدى تلاه قائم	والثالث المنصور وهو الآخر
ثم المعز قائد الجيش الذى	سار إلى مصر ، ونعم السائر
ثم ابنه العزيز عز مشبها	والحاكم المعروف ، ثم الظاهر
وبعده المستنصر الثانى الذى	تلاه مستمل ، وجاء الأمر
وحافظ ، وظافر ، وفائز ،	وعاضد ، ثم المليك الناصر ^(١)
قالوا : لقد ساء لهم معتقدا	والله عند علمه السرائر
لكنا الحاكم ممن لجَّ فى	طغيانه ، فكافر ، أو فاجر

فأنت ترى مما تقدم ، أن الشريف الرضى - وقد كان من خاصة رجال
الدولة الذين تسند إليهم عظام الأمور فيها - لم ير إلا إعلان الحق فى نسب
الفاطميين ، ولم يرعه مالا فاه والكثيرون من أهل بيته الكريم ، من التفتيل

(١) المراد بالناصر هنا : السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى على يديه
زالت الدولة الفاطمية .

والتشريد والتنكيل من خلفاء بنى العباس . ولا يخدعك ما قيل من توقيعه على المحضر الثانى الذى أمر به القادر ، هو وأبوه وأخوه وغيرهم من الطالبين ، فهم لم يوقعوه — إن صح ذلك — إلا تحت الضغط الشديد والإكراه بالتهديد والوعيد . والمكره - كما هو معلوم شرعاً - لا يؤخذ بما أكره عليه .

كما قرر نسبهم - بعد انقراض دولتهم - الشريف محمد بن على بن طباطبا ، وابن فضل الله العمرى ، الصحيح النسب إلى عمر بن الخطاب . وما كان لأمثال هؤلاء أن يقبلوا فى نسبهم الشريف دخيلاً ، ولا أن يعصوا الله فينفوا عنه أصيلاً . وأهل البيت أدرى بأولادهم ، وأعلم بأحفادهم ، وأضبط لفروع أنسابهم ، من سواهم . دع ما قام به قرواش بن المقلد وأبوه من قبل ، من الدعوة إلى الحاكم فى بلاده ، وهى من الولايات العباسية . وما قام به أبو الحارث البساسيرى ^(١) من الدعوة للمستنصر فى عقر دار الخلافة بغداد ، والخطبة للفاطميين على منابر العراق حولاً كاملاً .

فإن البساسيرى حينما تغلب على بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م ألزم الخليفة القائم العباسى أن يكتب على نفسه إشهاداً بالتنازل عن الخلافة ،

(١) هو الأمير المظفر أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيرى . كان على شحنة بغداد أيام القائم بن القادر العباسى . جرت بينه وبين الوزير ابن المسلمة منافرة بسبب حوادث الشيعة والسنية أدت إلى إعلان البساسيرى بالمذهب الفاطمى والدعاء لصاحب مصر المستنصر على منابر بغداد وولاياتها ونفى الخليفة العباسى عن بغداد بعد إلزامه بالتنازل عن دعوى الخلافة ، كما ألزمه بالاعتراف للفاطميين بها . وبعد عام من ذلك حضر طغرل بك السلجوقى إلى بغداد بجيوشه وقتل البساسيرى ورد القائم إلى بغداد . وكان ذلك فى سنة ٤٥١ هـ ١٠٦٠ م .

وأنه ليس له حق فيها ولا لأحد من بني العباس ، مع وجود بني فاطمة الزهراء . وأخذ توقيع العدول بذلك عليه . ثم أخرج القائم من بغداد . وبعث بالإشهاد إلى الخليفة المستنصر بمصر ، ليعلنه على رؤس الأشهاد . وفضلا عن ذلك فقد اعترف كثير من المؤرخين بصحة النسب الفاطمي ، ومنهم ابن الرقيق صاحب تاريخ القيروان ^(١) وغيره ممن لا ضرورة في ذكره بعد الذي أوردناه ، وبعد ما أتينا به من الحجج والأسانيد .

والخلاصة أن النسب الفاطمي علوى صحيح لا غبار عليه ، ولا يجوز لمسلم ، أو ذى مروءة الطعن فيه ، أو تلمس العلل للتشكيك في صدقه . وكل أمرئ أمين على نسبه .

(١) هو إبراهيم بن القاسم الكاتب الأفريقي . المعروف بابن الرقيق . كان من أفاضل المؤرخين وأكابر الكتاب والشعراء في إمارة نصير الدولة باديس بن زيري . وقدم مصر هدية منه إلى الحاكم سنة ٣٨٨ هـ ٩٩٨ م توفي سنة ٣٩٨ هـ تقديرا .

ابتداع الفاطميين

للمولد النبوى

لقد دلى البحث والتنقيب ، والتحرى والاستقصاء ، على أن الفاطميين هم أول من ابتدع فكرة الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، وجعلوه من الأعياد العامة فى كل أمة من الأمم الإسلامية ، كما ابتدعوا غيره من الاحتفالات الدورية التى عدت من مواسمها . وكذلك صرفوا الكثير من اهتمامهم إلى إحياء ما كان معروفا من المواسم والأعياد قبل الإسلام .

فإن هذه الدولة ، بعد أن استقر لها الأمر فى الديار المصرية ، وبعد أن أزال ما كان على مصر من سيادة للدولة العباسية ، تلك السيادة التى لم يكن لها من مظهر إلا خطبة الجمعة باسم الخليفة العباسى ، وضرب السكة باسمه أحيانا . وكان بدء هذا الاستقرار فى سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م فبعد أن أنشأ جوهر قائد جيوش المعز لدين الله ، القاهرة المعزية ، وشيد بها القصر الشرقى الكبير ، وأنزل القبائل التى كان يتألف منها جيشه فى أماكنها التى اختطها لكل قبيلة حول القصر ، حضر المعز فى جيوشه الجرار ، ومواكبه الغفيرة ، وأمواله الوفيرة ، وتوايبت آباءه الحاوية لرفاتهم . ونزل قصره فى سنة ٣٦٢ هـ ٩٧٣ م .

وبعد أن قبض بيده على مقاليد الحكم وأزمت السلطان فى مصر . بعد هذا كله . شرع فى تمهيد شؤون الدولة ، وتثبيت أركانها . ولما استقر له

من ذلك ما أراد ، أخذ يفكر في الوسائل الكفيلة باستمالة القلوب ، وامتلاك النفوس ، واستشارة العواطف ، حتى تألف الأمة المصرية تصرفات هذه الحكومة الجديدة وترضى عن سياستها في إدارة البلاد . ولما كانت الميول العاكة لطبقات الأمة المصرية متجهة إلى حب آل بيت الرسول ، مع الاعتدال في التشيع لهم ، وكان الفاطميون من فروع هذه الدوحة المباركة . رأى المعز لدين الله أن أقرب الأسباب للوصول إلى أغراضه من هذا الميل العام الالتجاء إلى الأمور التي تمت بصلة إلى المظهر الديني ، فهداه تفكيره إلى أن يقتر إقامته ، واسم حافلة ، وأعياد شاملة ، في مواعيد مقررة ، وأيام مقدرة . وكان من أولها وأجلها وأفضلها . الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف . فنهضت الدولة بأعباء هذا الاحتفال ، وافتنمت فيه ، وحشدت له واتجهت في أهدافها الصالحة إلى أن يعم الناس في أيام هذه الذكرى الكريمية ولياليها ، صنوف الخيرات ، وأن تشملهم ضوافي المبرات . لاسيما وقد كانت البلاد في تلك الحقبة ، واقعة في محنة مجاعة ، وفي أزمة قحط . فوزعت الأموال على الناس كافة ، وعظم الإحسان باختلاف طبقاتهم ، ومنع أهل الستر منهم سنى الصلات ، وأوثروا بالعطايا والهبات ، ووزعت فيهم الهدايا والنفحات . كما تبارى أعيان الدولة ، ووجوه الأمة ، في إقامة الزينات ، وصنائع الولائم والمآدب ، وإسداء الصدقات والعوارف ، وتلاوة القرآن الكريم في المساجد الجامعة ، والزوايا والرُّبُط وأماكن العبادة ، وذكر الله ، والصلاة والسلام على خيرة خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم . وكان من جمال المظهر ، وتمام الحشد لإحداث الأثر ، تسمير المواكب الفخمة ، في

نظام من السكواكب البهجة . فن كوكبة من الجند الفرسان بأعلامهم وطبولهم وأبواقهم ، إلى كوكبة من الجند الرجالة ببندودهم ورجلاتهم ، إلى حشود الأهل بنظام حسب طبقاتهم ، ومقتضى حرفهم وصناعاتهم . يتقدم ذلك كله قضاة الدولة ودعاتها ، وأهل الرأي فيها . إلى أن تبلغ الغاية المقصودة ، في جلال وجمال .

وعلى هذه السنة الحميدة التي سنّها المعز لدين الله ، جرى أولاده من بعده وأحفاده . وتنبهت الأمم الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، إلى هذا المظهر الديني الجميل ، والتفتت إلى هذه الفكرة الحكيمة ، والبدعة الحسنة فاقتمد ملوك الدول الإسلامية في بقاع الأرض بصنيع خلفاء مصر ، وسنوا القيام بالاحتفال بهذه الذكرى الكريمة ، وبذلوا في سبيل العناية بها كل مرتخص وغال ، وعملت كل أمة مافي طوقها لإظهارها بأجل المظاهر اللائقة باسم صاحبها عليه الصلاة والسلام .

وكان أكثر الأمم عناية بهذه الذكرى ، والاحتفال بها ، والاحتشاد لها - بعد مصر - الشام والجزيرة ، والموصل ، واليمن ، وأفريقية ، والمغرب ، والاندلس . وجروا في ذلك على الأوضاع التي ابتدعتها الدولة الفاطمية بمصر مع كثير من التصرف والافتنان في الكميات والكيفيات .

وفي سنة ٤٨٨ هـ ١٠٩٥ م كان على دست الخلافة الفاطمية ، المستعلي بالله وكان على وزارته ، الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي . وكان مستبدًا بأمور الدولة دون الخليفة ، قابضاً على أزمة الشؤون فيها . وكان مع هذا يتسنن ، ولا يدين بمذهب التشيع . فأمر بإبطال الاحتفال بالموالد الأربعة

وهي : المولد النبوى ، ومولد الإمام على ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ، ومولد الإمام الفاطمى الحاضر . فأبطلت الدولة هذه الموالد ، وأغفلت الاحتفال بها إلى حين .

غير أن الناس كانوا فى مصر وما جاورها من الأقطار ، يقيمون من بين هذه الموالد ، معالم الاحتفال بذكرى المولد النبوى ، جرياً على العادة التى ألفوها ، من تلقاء أنفسهم ، دون دافع أو حافز . وكانوا يحتشدون له احتشاداً شعبياً ذا روعة وجلال . وذلك لأن الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة كان قد أصبح عند عامة الناس من السنن الواجبة التى لا يصح إغفالها ، ومن التقاليد المحببة التى لا ينبغي إهمالها ، ومن العادات الطيبة التى لا يجوز التقصير فيها . وكان رجال الدولة يتغافلون عنهم ، ويغضون النظر عن تصرفاتهم ، ولا يحاولون إزعاج أحد يقوم بذلك ؛ لأنهم لم يقبلوا أمر الإبطال إلا مكرهين .

ولما آلت الخلافة الفاطمية إلى الأمر بأحكام الله فى سنة ١١٠٢هـ ١١٠٢م وكان محبباً إلى الناس ، قريباً من قلوبهم ، وقد توسم فيه رجال الدولة وأعيانها دلائل الخير وعلامات الصلاح ، وأحسوا منه الرغبة فى الاتجاه نحو ما فيه إرضاء الأمة وإسعادها وإبلاغها آمالها . لذلك فكر الاستاذون^(١)

(١) كان فى القصر الفاطمى طائفة من أكابر الرجال يقال لهم : الاستاذون المحنكون . وهذه الصفة جاءتهم إما من أنهم كانوا يلبسون العمام ويحجلون أحد طرفيها مازاً من تحت الذقن والفك . وهكذا كان لبس العمام عندهم . وإما أنها جاءتهم من الحسنة والدربة والفضة لما يراود منهم فى خدمة الخليفة وإنفاذ أوامره . وكانوا يتولون فى القصر أعمالاً جليلة . منها أن كبيرهم كان يتولى شد التاج على رأس الخليفة ، وكان له فى ذلك مهارة خاصة . وكان منهم صاحب الرسالة يحملها عن الخليفة إلى الوزير أو أحد كبار رجال الدولة . ومنهم متولى بيت المال . ومنهم حامل الدواة للخليفة =

وشيوخ دار الخلافة ووجوه الملة، وكبراء الدولة، من القضاء والقادة والدعاة، في القيام بأمر تجديد الرسوم التي جرى عليها نظام دار الخلافة، واستئناف الحفاوة بتلك الحفلات والموائد الملغاة، وإعادتها إلى سابق عهدها. فأخذوا يتحدثون إلى الخليفة الأمر في شأنها، وصاروا يرددون على مسامعه ما كان لها من شأن في مظاهر الخلافة وجلال الإمامة، وما كان ينجم عنها من فوائد جمّة، وسياسة حكيمة، وتدبير موفق. وكل ذلك يعود على الدولة بالسمعة الحسنة، والدعاية النافعة، وامتلاك قلوب الشعب، بمجاراة ميول الأمة. كما يعود ذلك على الناس بالخير الجزيل، والبر الشامل. وظلوا يحسنون له معارضة الوزير في إبطائها، ويحرضونه على إلغاء ذلك الأمر الجائر. ويبينون له ما في ذلك من إحياء لشعائر الدولة، لاسيما وإن رسوم الخلافة التي استنها أسلافه الصالحون، يجب أن تسير في طريقها الواضح، وأن تتجه نحو جهتها الصالحة. وما زالوا به حتى استجاب لهم، وأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه، وإقامتها على الرسوم التي درج عليها من تقدمه من أهل بيته. ودقت بذلك البشائر في أنحاء المملكة، واستقبلت الأمة هذا الأمر بمظاهر السرور والابتهاج.

على أن ذلك لم يوضع في نصاب التنفيذ إلا بعد اغتيال الوزير الأفاضل ابن أمير الجيوش، وإسناد منصب الوزارة إلى المأمون البطائحي.

ففي يوم ١٣ من ربيع الأول سنة ١١٢٣٥١٧ م صدر المرسوم الأمرى

= ومعها الأقاليم الخاصة. ومنهم متولى شؤون القصر. ومنهم متولى أمور الأقارب ومن تربطهم بالخليفة روابط النسب والصهر.

بإطلاق الجوارى الخاصة بالصدقات ، والتي جرى عليها الرسم فيما مضى .
فكانت : ستة آلاف درهم ، وأربعين صينية فُطرة ، وأربعمائة رطل حلاوة ،
وألف رطل خبز . وذلك غير السكر ، واللوز ، والعسل ، والشيرج . وأن
يفرق من ذلك على المتولين ، وسدنة المشاهد ، وغيرهم من الفقراء . وكان
يتولى توزيع هذا كله : سناء الملك ابن ميسر ^(١)

وذكر تقي الدين المقرئ عن ابن الطوير ^(٢) أن الرسم كان في الموالد
الستة التي هي : مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد أمير المؤمنين علي
ابن أبي طالب كرم الله وجهه ، ومولد السيدة فاطمة ، ومولد ولديها الحسن
والحسين عليهم السلام ، ومولد الخليفة الحاضر . وكان من عادة الخليفة أثناء
هذه الموالد والاحتفال بها ، يجلس في المنطرة القريبة من الأرض ، لإطلاق
الأموال ، وملاحظة توزيعها في مستحقها . وكانت هذه المنطرة قبالة دار
نصر الدين جهار كس ^(٣) والفندق المستجد .

(١) هو القاضي سناء الملك عبد الله بن محمد بن ميسر . كان من أعيان الدولة
وذوى الرأي فيها . تولى القضاء بمصر سنة ٥٢٦ ثم سنة ٥٢٨ ثم غضب عليه الخليفة
الحافظ عبد المجيد فنفاه ، ثم قتل سنة ٥٣١ ١٢٧٥ م .
(٢) هو أبو محمد عبد السلام المرتضى بن محمد الطوير الفهرى القيسراني الكاتب
المصري . كان من أكابر الكتاب وأفاضل المؤرخين ، له كتاب « نزهة المقلتين في أخبار
الدولتين الفاطمية والصلاحية » ،

(٣) كان الأمير نصر الدين جهار كس من ولاية الدولة الأيوبية وقادتها وزجالها
المعدودين . وكان رأس الصلاحية . ولأه العزيز عثمان بن صلاح الدين استاداراً
(ناظر الخاصة) ثم تقلب في الولايات الجليلة فأحسن القيام بشؤونها . وفي سنة ٥٩٢ هـ
أنشأ داره العظيمة وقيساريته الشهيرة بخط بين القصرين بالقاهرة . توفي سنة

قال : فإذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الاول ، تقدم [الخليفة] بأن يعمل فى دار الفطرة : عشرون قنطارا من السكر اليابس ، حلواء يابسة ، من طرائفها ، وتعجى فى ثلثمائة صينية من النحاس ، وتفرق تلك الصوانى فى أرباب الرسوم من ذوى المراتب . وكل صينية فى قوارة ^(١) ويبدأ ذلك من أول النهار إلى ظهره . فأول أرباب الرسوم : قاضى القضاة ، ثم داعى الدعاة - ويدخل فى ذلك القراء بالحضرة ، والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ، وقومة المشاهد - فإذا صلى [الخليفة] الظهر ركب قاضى القضاة والشهود بأجمعهم إلى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة الصوانى . فيجلسون مقدار قراءة الختمة السكرية . ثم يستدعى قاضى القضاة ومن معه - إن كانت الدعوة إليه - وإلا حضر الداعى ومعهم نقباء الرسائل . فيركبون ويسيرون إلى أن يصلوا إلى آخر المضيق من السيوفيين ^(٢) قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين . فيقفون هناك - وقد سُلكت الطريق على السالكين من الركن المخلّق ، ومن سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك ، وكنت فيما بين ذلك ورشت بالماء رشا خفيفا . وفرش تحت المنطرة [التي يجلس فيها الخليفة] بالرمال الأصفر - ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة -

(١) القوارة : صحفة خزفية متسعة قرية القاع . وهى معروفة عند عامة المصريين إلى الآن .

(٢) كانت المدرسة السيوفية التى نسب إليها هذا المكان ، أول ما أنشئت ، قصرا فخما بناه الوزير المأمون البطائحي ، ثم استولى عليه الوزير عباس ، فعرف بقصر عباس . ثم جعلته الدولة الأيوبية مدرسة للأحناف ، ثم عرفت بعد ذلك بالمدرسة السيوفية . وتعرف الآن بمسجد الشيخ مطهر . وهى على رأس الشارع الذى كان يسمى بإشارع الجواهرجية المؤدى إلى خط بين القصرين إلى باب الفتوح .

وإلى القاهرة [فى أثناء ذلك] ماض وعائد لحفظ [النظام] ذلك اليوم ، ومنع الزحام - على نظر الخليفة - فىكون بروز صاحب الباب من الركن المخلّق^(١) هو وقت استدعاء القاضى ومن معه من مكان وقوفهم . فيقربون من المنطرة ، ويتدخلون قبل الوصول إليها بخطوات . فيجتمعون تحت المنطرة ، دون الساعة الزمانية ، بسمت وتشوف ، لانتظار الخليفة . فتفتح إحدى الطاقات [من المنطرة] فيظهر منها وجهه وما عليه من المنديل ، وعلى رأسه عدة من الأستاذين المخنكين وغيرهم من الخواص منهم ، ويفتح بعض الأستاذين طاقة ويخرج منها رأسه ، ويده اليمنى فى كفه ويشير به قائلا : أمير المؤمنين يرد عليكم السلام . فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته ، وبصاحب الباب بعده كذلك ، والجماعة الباقية جملة جملة ، من غير تعيين أحد . ثم يستفتح قراء الحضرة بالقراءة ، ويكونون قياما فى الصدر ووجوههم إلى الحاضرين وظهورهم إلى حائط المنطرة . فيقوم خطيب الجامع الأنور ، المعروف بجامع الحاكم ، فيخطب كما يخطب فوق المنبر إلى أن يصل إلى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فيقول : وإن هذا يوم مولده إلى ما من الله به على ملة الإسلام من رسالته . ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة . ثم يؤخّر . ويقدم خطيب الجامع الأزهر ، فيخطب كذلك ، ثم خطيب الجامع الأحمر ، فيخطب كذلك .

(١) كان موضع الركن المخلّق تجاه حوض جامع الأحمر . وقيل له الركن المخلّق لما زعموا من أنه فى سنة ٦٦٠ هـ كشف فى موضعه حجر مكتوب عليه (هذا مسجد موسى عليه السلام) نخلق بالزعفران ، فسمى من ذلك التاريخ الركن المخلّق . ومكانه الآن يقع بالزاوية البحرية الغربية للمنزل رقم ١١ بشارع التبككشية تجاه دورة مياه الجامع الأحمر ، وبأسفل هذا المنزل مسجد قديم هو الذى كان يعرف بمسجد موسى .

والقراء في خلال خطابة الخطباء يقرؤون . فإذا انتهت خطابة الخطباء [وقراءة القراء] أخرج الأستاذ رأسه ويده في كمه من طاقته ، ورد على الجماعة السلام . ثم تغلق الطاقتان ، فينفض الناس .

وعلى هذه الرسوم وهاتيك القواعد ، مضى الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف طوال عهد قيام الدولة الفاطمية ، إلى أن دالت بقيام الدولة الأيوبية .

٤ — في التنويه ببعض مآثر الدولة الفاطمية :

أما حظ مصر وممالكها من مآثر دولة الفاطميين فقد كان حظا عظيما ، وكان نصيبها من عنايتهم وافرا ؛ إذا قيس ذلك بما كان لغيرهم من تقدمهم أو تأخر عنهم . وكان من أوائل فضلهم على مصر أن استردت استقلالها الذي كانت حصلت عليه بفضل أحمد بن طولون ، ثم فقدته فترة قصيرة حينما احتلت الجيوش العباسية مصر في أواخر عهد الطولونيين بقيادة محمد بن سليمان الكاتب . فاستقلت بواسطة الفاطميين استقلالاً غير مشوب بشائبة ظاهرة أو خفية . وكان انفصالها عن تبعية الدولة العباسية انفصالا لارجعة بعده . وليس هذا حسب ؟ بل وسعوا من سلطانها ، وأضافوا إليها غيرها من الممالك في أفريقية والمغرب ، كما افتتحوا باسمها كثيرا من الممالك التي كانت تابعة لبغداد في آسيا وغيرها . ولم يتركوا للعباسيين من النفوذ إلا مالا يكاد يبعد عن بغداد بكثير ، من البلاد المجاورة .

وبفضلهم ، وشدة يقظتهم ، واستحكام أمرهم ، تدفقت الأموال على الديار المصرية من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ، وعم الرخاء سكان الوادي ورعايا الخلافة المصرية جميعا . ونعم الناس بموفور خيراتها ،

وقويت شوكة الخلافة فيها حتى هادتها الدول ، وسالمتها الممالك . وعظمت
سطوة جيوشها ، فوقفت في وجوه المغيرين من القرامطة وغيرهم من أهل
التنزي ، وردت جحافلها مطامع الروم ، كما صدت حملات الصليبيين الأولى .
وقد بلغ من شدة بأسهم ، وقوة بطشهم ، أن أمبراطور القسطنطينية
أرسل مراكبه إلى ساحل القدس تحمل رساله إلى العزيز بالله بن المعز ،
ومعهم تقادم عظيمة ، وهدايا جلييلة ، وقد جاؤا إلى مصر لعقد مهادنة بين
الدولة الفاطمية ، ودولة الروم بالقسطنطينية . فعقدت الهدنة وكان من
شروطها إلزام الإمبراطور بإطلاق جميع من في مملكته من أسرى المسلمين ،
وأن يخطب في جامع القسطنطينية باسم خليفة مصر ، في كل جمعة . وأن
يحمل إليه من نفائس أرض الروم وأمتعتها ومصنوعاتها الجيدة ، ما يفترض
عليه . فكان للعزيز ما أراد . وجعلت مدة الهدنة سبع سنين .

والحق الذي لامرأ فيه أن الدولة الفاطمية كانت من خيرة الدول التي
قامت بالديار المصرية . وما يجب إثباته لها من فضل أن الحاكم - على ما نسب
إليه - كان أول من أنشأ بمصر دارا للكتب . وكان يطلق عليها اسم : (دار
الحكمة) ، أو (دار العلم) . وحشدتها بالآلاف المؤلفات من الكتب والأسفار في
مختلف العلوم والفنون والآداب . وأنت إذا أنعمت النظر في سيرة هذه
الدولة ، وكنت بريئاً من الهوى ، لا يسعك إلا أن تعترف بأن حسناتها تربي على
ما قد ارتكب بعض رجالها من سيئات ... ومن ذا الذي ما ساء قط ... ؟
وحسبك هذا ...

وأما ما كان من شأنهم في التشيع ، مهما غولى في وصفه ، فلن يزحزحهم

عن الإسلام قيد أئمة ولا يغبر في وجه سلامة اعتقادهم بوحداية الله تعالى ،
وبرسالة نبيه الكريم ، وقيامهم بما فرضه عليهم الدين . وذلك فضلا عن
أن أكثرهم كان على جانب عظيم من المعرفة بسياسة الملك ، والبراعة في
أساليب الحكم ، والقدرة على حفظ ناموس الدولة وحماية الملة ، والبعد عن
إرهاق الأمة بما لا طاقة لها به ، أو استغلال الشعب بما يعجز عنه .

وبعد : فللدول ، كما للأفراد ، أعمار محدودة ، وأزمة معدودة . فتي
تقدم بها الزمن ، ودب في كيائها ديب الشيخوخة ، وتوكت على رميح
الهرم ، وآذنت بالزوال : تهيأت لها أسباب التلاشي والاضمحلال ، وانتابتها
عوامل التفكك والانحلال . « وَاللَّهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ
خَيْرُ الْوَارِثِينَ » .

وقد أجمل الفقيه عمارة النيني ^(١) الشاعر المشهور مآثر هذه الدولة في
قصيدته البارعة التي رثاها بها بعد زوالها على يد صلاح الدين الأيوبي ، وكانت
سببا في قتله . وأولها :

(١) هو أبو محمد نجم الدين عمارة بن علي الحكيم المذحجي النيني . ولد بتهامة وبها
تعلم ثم رحل إلى زبيد ، ثم قدم مصر برسالة من أمير مكة إلى الفائز الفاطمي فتلقاه
الوزير طلائع بن رزيق وأكرمه ، وبالف الفاطميون ورجال الدولة في الحفاوة به ،
فانطلق لسانه بالدعاء لهم والثناء عليهم ، ومدحهم بقصائد أجاد فيها وأحسن . وأقام
بمصر في كنفهم إلى أن دالت دولتهم . فرثاهم وافتن في الثناء عليهم وذكرهم بكل
خير . ثم حمله الولاء لهم على التآمر مع جماعة من أشياعهم ، على الثورة ضد الأيوبيين ،
فقبض عليه وصلب فيمن صلب من جماعته . وكان من أفاضل الكتاب وأماثل
الشعراء ، وثقات المؤرخين . وله في ذلك كتب قيمة . توفي سنة ٥٦٩ هـ ١١٧٤ م .

رَمِيتَ يَادَهُرُ كَفَّ الْجَدَّ بِالشَّلَالِ وَجِيْدَهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلِّ بِالْعَطَلِ
سَمِعْتَ فِي مَنَهِجِ الرَّأْيِ الْعُشُورَ فَإِنْ قَدَرْتَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّهْرِ فَاسْتَقِلْ
جَدَعْتَ مَا رَنَكَ الْآقَى فَأَنْفِكَ لَا يَنْفِكَ مَا بَيْنَ قَرَعِ السِّنِّ وَالْخَجَلِ
هَدَمْتَ قَاعِدَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلِ سُقِيتَ مُهْلًا ، أَمَا تَمْشِي عَلَى مَهَلِ
لَهْفِي وَلَهْفَ بَنِي الْأَمَالِ قَاطِبَةً عَلَى فُجِيعَتِنَا فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ
إِلَى آخِرِهِ ، وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَمَشْهُورَةٌ . إِكْتَفَيْنَا بِهَذَا الْقَدْرِ مِنْهَا .

عصر الدولة الأيوبية

١ - في مجمل أحوال هذه الدولة :

إذا صرف الإنسان نظر التفكير فيما صنعه السلطان صلاح الدين الأيوبي في الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، وفيمن بقى من أعقابهم وسلائلهم ، أو من يمت إليهم بسبب - من الإبادة والتنكيل ، والاعتقال والتشريد ، للاستيلاء على ملك مصر وانتزاعه من أيديهم ، والاستئثار به دونهم - واتجه الإنسان بتفكيره إلى ما كان لهذه الدولة الأيوبية من آثار في الإسلام تذكر فتشكر ، ومن مواقف ماجدة في الذب عن حياض الدولة المصرية ، والزيادة عن كيان الأمة الإسلامية ، رأى لها من الفضل في ذلك ما قد يلبي معه ما تقدمه من نقص فيما أشرت إليه . وإن الحسنات يذهبن السيئات ، وقد كتب المستشرق (بكر) خلاصة موجزة فيما كان عليه الأيوبيون من خلال صالحه ، وصفات حسنة ، كما أشار إلى ما أدوه للشرق الإسلامي ، بل وللغرب المسيحي من مآثر لا تزال لامعة في جبين الدهر . قال :

كان الأيوبيون - في جملتهم - ظاهرة هامة في ممالك الإسلام . فقد جمعوا ما كان مبعثرا من مملكة الفاطميين ، وأضافوا إليها دويلات الأتابكة بالشام . ثم كونوا من ذلك كله قوة واحدة مركزة تمكنوا بها من الوقوف في وجه الصليبيين . وقد أنجبت تلك الأسرة عددا يذكر من الشخصيات القوية ، والأبطال الأفاضل ... فصلاح الدين أشهر من أن يُعرف ،



السلطان صلاح الدين الأيوبي

وأجل من أن يشار إليه . وكان العادل والكامل من أعظم الملوك وأكبرهم .
وليس من العدل أن يقال : إن الأيوبيين كانوا دون الصليبيين في الفضائل
والمزايا الحربية . بل من الإنصاف أن يقال : إنهم كانوا يتفوقون عليهم
في هذه الصفات : حتى لقد استحق كثير منهم لقب (شيفاليه) فارس .

وقد أتى لنا الدهر كثيرا من المؤلفات القيمة ، وصلت إلينا حافلة بالمعلومات
المفيدة عن مناصب ذلك العهد ، وعن النشاط العظيم الذى بدا منهم عند
ما نهضوا بأعباء الإدارة في أنحاء المملكة . فقد علمنا منها أنهم كانوا مَعْنِيُونَ
بشؤون الزراعة ، ووسائل الري : كما كان لهم اهتمام كبير بالتجارة والتجديد
لرواجها بتأمين السبل . وفى عهدهم عُقد كثير من المعاهدات بينهم وبين بعض
الدول الأوربية . ولا تزال وثائق بعضها موجودة فى خزائن بعض الممالك
إلى الآن .

أما القوة الحربية فى المملكة المصرية ، فقد كانت تقوم على جيوش مؤلفة
من المماليك المسترقين . وكان النظام الإقطاعى يعتمد على إقطاع الأرض
معخراجها . وذلك على خلاف ما كان عليه فى أوروبا . ولما كان أكثر
العبء الحربى ملقى على عواتق أولئك المماليك ، فقد أخذ نفوذهم فى الازدياد ،
وسطوتهم فى الاتساع ، حتى لقد بلغ بهم الأمر إلى أن تنازلوا بعض الأمراء
من مواليهم .

ومما تميز به العهد الأيوبي أنه كان عهد لون جديد من ألوان الثقافة .
فقد أخذوا فى مصر يمثلون دور رد الفعل الذى بدأه السلاجقة . وعلى أيديهم
انبعثت آثار الشرق العابرة ، التى تبدت فى إحداث فن جديد فى العمارة .

وفي أوضاع جديدة في عادات القصور ، وفي تغيير الألقاب ، كما دخل على نظام الإقطاع تطور جديد في وضعه التركي .

على أن هذا التطور في الثقافة لم يلبث أن صار ذا أهمية كبرى ، إذ تأثر به إلى حد بعيد المدى ، غربي أوربا . وذلك بما حمله إليه العائدون من الحروب الصليبية . وفي الاستطاعة الوقوف على كثير من العادات والقواعد والتقاليد في أوربا ، المستعارة من هذه الثقافة الشرقية . وكذلك النظم الخاصة بتعاليم المروسية ، فإنها تمتُّ بأمتن الوشائج إلى أصول نظم الفتوة في الدولة الأيوبية وقد جرى الممالك على التقاليد الأيوبية ، فلم يغيروا في أول الأمر شيئاً مما ورثوه من ثقافة أسلافهم في ملك مصر حتى إنهم حافظوا على ألقابهم فأضفوها على أنفسهم متحلين بها .

هذا تعريب ما كتبه ذلك الباحث المستشرق (بكر) وهو على الجملة لا بأس به ، أما على التفصيل ففيه مواضع جديدة بالنقد والنظر .

٢ - في صنيع الأيوبيين بالرسوم الفاطمية

كان بدء استيلاء الأيوبيين على الديار المصرية ، وإنشائهم الدولة الأيوبية فيها ، في عهد الخليفة الفاطمي العاضد ، الذي كان لسوء حظه ، وفأل لقبه ، آخر الخلفاء من بني فاطمة . فإنه لما تمكن صلاح الدين يوسف بن أيوب من القبض على زمام الأمر والنهي عند ماعينه العاضد ووزيراله ، أظهر الاستبداد بالأمر ، وعمل على محو اسم الخليفة الفاطمي من خطبة الجمعة ، وإثبات اسم الخليفة العباسي مكانه . وكان إذ ذاك الملقب بالمستضي بأمر الله .

وذلك في سنة ٥٦٧ هـ ١١٧١ م .

وذكر بعض المؤرخين أن السلطان صلاح الدين لما تم له الاستبداد بأمر الديار المصرية ، وخلع الخليفة العاضد الفاطمي ، وقبض على أعقاب الأسرة الفاطمية ، وحبس منهم من حبس ، واعتقل منهم من اعتقل ، وقتل منهم من قتل ، وشرد منهم من شرد ، وفرق بين رجالهم ونسائهم - ألغى رسوم الدولة الفاطمية ، ومن بين هاتيك الرسوم ، أعيادها ومواسمها وأيام احتفالاتها .

وقد بحثت فيما كتبه الكتاب ، وتتبعته مادونه أصحاب الأخبار عن أحداث هذه الدولة ، ومارواه رواها وقصاصها من شؤونها ، فلم أعر على خبر يشير إلى أنه قد كان لهذه الدولة شيء من العناية بأمر إحياء ذكرى المولد النبوي الشريف ، أو ينوه بأن أحداً من ملوكها نهض به ، أو فكر فيه . وهذا من غرائب تصرفات الدول ، وتقلبات أوضاعها . إذ مما يمكن فهمه والتسليم به أن الدولة الأيوبية قد يكون من حقها الذي تجيزه السياسة القائمة على الانقلاب وتغيير الخطط الإدارية ، أن تبطل الرسوم والتقاليد والعادات التي اقتضاها المذهب الشيعي ، إذا كان فيها غلو أو خروج على الشريعة . لأن الأيوبيين كانوا يذهبون إلى التسنن . ولكن ما لا يمكن فهمه ، ويبعد تصوره أن يدخل في مضمون ذلك إلغاء الاحتفال بذكرى المولد النبوي ، وذلك لأن إحياء هذه الذكرى والعناية بالاحتفال بها ، وتعظيم شأنها ، وإنفاق الأموال في الأعمال الخيرية أثناء أيامها ولياليها ، وتوزيع المبرات على أهل الفاقة من الشعب في خلالها ، ليس خاصاً بأهل مذهب ، أو أصحاب نخلة ،

أو ذوى رأى ، دون غيرهم من أهل المذاهب والآراء والنحل الأخرى . بل هو عام شامل لجميع المسلمين على السواء . يشترك فى الاضطلاع بواجباته ، والنهوض بنوافله ، السنن منهم والشمع ، وغيرهما من أهل الإسلام . ولعل عدم تنويه المؤرخين بشئ من هذا الشأن ، إنما مرده إلى أن أكثر الملوك من بنى أيوب كانوا فى شغل شاغل عن العناية بأمر المولد ، لانصرافهم إلى ما هو أهم منه وأجدى على الإسلام والمسلمين ، وهو الاستعداد المستمر لرد غارات الصليبيين ، ودفع عاديتهن عن اكتساح البلاد الإسلامية ^(١) واتخاذ الآهبة التامة لخوض المعارك معهم ، وإشغال نيران المعامع لكبح جماحهم ، وعدم تمكينهم من استعباد المسلمين وتخريب ديارهم . ولا شك فى أن هاتيك الحروب المستعرة ، وما كانت تقتضيه فى إعداد القوى المختلفة ونجمها ، كانت تستدعى جهوداً شاقة ، وتكاليف باهظة ، وعناية فائقة ، وهمة عالية . ولهذا فقد صرفتهم كل تلك الاعتبارات عن إعطاء هذه الذكرى

(١) جاء فى دائرة المعارف الإسلامية (المصرية) . ج ٢ : ١٧٤ أنه فى سنة ١٢٠٤ م عندما دخل اللاتين الذين جاؤا لإثارة الحرب الصليبية ضد المسلمين وتخليص بيت المقدس من أيديهم - على زعمهم - إلى القسطنطينية ، هجموا على كنيسة أياصوفيا وأعملوا فيها السلب والنهب ، ودنسوا الملابس والأواني المقدسة ، واتخذوا منها أحجلة وأحواضا لسقيا الخيل ...

قلت : هذا ما كان يصنعه الصليبيون فى بلاد أبناء دينهم ، وفى أماكنهم المقدسة ، وشعائرهم المحترمة فما الظن بما كانوا يفعلون فى بلاد الإسلام ، وفى مقدساتهم من مساجد وأضرحة ومزارات ، لولم تقف فى وجوههم جيوش مصر بقيادة الأيوبيين وبهمة المماليك البحرية ؟ ... لا شك أن الإبادة والخراب والدمار ومحو آثار الإسلام من الشرق عامة ، ومن مصر خاصة ، كان ذلك كله أقل ما يحدث عنهم . ولكن الله تعالى قد أعان على رد كيدهم فى نحورهم . والله لا يهدى كيد الخائنين .

الكريمة حقها من الرعاية والحفاوة والبذل ، وإجراء الرسوم على وجهها . كما أحسب أن هذه الحروب وتطوراتها ، وما كان يلشأ فيها من مفاجآت ؛ قد شغلت تفكير الكتاب الذين تجردوا لتدوين مآثر الدولة الأيوبية ، ووجهت مؤرخيها إلى بذل كل عنايتهم ، أو جلها ، في وصف هاتيك الوقائع ، وذكر أسباب ونتائج ما نشب فيها من معامع ، وتحريم ملابساتها ، ومواقف أبطالها ، وتفاقي كلماتها ، ومغامرات فتيانها . ولم يحفلوا بما عدا ذلك من الشؤون التي تعد دونها في المرتبة ، والتي ليس لها من الخطر ما كان لها . وآثروا العناية بالآم وقدموه على المهم ، وبالفرض وآثروه على النفل . ولا شبهة في أن الدفاع عن الإسلام والزيادة عن دياره ، في مقدمة الفروض المفضلة على غيرها من الشؤون الأخرى . ولا يفكر في أمثال هذه الاحتفالات ، وإحياء أشباه هذه الذكريات إلا الدول الآمنة ، والأمم الوادعة ، والشعوب المطمئنة ، والممالك الحافظة لكيانها ، والرافلة في حائل أمانها .

على أن فكرة الاحتفال بذكرى المولد النبوي للشريف ، كانت قد صارت من الأمور التي ألفتها الأمة ودخلت في تقاليدها الهامة ، وجرت منها مجرى العقائد الواجبة الرعاية والآداء ، وأصبحت عندها من الشعائر التي يعز عليها إغفالها أو ترك القيام بها في أرقاتها التي أضحت مقدسة . ولذلك فقد كان الشعب يصرف عنايته إلى الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة في إبانها ، وينهض به من تلقاء نفسه ، غير منتظر وإزعا بزعه ، أو دافعا يدفعه ، من جهة رسمية أو غير رسمية .

٣ - في مقبرة الملك المظفر بالمولد النبوي

وعندى أن الدولة الأيوبية لم تشدد في إلغاء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف - إن كان قد دخل في ضمن ما ألغى من المواسم والأعياد العاطمية ، أو كان هذا الإلغاء مطلقا غير مقيد .

والدليل على ذلك أن الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ^(١) كان يحتفل بإحياء ذكرى المولد النبوي احتفالا ، كان مضرب الأمثال في العظمة والجلال ، وكان يبدي فيه من العناية والبذل ما هو فوق الآمال ، مع جهود تشكر ، وخيرات تذكر ، وأموال لا تكاد تحصر .

وقد كان هذا الملك من عظماء الدولة الأيوبية ، ومن أقوى أركانها ، وكبار أعيانها . وكان من المشهود لهم بالكفاية التامة ، والمعروفين بالنهوض بجلائل الأعمال العامة . وكانت له المشاهد المذكورة مع صلاح الدين ، والمواقف المشهورة في مكافحة الصليبيين . ولولم يكن له من المحامد إلا موقفه الباهر في وقعة حطين ، لكفاه . وناهيك برجل يراه صلاح الدين كفوا كريما له ، فيصهر إليه ويزوجه من أخته (ربيعة خاتون) بملت أيوب .. ؟

(١) إربل : بلدة كبيرة بها قلعة حصينة ، في فضاء واسع من الأرض وفيها أسواق عامرة ، ومنازل كثيرة وبقليعتها جامع للصلاة ، وكانت من أعمال الموصل ، وكان الموصل من ولايات الدولة المصرية . قال ياقوت : وفي ربض هذه القلعة في عصرنا هذا مدينة كبيرة عريضة طويلة ، قام بعمارته وبناء سورها وأسواقها وقيساريته : الأمير مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين كوجك على . وبمقامه بها قامت لها سوق ، وصار له هبة ، وقاوم الملوك ونابذهم بشهامة ، وكثرت تجربته حتى هابوه فانحفظت بذلك أطرافه ، وقصدها الغرباء وقطنها كثير منهم حتى صارت مصرا من الأمصار .

فقد ذكر سبط ابن الجوزي^(٢) في كتابه (مرآة الزمان) عن شاهد سباط الملك المظفر في بعض هذه الاحتفالات المولدية ، أنه عد في ذلك السباط خمسة آلاف رأس غنم مشوى ، وعشرة آلاف دجاجة ، ومائة فرس ، ومائة ألف زبدية ؛ وثلاثين ألف صحن حلو - قال ؛ وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية فيخلع عليهم ، وبطابق لهم [الهبات والمبرات] ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر ، ويرقص معهم بنفسه . وكان يصرف على المولد في كل سنة ثلثمائة ألف دينار .^(١)

وذكر ابن خلدان طرفا من وصف احتفال هذا الملك ، فإن الوصف يقتصر عن الإحاطة به ، كما يقول . فقال : إن أهل البلاد كانوا سمعوا بحسن اعتقاده فيه (أى في المولد) فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل ، مثل : بغداد ، الموصل ، والجزيرة ، وسنجار ونصيبين ، وبلاد العجم ، وتلك النواحي ، خلق كثير من الفقهاء ، والصوفية ، والوعاظ ، والقراء ، والشعراء ، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول

(١) هو شمس الدين يوسف (قز أو غلي) ومعنى ذلك بلغة التركان (ابن البنات) ولذلك قيل له (سبط ابن الجوزي) لانه ابن بنت أبي الفرج ابن الجوزي ، وهو من أصل تركاني . وكان ذا عناية بالتاريخ . وله كتاب (مرآة الزمان) قيل إنه يقع في نحو أربعين مجلداً . طبع منه قطعة بالفتوغرافيا في شيكاغو بأميركا سنة ١٩٠٧ بها حوادث من سنة ٤٩٥ إلى ٦٥٤ هـ توفي سنة ٦٥٤ هـ ١٢٥٦ م .

(٢) الدينار عملة قديمة كانت تسك من الذهب غالبا . وأول من سك في الإسلام عبد الملك بن مروان في سنة ٧٧ ٦٩٦ م . وفي تقدير قيمته اختلاف كبير بين الباحثين والراجع أنه كان يساوي ما قيمته ٢٥ فرنكا أو ٢٢ ٥٨٨ مليا بالعملة المصرية .

ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب ، كل قبة أربع أو خمس طبقات ، ويعمل مقدار عشرين قبة أو أكثر : منها قبة له ، والباقي للأمراء وأعيان دولته ، لكل واحد قبة .

فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملة ويعد في كل قبة جوق من الأغاني ، وجوق من أرباب الخيال^(١) ومن أصحاب الملاهي . ولم يتركوا طبقة من تلك الطبقات حتى يرتبوا فيها جوقا . وتبطل معاش الناس في تلك المدة ، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم . وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاور الميدان وكان مظفر الدين ينزل كل يوم ، بعد صلاة العصر ، ويقف على قبة قبة ، إلى آخرها ، ويسمع غنائهم ، ويتفرج على خيالاتهم ، وما يفعلون في القباب [من صنوف الآعاب] ثم يبيت في الخانقاه ، ويعمل السماع فيها^(٢) ثم يركب عقيب صلاة الصبح يتصيد ، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر . وهكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد .

وكان يعمل [المولد] سنة في ثامن الشهر ، وسنة في ثاني عشره . لسبب الاختلاف الذي فيه . فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم ، شيئا كثيرا ، زائدا عن الوصف ، وزفها بجميع ما عنده من الطبول والأغاني والملاهي ، حتى يأتي بها إلى الميدان . ثم يشرعون في نحرها ،

(١) الخيال : هو ذلك الملعب الذي يعرف عند عامة المصريين بخيال الظل . ولا تزال بقاياه موجودة إلى الآن في بعض البلاد المصرية يشهده العامة والأطفال

(٢) يريد بالسماع حلقات الذكر التي يقيمها الصوفية ويتناشدون فيها الأشعار بأنغام وحركات خاصة ، ويتظاهر فيها بعض المتصوفة بالتواجد .

وينصبون القدور ، ويطبخون الألوان المختلفة .

فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات ، بعد أن يضى المغرب فى القلعة ،
م ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شئ كثير ، وفى جملتها شمعتان أو أربع
من الشموع الموكبية التى تحمل كل واحدة منها على بغل ، ومن ورائها رجل
يسندها ، وهى مربوطة على ظهر البغل ، حتى يلهى إلى الخانقاه .

وفى صبيحة يوم المولد تنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه ، على أيدى
الصوفية : على يد كل شخص منهم بقعة . وهم متتابعون كل واحد وراء الآخر .
فينزل من ذلك شئ كثير . ثم ينزل [الملك المظفر] إلى الخانقاه ، ويجتمع
الآعيان والرؤساء ، وطائفة كبيرة من بياض الناس . وينصب كرسى للوعظ
وقد نصب لمظفر الدين برج من الخشب له شبابيك إلى الموضع الذى فيه الناس ،
والكرسى وشبابيك آخر للبرج إلى الميدان .

وهو ميدان كبير فى غاية الاتساع . ويجمع فيه الجند ويعرضون
ذلك النهار .

والملك المظفر تارة ينظر إلى عرض الجند ، وتارة إلى الناس والوعاظ .
ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم . فعند ذلك يقدم السباط
فى الميدان للصعاليك . ويكون سباطا عاما ، فيه من الطعام والخبز شئ
كثير ، لا يحد ولا يوصف . ويمد سباط ثان فى الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسى
وفى مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب [الملك المظفر] واحدا من الآعيان
والرؤساء الوافدين لشهود هذا الموسم - بمن قدمنا ذكرهم - من الفقهاء

والوعاظ والقراء ، والشعراء . ويخلع على كل واحد منهم . ثم يعود إلى مكانه فإذا تكامل ذلك كله ، حضروا السباط ، وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمل إلى داره . ولا يزالون على ذلك إلى العصر ، أو بعده . ثم يبيت المظفر تلك الليلة هناك . ويعمل السماعات إلى بكرة .
هكذا دأبه في كل سنة .

فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعود إلى بلدته . فيُدفع لكل شخص شيء من النفقة .

وقال ابن كثير في (البداية والنهاية) : كان [الملك المظفر] يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ، ويحتفل به احتفالا هائلا . وكان شهما شجاعا ، بطلا عاقلا ، عالما عادلا . وقد صنف له الشيخ أبو الخطاب ابن دحية ^(١) مجلداً في المولد النبوى سماه (التنوير في مولد البشير النذير) فأجازه على ذلك بألف دينار . قال : وقد طالمت مدته في الملك إلى أن مات وهو محاصر للفرنج بمدينة عكا سنة ٦٣٠ هـ .

ونقل السخاوى في (التبر المسبوك) أنه كان للبك المظفر صاحب إربل [بالمولد النبوى] أتم عناية . واهتمام جاوز الغاية ، بحيث أفنى عليه بذلك

(١) هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن الجليل بن فرح اليانسى الأندلسى . كان يعرف بابن دحية السكلى ، ويلقب بذي النسيين . وكان من أعيان العلماء ، ومشاهير الفضلاء . جاب البلاد الإسلامية شرقا وغربا في طلب العلم والتوسع في المعرفة ، وله عدة مصنفات . وكان مولده في بلنسية في بلاد الأندلس سنة ٥٤٤ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٦٢٣ هـ ١٢٣٦ م ودفن بسفح المقطم .

الإمام العلامة أبو شامة في كتابه (الباعث على إنكار البدع والحوادث) قال :
إن هذا يحسن ويُندب إليه ، ويُشكر فاعله ، ويُثنى عليه .

٤ — في مناقب الملك المظفر

ويعد فلا يسمى هنا إلا أن ألخص حياة ذلك الملك الكريم ، فأقول :
هو أبو سعيد مظفر الدين كوكبوري (ومعناه بلغة التركان : الذئب الأزرق)
ابن زين الدين بكك (أى الصغير) التركمانى . تولى بعد أبيه سنة ٥٦٣هـ ١١٦٨م
ثم عزل فقصد إلى سيف الدين غازى صاحب الموصل فأقطعه مدينة حران
ثم تطوع بخدمة السلطان صلاح الدين وشهد معه فيما شهد ، وقعة حطين
الشهيرة التى هُزم فيها الصليبيون . فأقطعه مدينة الرها وزوجه من أخته
(ربيعة خاتون) بعد وفاة زوجها الأول سعد الدين مسعود سنة ٥٨١هـ
١١٨٥م ثم ولاء إربل وأعمالها سنة ٥٨٦هـ ١١٩٠م وكان أحد الملوك
الآجناد ، والفرسان الأنجاد ، والكرام الأجواد . وكانت له آثار حسان منها
الجامع المظفرى الذى عمره بسفح جبل قاسيون من دمشق الشام ، ومنها أنه
كانت له دار ضيافة للوافدين من مختلف الجهات ، يصرف عليها فى كل سنة
مائة ألف دينار ، كما كان يصرف على الحرمين الشريفين ، وعلى المياه بدرب
الحجاز فى كل سنة ، ثلاثين ألف دينار . وكان يفدى أسارى المسلمين ويفتكرهم
من أيدي الأفرنج فى كل سنة بمائتى ألف دينار . هذا كله سوى صدقات السر .
ومع هذا فقد كان فى نفسه متزهدا متقللا ، يلبس قميصا من الكرباس الغليظ
لا يساوى خمسة دراهم . فلما عاتبه زوجته ربيعة خاتون فى ذلك قال : إن لى

ثوبا بقليل من الدراهم . وأتصدق بالباقي ، خير من أن ألبس ثوبا مشمنا وأدع
 الفقير والمسكين ... وأنشأ أربع خانقاوات للزمنى والعميان ، وجمع فيها
 هذين الصنفين من ذوى العاهات ، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه كل يوم .
 كما بنى دارا للنساء الأرامل ، ودارا للأيتام الصغار ، ودارا للقطاء ، ورتب
 لهم المراضع ، وأجرى على هذا كله واسع النفقات . وكان للبيمارستان من عنايته
 النصيب الأوفر ، فقد عين فيه الأطباء والمرضين ، وأمدّه بمختلف الأدوية
 وجميع ما يلزم لمباشرة الطب والجراحة . وكان يزور هذه المنشآت بنفسه يومان
 فى كل أسبوع ، ويتفقد كل واحد من نزلاتها ويصرف لهم نفقات زيادة على المقرر .
 وعلى الجملة فقد كان رجلا لا نظير له بين أقرانه فى حب الخير على
 اختلاف مواقعه . رحمه الله رحمة واسعة ، فلقد فضع الملوك من بعده ، إذ
 قصرُوا عن شأوه . وكانت ولادته فى سنة ٥٤٩ هـ ١١٥٤ م وتوفى شهيدا
 على أسوار عكا فى محاصرة الصليبيين سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٣ م .

وبعد فلو كان الأيوبيون جادين فى إلغاء الرسوم الفاطمية ، والتقاليد
 الشيعية ، بصورة قاطعة ، لما خالفهم هذا الملك المظفر فى إحياء هاتيك
 الرسوم ، وبلغ من احتفاله بالمولد النبوى هذه المبالغ التى لم يسبقه إليها سابق ،
 وإن يلحقه فيها لاحق . والحق أن الأيوبيين لم يهتموا إحياء ذكرى المصطفى
 عليه الصلاة والسلام ، الإهمال كله ، لاسيما أن الكثير من الأئمة الإسلامية
 كانت تُعنى به العناية الفائقة . وقد صار فى المملكة المصرية على الخصوص ،
 من التقاليد والعادات المقدسة التى كان الشعب المصرى ينهض بأعبائها فى
 أوقاتها دون الإلتفات إلى أوامر الحكومة ونواهيها .

عصر دولة المماليك البحرية

١ - بحث شؤون هؤلاء المماليك

رأينا من يعرف بما لا يعرف يقول إن ملوك مصر المنعوتين في التاريخ (بالمماليك) ليسوا إلا جماعات متفرقة، من أمم شتى، جرى عليهم، أو على أكثرهم الرق. وساعدتهم المقادير حتى تمكنوا، بظروف موائمة، من اغتصاب عرش مصر، والتصرف في شؤون الدولة المصرية بما شاؤوا وشاءت لهم أهواؤهم. وهم مع ذلك لا يحسبون من المصريين في قبيل أودير-يريدون أنهم من أجناس أجنبية لا تمت بصلة من صلات النسب، ولا بوشيجة من وشائج القرى، من المجلس المصري. وعلى هذا فلا يصح- في تقدير هؤلاء الأغفال- أن يلتظموا في سلك الملوك المصرية. ويغالون في غفلتهم فيرون أن كل ما قاموا به من جلائل الأعمال، وما أدوه لوادى النيل من صنوف الخير، والاحتفاظ بالكيان الدولى له، يجب أن ينظر إليه بمؤخر العين، إذ لا يستحق عندهم القبول على إطلاقه. ولذلك كثيرا ما ترى هؤلاء المحسوبين على أهل الفهم والمعرفة، وهم يتجاذبون أطراف الأحاديث عن هؤلاء المماليك وأساليب تصرفاتهم في الحكم، يخلقون الأسباب الواهية، لتشويه تاريخهم، ويبتدعون العلل المتهاففة، لتخطئة أعمالهم في إدارة الدولة، وقيادة الأمة. وقد يتغالون في تجنبهم هذا فينكرون قيامهم بالدفاع عن كيان السلطنة المصرية، وزيادهم عن بيضة الإسلام في حومته من قلب الشرق.

ولا شك في أن هذه الروح الخبيثة ، وهذه النفوس السادرة في مهامه الخديعة ، إنما نشأت عن الأثر السيء الذى تركته فيها سياسية التعليم الأجنبية التى نهجها المستغلون من المستعمرين ، لقتل العصية المصرية ، وبحور روح القومية . كما أن ذلك من فيض التفكير السقيم الذى تبرأ منه المقومات الصحيحة للسكان الإنسانى فى مواطن آبائه وأجداده . أثاره الجهل بأحوال التاريخ ، والغفلة عن تفهم التطورات الزمنية ، وما تحدته من التعارض والتضارب ، فى الآراء والمذاهب - وهم مع هذا لا يشعرون بأنها نزعة خطيرة قام على بثها فى هذه الأذهان المعتلة ، قوم لهم أغراض مدمرة ، ومطامع مقوَّضة ، ليصلوا منها إلى تمزيق شمل الوحدة الإسلامية ، وإظهارها فى مظهر الأمم المتفرقة الأصول ، المتجمعة على الفضول . وفى حال القوميات المتباينة التى لا يعدد بقاؤها من الأمور الطبيعية . وبذلك يضربون تاريخ مصر الإسلامية فى صميمه . كما رأينا ذلك رأى العين ، ولمسناه بالأكف وعرفناه بالاختبار فى طوال السنين الماضية من حياتنا .

ولهذا رأيت أن أبين مدى الخطأ فى هذه النزعة ، وأوضح وجه الصواب فى حقيقة أمر هؤلاء الممالك المظلومين . كما أعرض لأحوالهم وشؤونهم ، بالإجمال ، من النواحي التى تظهرهم على ما فطرهم الله عليه ، وما وفقهم إليه . وقبل المضى فى ذلك أرى أن أوجه هذا السؤال :

متى ، وفى أى عصر ، قام فى مصر ملوك من أبنائها الصميمين . بعد عهد الفراعين ؟

والجواب على ذلك لا يحتاج إلى بيان ، ولا يفتقر إلى إيضاح . فهو

ظاهر ظهور الشمس في أفق الوادى . لأن كل من له إلمام بالتاريخ المصرى يعلم علما ليس بالظن أن الديار المصرية ، بعد عهد الفراعين ، كانت عرضة للغزاة والمغيرين . فقد طامسا اجتاحتها الدول الطامعة ، وأغارت عليها جيوشهم من الشمال والجنوب ، وانصبت إليها كتابهم من الشرق والغرب . وما من مغير عليها إلا حاول فيها إنشاء دولة ، أو تأسيس أسرة تستقل بالحكم والنفوذ في ربوعها . ومنهم من ألحقها بدولته الأجنبية ، وجعلها تابعة لمملكته الخارجية ، واتخذها ولاية تُستغل لصالح بلاده . وهو مع هذا لا يمت إليها بصلة من صلات النسب ولم يجر في عروقه شيء من دم جنسها أو ماء نيلها . هذا مالا خفاء فيه على من عنى بتصفح تاريخ وادى النيل .

والحق الذى لا مرأى فيه ، والذى يجب أن يكون ماثلا في ذهن كل مصرى ، أن الملوك الذين قاموا على ضفاف هذا الوادى - بعد الفتح الإسلامى إلى الآن ، إنما يشتعلون على الصفة المصرية التى لا يمكن بحال ، نزعا عنهم ، أو تجريدها عنهم لنزوات تقوم في بعض الرؤوس .

وذلك لأنهم - قبل كل شيء - مسلمون . والدين الإسلامى لا يعرف التباعد بين أمه ، أو التباين بين أجناسه ، ولا يقر الحدود أو الحواجز بين درله وشعوبه . فهو بطبيعته : أمة واحدة تستغرق جميع الأمم المنضوية تحت لوائه ، وهو بروحه وكيانه ومبادئه ، جنس واحد تنطوى فيه سائر الأجناس ، مهما تباينت في أصولها ، أو تباعدت في مواطنها ومناشئها ، أو تخالفت في فروعها وفصولها .

ومن الأمور المقررة لدى العارفين أن يكون كل ملك من الملوك الذين

يلون سياسة الأمم الإسلامية ، ويقومون بتدبير شؤونها في أى بقعة من بقاع الأرض - متصفا بصفتين . إحداهما : أصيلة ضرورية ، وهى التدين بالدين الإسلامى ، والقيام على إنفاذ أوامره ونواهيه ، ورعاية فروضه وواجباته . والثانية اجتهادية ، وهى التمسك من إقامة ميزان العدل بين الناس كافة ، ورفع الجور والظلم عن الرعايا ، واحترام العهود والمواثيق مع أهل الذمة منهم ، ما قاموا برعايتها واحترامها . فتى كان الملك ، أو السلطان ، أو الخليفة ، أو الأمير ، أو الحاكم ، حائزاً للصفة الأولى ، مضطرباً بأعباء الصفة الثانية ؛ كان جديراً بتولى أمور المسلمين ، ومن فى حكمهم من المعاهدين ، حقيقةً بالسلطان فيهم ، والحكم بينهم . وبهذا يكون أشد إغراقاً فى القومية من القوم الذين نصب فيهم ليسوسهم ويرعاهم . دع عنك مذاهب الشيع وفرق الغالية التى لها فى هذا الشأن آراء متباينة ، وأفكار شاذة .

على أن فكرة القومية ، بمعناها المعروف الآن ، ونزعة الوطنية ، بصورتها المسائلة فى الأذهان ، وعلى ما توحى به من مغايزها ، ومطارح مرامها - لم تكن معروفة بما تشير إليه فى عصرنا الحاضر ، ولم يكن لها وجود صحيح أو حدود مرسومة ، قبل القرنين الأخيرين ، فصورة القومية التى نتمثلها فى هذه الأيام ، وهيولى الوطنية التى نناضل من أجلها ، ونضجى بكل مرتخص وغال فى سبيل تحقيقها - هذه الصورة وهذه الهيولى ، وإن كانتا طبيعية فى بنى الإنسان ، إلا أنهما مما أججت أوارها فى النفوس ، بدع السياسة ، وطنيان الساسة ، وألهبت مشاعلها سنن تنازع البقاء فى هذا العصر الحديث .

فلوك مصر الذين تبوأوا عرشها ، واقتعدوا غارب الحكم فيها ، من أولئكم الممالك - بأية وسيلة من الوسائل الممهدة لذلك ، وورثوا فيها ما كان للدول قبلهم ، ونظموا حكوماتها بما أوحى به ، واهبهم ، وغزوا الأمم والممالك باسم مصر ، وعبدوا لها سبل البسطة والسلطان على غيرها ، ونشروا رايثها عالية خفاقة في الأمم والشعوب ، وعقدوا المعاهدات بوحي مصلحتها مع الدول الأخر - هم منها ، وبها ، ولها ، وإلها . وهم بذلك أحق بصفة المصرية وأهلها - من أولئكم الذين لا يحملون إلا هذه النسبة مهما تغفلت بهم الأصول في تربتها ، أو جبلوا من قاع نيلها ، وطعموا ثمرات طينها ، واستروحوا الحياة بين أرضها وسماؤها - ولم يقدموا لها خيرا ، ولا دفعوا عنها ضيرا .

أجل ، هم أحق بالمصرية من سواهم ، على شريطة الإسلام ، وتحري العدالة في الأحكام على قدر الطاقة البشرية - مهما تباعدت أجناسهم أو تقاربت من الجدية المصرية .

أما من غزاها للإذلال ، أو استولى عليها للاستغلال ، أو اختلها لتكون دريعة لحفظ سلطانه ، فهو الأجنبي عنها حقا ، ولو كان من أهل الصلاح والعدل - وهو ما لم يعثر عليه في غمار المغيرين - لاشك في ذلك ولا ريب . فالدولة الطولونية ، والأخشيدية ، والفاطمية ، والايوية . ودولة الممالك البحرية ، والممالك البرجية الجراكسة - كل ما قام بمصر من هذه الدول - على اختلاف أسمائها ، وتنوع ألقابها - فهي مصرية بلا شك ولا جدال . لا يجوز الطعن في مصريتها . ولا يحمل دفع ملوكها وسلاطينها وأمرائها عن

المصرية بحال . لا مسيا وقد كان وادى النيل فى عهدهم ، والمملكة المصرية فى سلطانهم ، محوطتين بكل ما يحفظ منهما الكيان ، ويوطد فيهما الأركان . وكانت مصر تحت ظلالهم تتمتع باستقلال مطلق فى كل قيد ، مبرا من أية شائبة أو شبهة . كما هو عليه بعض الدول الكبرى فى هذا العصر .

ومما ينوه به التاريخ لهم من فضل على مصر خاصة ، وعلى العالم الإسلامى عامة . بل وعلى المدنية الإنسانية والحضارة البشرية ، بوجه أعم - أنهم كانوا السبب المباشر فى حفظ التراث الإسلامى ، ومنابع الحضارة العربية ، بالدفاع عنها ، والذباب عن حياضهما . وذلك حين اكتسح الشرق الإسلامى : جنكيزخان بجيوشه ، وهولاكو بمقانبه ، وغازان بكتائبه - تلك الجيوش المغولية والتتارية التى كانت لاتعرف من غايات الحرب إلا الإبادة والتدمير ، والتى ما وقفت فى طريقها دولة إلا أزالتها ، ولا أمة إلا أبادتها . كما كان لهؤلاء المماليك أعظم الفضل فى صيانة مصر من غارات تيمورلنك ، وحراستها من السيول الدافقة من متعصبة الصليبيين الذين توالى حملاتهم الجائحة على ديار الإسلام ، المرة بعد المرة ، والكرة إثر الكرة . فلولا المماليك فى مصر لتغير وجه العالم إلى ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، ولأسودت صفحات التاريخ المصرى ، كما هى مغبرة منذ أكثر من ستين سنة . ولما كان للعالم الإسلامى كيان أو وجود على وجه الأرض .

هذا ما يجب أن يذكر لهؤلاء المماليك الأبطال المظلومين ، من الفضل على مصر ، وما يلبغى أن ينقش لهم بمداد المجد والفخر على جبين الدهر .

٢ - نظرة في الرق وفيمته

أما اغتياز هؤلاء الممالك بوقوع الرق عليهم أو على بعضهم ، فلا قيمة له في نظر العقل السليم ، ولا ينال منهم في معارج الإنسانية المهذبة ، ولا يغبر في وجوه أعمالهم المخلدة ، ولا يحول بينهم وبين الفطرة الحرة التي فطر الله الناس عليها . وإذا كان قد وقع على بعضهم الرق ، فقد كان ذلك خارجاً عن إرادة من وقع عليه منهم ، فضلاً عن مخالفته لمقتضى النشأة الطبيعية . فالأصل في الإنسان أن يولد من أبويه حراً ، وأن يلدشاً في بحبوحة الحرية . وإنما يقع الرق على من يقع عليه من الناس بعوامل النزوات النفسية ؛ فيتسلط القوى على الضعيف ويقسره على الإذعان لإرادته ، والاستكانة لمشيئته . فيخضع الضعيف لسطوة القوى حياً في الحياة التي هي أعز شيء في الوجود ، واعتماداً على الأمل فيما تأتي به المقادير في غد ، والغد بيد الله . وهناك أسباب كثيرة لحدوث الرق لا فائدة في استعراضها هنا وإنما كان هذا من سنن تنازع البقاء وطبيعة الغلب .

فهذا الكريم بن الكريم بن الكريم ، والحر بن الحر بن الحر ابن الحر ، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم - عليهم السلام - ألم يقع عليه الرق ويباع بثمان بخس دراهم معدودات ؟ ... ! هل حال الرق بينه وبين إنسانيته ؟ وهل منعه من أن يتولى أكبر المناصب في الدولة المصرية ، وأن تُرد إلى أمره ونهبه جلائل الأعمال في المملكة ، في أخرج أوقات القحط والضيق وسني الشدة ! وأن يكون العزيز المطلق التصرف في شؤون الأمة ؟ ألم يكن يوسف في مصر في مقام (الدكتاتور) ؟ وهل رأى أهل

الرأى وأصحاب الحل والعقد من المصريين ، غضاضة فيما أسند إليه فرعون مصر ،
من التصرف فى رقاب الرعايا ، والتحكم فى أرزاقهم من غير شرط ولا قيد ،
وهو مع ذلك على الرق . ١١ لقد كان المصريون أكبر عقلا ، وأحكم رأيا ،
وأنفذ بصيرة ، وأعظم إشارا ، من أن يخطر لهم خاطر رق يوسف على بال ،
أو أن يكون الرق حائلا بينه وبين أن يبلغ فيهم ، بحده وكده وإخلاصه ، من
السطوة والنفوذ ، منتهى الآمال . والحال أن رقه لم يكن خفيا على دهما
المصريين وعامتهم ، فضلا عن الملوك والأمراء وكبار الأمة وخاصتها .

وقد كان الرق معروفًا فى الأمم القديمة ، كما هو معروف فى الأمم الحديثة .
وكان من أسبابه ودواعيه ما كان يثشب بين الشعوب من الغارات والحروب
طلبًا للرزق ، وارتدادًا لمواقع الخصب ، وحبًا فى القهر والغلب ، وذهابًا إلى
البسطة والنفوذ ، وانتهاء لما فى أيدي المستضعفين من وسائل العيش ،
أو كسبا لوصف الشجاعة والبطولة ، والعلو فى الأرض . وكان فى غالب
هذا النزاع يقع الكثير من الأسرى فى أيدي الغالبين . فيختار الغالب منهم
من يصلح للانضمام إلى صفوفه ، ويميز من يصلح منهم لحرق الأرض
ورعى الماشية . ومنهم من كان يخصص بالقيام على الشؤون الخاصة
بالغالب وخدمته الفردية ، أما من كان يرى أنه غير صالح لشيء من ذلك ،
أو كان زائدًا عن الحاجة ، فقد كان الغالبون يضيقون به ذرعا فيبادلون به غيرهم
من يرغب فيه بأى نوع من أنواع البدل . وربما ضن بعض الأسرى
باطعام مأسوريهم وإيوائهم ، فقتلوه واستراحوا من تكاليفهم .

وهذا التصرف الأخير قد روى عن اتصفوا بحملة مشاعل المدنية

في القرن التاسع عشر ، ولم يرو مثله عن طغاة البربرية في القرون الأولى .
فقد تناقل المؤرخون أن نابوليون بطل أوروبا في العهد الحديث ،
ضاق ذرعاً بمن استسلم إليه من المصريين حينما خرج إلى الشام ، فأمر بقتلهم
جميعاً ، وكانوا حوالى أربعة آلاف ، بلا ذنب جنوه ، إلا أنه رآهم عبثاً
ثقيلاً على مؤنته .

هكذا كان الحال عند قدما الطغاة ، وهكذا الحال عند متمدنة
القرون الحديثة .

وإن تعجب فعجب ما نقل عن أرسطو في شأن الرق ، وأنه كان في
نظره أمر طبيعي لا ينبغي التعجب منه . وأن الطبيعة في قسمتها البشر إلى
طبقتين : سادة ، وأرقاء - ليست ظالمة ، ولا مستبدة . قال : « وإنه يوجد
في آسيا ، في الأقاليم الحارة منها ، أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر ، لكنهم
مجردون من العزيمة ، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقاء ... وقال : إن مناخ
يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذي يمكنه أن يثشي سلائل جامعة بين
العزم والذكاء . فال يونان أحرار بحسب الفطرة قبل عمل التربية » .

وأنت ترى في هذا الرأي أن أرسطو شيخ الحكماء قد دفعه التعصب
لتلميذه الإسكندر ، فخلع رداء الحكيم وتنكب قوس السياسي ، ومضى يبرر
ما قام به الإسكندر من غزوات فيها الكثير من استعباد الأمم ، والتنكيل
بشعوب آسيا . وإن كان قد صاغ هذه المبررات في قالب يوم التجرد من
الغاية ، أو يناسب تفكير الفيلسوف العليم .

وليس هذا من روح الإسلام الذي عبر عنه عمر بن الخطاب بقوله :

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

فلما جاءت الأديان السماوية ، وكان الإنسان قد درج في هذا الشأن على أمر يعز عليه التخلي عنه دفعة واحدة ، تدرجت في الحث على الرقيق بالرقيق والعناية به ، قدر المستطاع . ولكن الدين الإسلامي كانت وصاياه بالرقيق وعنايته بالرقق به بالغاً حد الكمال الإنساني . فمن جهة أسرى الحروب قرر مبدأ الفداء ، وسن نظام التبادل بين الأسرى من الفريقين المتحاربين . كما أطلق للأسير الحرية في أن يختار اللحاق بذويه ، أو البقاء لدى أسرته من المسلمين . فكان المسلمون يتقبلون من رغب فيهم من أسراهم على الرحب والسعة . وفي غير هؤلاء من الأرقاء أوجب العتق والمكاتبة والولاء ، وأثاب عليها . وفتح سبيل التقدم على مصراعيه أمام ذوى الهمم من الرقيق فصاروا يتقدمون غيرهم من الأمراء في تولى المناصب الملحوظة في الدولة ، ولهم أن يؤاخوا الأحرار مؤاخاة الأنساب . فكان منهم من يقود الجيوش ويتسلط على الولايات ، ويسوس الرعايا ، وينشر الدعوة الإسلامية بما أوتي من مواهب ، كما كان منهم من يتصدر مجالس الحكم ، ومحافل العلم ، فيحكم بين المتخاصمين من الأحرار وغيرهم ، و يقيم ميزان العدل بينهم ، ويقتعد غارب الإرشاد والتعليم والافتاء فيهم . فكان يقصد من جميع الطبقات للاقتباس مما من الله به عليه من فضل ، والإفادة بما ماز به الله به من صالح الرأى ، في حل مشكلات الاجتماع ؛ من معاملات ، وعقود ، وعبادات ... « وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .

على أن الكثرة الغالبة من الممالك المصرية لم يقع عليها الرق ، ولم تفقد صفة

الحرية المتعارفة . فكم من قبائل وشعوب وخركاوات وأسرى بأكملها ، جاءت إلى مصر من أوطانها الأصلية ، متطوعة في صد غارات الصليبيين عن بلاد الإسلام ، ووقف الزخوف المغيرة من غيرهم . وكمن منهم من لجأ إليها فارا من الاكتساحات المغولية ، هاربا من التدمير التتري ، التي خربت بلادهم القديمة والمستحدثة ، والتي كانت لا تبقى منهم ولا تذر . ومنهم من حصل في أيدي المصريين بطريق الأسر ، أو الاستسلام ، في تلك الوقائع . ثم اتخذ هؤلاء جميعا مصر دارا لهم ، ومن وادي النيل وطنا دائما ، عاشوا فيه وماتوا له . وقد كان هؤلاء الممالك من أجناس شتى في مناشئهم ، ومن أصول مختلفة في أجدادهم . فكان منهم التركاني ، والتركي ، والكردي ، والمغولي ، والنترى ، والأويراني ، والأشروسي ، والساماني ، والبلخي ، والخراساني ، والبخاري ، والأويغوري ، والشركسي ، وغيرهم من شعوب الشرق الآسيوي كما كان فيهم الروسي ، والبولندي ، والبلغاري ، والروماني ، والسلافي ، والصقلبي . والرومي ، والهندي ، واللاتي ، والبندقي ، واليوناني ، وغيرهم من شعوب شرق أوربا وجنوبها . والقليل من هؤلاء جميعا من وقع في رق غيره ، ثم حاز شرف الولاة . وأي رق هذا الذي كان يؤدي - أحيانا كثيرة - إلى اقتعاد عازب السلطنة ، ويكون سبيلا إلى القبض على صولجان الملك ... ١

وبعد ، فلا شك في أن البودقة المصرية قد صهرتهم مع الزمن ، وسبكتهم على الأيام ، وأحالتهم من مختلف عناصرهم المتفرقة . وجواهرهم المتنوعة ، إلى عنصرها الموحد ، وجواهرها القوى الغلاب . فأصبحوا - رغم تباين أصولهم ، وتباعد معادتهم - مصريين ، بل أجدر بالمصرية من كثير ممن (٧)

قذفت بهم الأرحام المصرية ، ولطم مالكل مصرى من حقوق ، وعليهم ما عليه من واجبات . وصاروا جميعا لا يعرفون إلا مصر ، ولا يدينون إلا لمصر ، ولا يعملون إلا لمجد مصر . ثم ابتلعتهم أرض النيل . « فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ » .

٢ - فى بعض شأنه الممالك البحرية

كان الممالك البحرية ممن وفدوا على الدولة الأيوبية ، وألفوا جيوشها ، وحاربوا فى صفوفها ، وأبلوا معها البلاء الحسن : فى مدافعة خصومها ، ورد عادية المغيرين على بلاد الإسلام من الصليبيين وغيرهم . وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد استكثر من إيفادهم إلى بلاده ليحلوا مكان من أفتتهم الوقائع ، وأبادتهم الحروب . وهو أول من فكر فى شأن أبنائهم وذرائعهم ، وعنى بتربيتهم . فأنشأ لهم قلعة الروضة ؛ واتخذ لهم بها ثكنة^(١) ورتب لهم المعلمين والمدرسين ، يعلمونهم ما يجب عليهم نحو دينهم ، بعد إحسان القراءة والكتابة والحساب ، ومعرفة اللغة العربية مع اللغة التركية . ويهذبون

(١) يظهر لى أن الملك الصالح نجم الدين أيوب إنما جرى فى إنشاء هذه الثكنة التى اتخذها فى قلعة الروضة على النيل لتخريج الممالك البحرية وتثقيفهم - على النحو الذى جرى عليه الفاطميون من قبل ، فقد كانوا أنشأوا حجرا لإيواء غلمانهم وتعليمهم وتدريبهم ، وهؤلاء الغلمان هم الذين كان يطلق عليهم لقب (الصبيان البحرية) وكانوا فى منزلة هؤلاء الممالك وفى ثقافتهم وإعدادهم لعظائم الأمور . وكذلك جرى السلطان قلاون فيما بعد على هذا النحو ، فأنشأ البروج واتخذ الطباقي بقلعة الجبل للغرض نفسه ، وكان يطلق على خريجها لقب (الممالك البرجية) أو (ممالك الطباقي) كما أطلق على ممالك الصالح أيوب لقب (البحرية) لأنهم نشأوا بجوار البحر ، أى نهر النيل . وهذه فكرة لا تغيب عن أذهان المصلحين من ذوى النفوذ والسلطان .

أخلاقهم بتلقينهم تتفا من العلوم والفنون والآداب . وفي خلال ذلك يدرّبونهم على ضروب الرياضة والفتوة ، وما يلزم لرجل الحرب من استعمال آلات النزال ، وخوض المعامع ، ومباشرة المعارك ، وعوامل الفروسية ، وشؤون الغارات كزوافزا ، والوثب على الخيول والمطاردة بها كما يخصون فرقانهم لعلوم الهندسة ، وإقامة الحصون ، وإنشاء المعادل ، واصطناع القلاع . إلى غير ذلك مما كان معروفا في ذلك العهد من خصائص الحروب وآلاتها . ولهذا كان لهم الشأن الأعظم في رد عادية الجيوش الصليبية ، وإحراز نصر الانتصار عليها في كثير من الوقائع حتى ردهم على أعقابهم ، وأزالوهم عن مراكزهم ، وأنقذوا مصر والبلاد الإسلامية من غاراتهم المتوالية ، وأجلوهم عن الأماكن التي كان بعضهم قد تأهل فيها واتخذها ولاية أو مملكة من الأرض العربية ، في الشرق الأدنى . وذلك بعد حروب كثيرة ومعارك هائلة ، ووقائع حاسمة .

وكان أول من تولى السلطنة المصرية منهم - بعد انقراض الدولة الأيوبية - المعز أيبك التركاني الصالح . نسبة إلى مولاه الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥١ م .

٣ — المماليك البحرية والمولد :

وقد أطلت البحث والتنقيب ، وتصفحت الكثير من الأسفار المؤلفة عن هذه الدولة ، على أثرها انفردت به في شأن القيام بإحياء ذكرى المولد النبوي الشريف ، بما يليق به من حفاوة وجلال ، فلم أجد

لأحد من ملوكها ، أو أمرائها ، شيئاً من هذا . ولم أقرأ لأحد من كتاب تلك الدولة ومؤرخيها وأصحاب أخبارها ، إشارة إلى ما يبرر السكوت عن هذه الناحية ، وإغفال ذكرها ، فيما تناولوه من شرح آثارها ، وتقييم مآثرها . وعندي أن السبب في ترك الإشارة إلى هذا الشأن ، قد يرجع في أكثر الأحوال إلى انشغال الدولة ورجالها : ملوكا وأمراء ، وقادة وعلماء ، وكتبا وأدباء ، بشؤون الحروب الصليبية ، والغارات المغولية ، وما كانت تقتضيه هذه الجوائح الكبرى من إفراغ الجهد ، واستنفاد الوسع ، وبذل أكبر اللحم في الاضطلاع بأعبائها ، والنهوض بأوزارها .

وإذا علمت أن من ملوكها كان : المظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون وأولاده ، وما منهم إلا وله في هذه الحروب ، المواقف المذكورة ، والمشاهد الماثورة ، والمآثر المشكورة رأيت أن هذا التعليل الذي أشرت إليه ، قد يكون أقرب إلى الحقيقة من أى أمر آخر . وقد يضاف إلى ذلك أن هذه الدولة - وقد خلفت الدولة الأيوبية - قد جرت في شأن المولد على مارسمته هذه الدولة ، من ترك السير على آثار الفاطميين في بذل العناية الكبرى بهذه الذكرى الكريمة .

على أنهم في الحق ، لم يهملوا الاحتفال بذكرى المولد النبوى ، الإهمال كله ، ولم يقصروا في الالتفات إليه التقصير المطلق . وإنما كانوا يقيمون الاحتفال حسب مقتضيات الأحوال السياسية ، ومساعدات الظروف الدولية ، ودواعى الأحداث الحربية . وكان احتفالهم بذلك في حوش قلعة الجبل الكبير أما الأهالى فقد كانوا على ما هم عليه من إقامة الزينات ، والعناية

بالاحتفالات بالمولد في أوقانه المقررة . وكانوا يبذلون في سبيل إحيائه ،
والافتنان في الاحتشاد له ، كل ما في وسعهم . فكانوا يزينون أحياءهم
ويقيمون الولائم في دورهم ، ويسرون المراكب في حائهم ودروبهم ،
وبوزعون الصدقات على أهل الفاقة من عائلاتهم . لأنه - كما أشرت إلى ذلك
غير مرة - قد كان الاحتفال بهذه الذكرى ، أصبح في اعتقادهم من
الواجبات التي تدعوا الديانة إلى أدائها ، على ما رسمه أسلافهم .

٤ - في الأسرة الفلاوونية

لما تولى سلطنة مصر السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي
الصالح رأس الأسرة الفلاوونية في سنة ٦٧٨ ١٢٧٧ م رأى أن الحروب الصليبية
قد أفنت الكثير من جيوش الدولة ، ولما كانت الوقائع الصليبية لانزال
مقدمة الأوار ، رأى أن يضم إلى جيوشه عناصر قريبة ترد إليها شباها وجنتها
فكتب إلى أم الشرق ، وخانات آسيا ، يستمدهم بما يقوى به على رد المغيرين
على بلاد الإسلام ، ويدعوهم إلى الجهاد وصد المعتدين على عباد الله .
فاستجيبت دعوته ، ولم يلبث أن تدفق على مصر الكثير من القبائل والعشائر
من سكان جبال القوقاز ، وقطان سهول آسيا ؛ من ترك ركرد وجر كس ، وغيرهم
من هاتيك الأجناس . فجرى معهم على نهج أستاذه الملك الصالح نجم الدين
أيوب ، وأنشأ لهم ثكنات خاصة بقلعة صلاح الدين ، وجعل لهم بروجاً ، واتخذ
لأبنائهم طباقاً يقيمون بها ، وخصص لهم الأساتذة والمعلمين والمدرسين ،
يهذبون كبارهم ، ويثقفون شبابهم ، ويربون صغارهم . فيتلقون ما يجب

عليهم نحر دينهم ، ويتعلمون النظم العسكرية ، والحركات الرياضية ، ويتدربون على أعمال الفروسية . فيعدون بذلك إعدادا صالحا لخوض المعامع ، ومباشرة الحروب والوقائع ، وقيادة الجيوش ، وإدارة المعارك .

وكان بتلك البروج والطباق : اثنا عشر ألفا أو يزيدون ، يتخرج منهم من يلتحقون بصفوف الجيش ويحل بها غيرهم . وبهذا استطاع السلطان قلاوون أن يصمد لخصوم الإسلام من الصليبيين ، وأعداء البلاد من التتر وغيرهم ، ويرد كيدهم في نحرهم .

ورأى السلطان قلاوون أن الممالك يستعملون الذهب في زينةهم ، ويتحلون به في روحاتهم وغدواتهم ، ويبالغون في ذلك مبالغة غير سائغة . كما أنهم يتخذون لأنفسهم ذوايب طريفة من الشعر ، يجعلونها في أكياس من الحرير . فأمر بإبطال ذلك ، وبأن يكونوا في ملبستهم وزينهم ، كما يكون عليه رجال الحرب ، وأبطال الطعن والضرب . وبهذا كله نقلهم من حال الترف والفوضى إلى حال الخشونة والنظام . وخاض بهم المعامع ، وكان من الفائزين .

٥ - وفود سلطانه أفريقيا على مصر

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وفد على مصر السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني ، أحد ملوك بني حفص بتونس . وذلك في سنة ٧١٧ هـ ١٣١٧ م

والسبب في ذلك أن السلطان الحفصي بلغه توثب صاحب الثغور الغربية على بلاده فأثر التنازل عن الملك ، غير أنه كتم نيته ، وأخذ يبيع ما يخزائمه

من تحف وجواهر ، ودرر و ذخائر ، كما باع ما يملك من أرض وعقار ومزارع ، ثم أخذ ما في بيت ماله من نقود وسبائك ومسكوكات ، وجمع ذلك كله في خفاء ، حتى باع السكيب . كما يقول ابن خلدون . ثم ورى لأهل دولته أنه ذاهب إلى طرابلس لتمهيدته . فلما وصل بركبه إلى ثغر طرابلس ركب البحر بما معه وبمن صحبه ، وحضر إلى الإسكندرية وفيها ألقى مراسيمه . وتلقاه الملك الناصر وأنزله خير منزل وعنى به ورفع مجلسه وأكرم وفادته ، وفرض له جراية تكفيه ومن معه . فقابل الملك الحفصى هذا الإكرام بما هو أهله . وصار يمد الملك الناصر بأمواله و ذخائره ، يستعين بها على حروبه وملشأته حتى نفدت جميعها . وظل بعد ذلك يعيش بما فرض له ، حتى وافاه أجله ، فمات بمصر سنة ٧٢٨ هـ ١٣٢٨ م

هذا ملخص ما ذكره ابن خلدون . أما ابن بطوطة فقد قال عند زيارته للإسكندرية : وكان فيها في ذلك العهد سلطان إفريقية المخلوع ، وهو ذكريا أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني . وأمر الملك الناصر بإنزاله بدور السلطنة من اسكندرية ، وأجرى له مائة درهم في كل يوم ، وكان معه أولاده عبد الواحد ، ومصرى ، واسكندرى ، وحاجبه أبو ذكريا بن يعقوب ، ووزيره أبو عبد الله بن ياسين . وبالإسكندرية ، توفي اللحياني وولده الإسكندرى ، وبقي المصرى بها إلى اليوم .

ذكرنا هذا هنا لنبدل على أن مصر مازالت في أدوار تاريخها ، وفي مختلف عصورها ، ملجأً للبتكوبين ، وعصمة للظالمين ، وأنها ما برحت البلد المضيف الكريم ، يأوى إليها من فقد الأمن على حياته ، والطمانينة

على كيانه ؛ من كبار الرجال ، وأحرار الأبطال . وملوك الأمم . وهامى
فى عهد الفاروق العظيم تتقبل الملوك والأمراء ، والسادة والكبراء أمثال :
الملك أحمد زوجر ملك ألبانيا ، والسيد محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين
الأكبر ، والملك فيكتور إمانويل ملك إيطاليا ، والملك سيمون ملك بلعاريا
والملك أمبرتو ملك إيطاليا ، والأمير محمد بن عبد الكريم الخطاى أمير
المغرب الإسبانى . وغيرهم من الأحرار المضطهدين . ولكل واحد من
هؤلاء حاشية ، تكثر أو تقل ، فضلا عن أمرهم . وهم يعيشون الآن تحت سماء
مصر وفى رحاب الأمن والكرامة .

عصر دولة المماليك الجراكسة

١ - تعليل نسبتهم

أما نسبتهم إلى الجركس ، فهي النسبة العامة التي اصطلاح عليها أكثر المؤرخين . وقد يقال لهم المماليك البرجية ، إما نسبة إلى بلد قلاوون المسماة (برج) والمتاخمة لبلاد الجركس ، كما زعم بعض كتاب الإفرنج ، وإما نسبة إلى البروج التي أنشأها لهم السلطان قلاوون بقلعة الجبل . والآخر أظهر . وقد رجح بعضهم أن السلطان قلاوون جركسى الأصل . وإن كان بلا شك من المماليك البحرية . وقد أشرنا فيما مضى إلى أنهم كانوا من أجناس مختلفة .

٢ - وصف المماليك الجراكسة :

رأيت من الخير أن أعرض في هذا الفصل ، لشيء من أحوال المماليك البرجية المعروفين بالجراكسة ، وأن أتناول ما كانوا عليه من الصفات الخلقية والخلال الخلقية ، وما امتازوا به من خصال أهلهم لأن يكونوا ذوى أمر ونهى ، وعقد وحل ، وسطوة ونفوذ ؛ في المملكة المصرية التي نشأوا في ظلها ، أو وردوا إليها واتخذوها وطناً لهم ، لا يعرفون غيره ، ولا يحنون إلى سواه . والذين تفانوا في الدفاع عنه والذيادة عن كيانه ، وأنشأوا فيه الملشآت العظيمة ، وشادوا في أنحاء الآثار الفخمة ، من المساجد والمدارس ، والرُّبُط ، والتكايا ، والمشاهد ، والزوايا ، والأضرحة السكرية . حتى عد عهدهم بحق من العصور الذهبية في تاريخ مصر .

وقد وصفهم أبو الشناء محمود الأمشاطي في كتابه (القول السديد) فقال :

« هم أصحاب قدود وقوة ، وشدة وبأس وعصية ، دأبهم المغالبة ، وفيهم غلظة وجبروت ، وكبر وخيلاء . لا يرون لأحد علمهم فضلا . ويزعمون أنهم مستحقو كل شيء من المكرمات ، ولا يستحق ذلك أحد غيرهم . ولهم شجاعة وقوة على الحرب . ولهم الصدمة الأولى ، لا يقارمهم فيها أحد . وصالحهم صالح لا نظير له . وطالحهم طالح لا مثيل له . وألوانهم مختلفة : فالأبيض المشرب بحمرة يكون ذكيا فهما عاقلا ذا رأى وحكمة . والأشقر لا نظير له في الشرور والخلاف ، قليل الخير والمعروف . والأشمر يكون شجاعا كبير الهمة مقداما » .

ووصفهم العلامة جودت باشا المؤرخ التركي المشهور ، فقال :

« جبت أَرْضهم طولا وعرضا ، فرجدها نظيفة طاهرة من جميع الأدران ، ووجدتهم قوما عقلاء قابلين للحضارة والمدنية ، ذوى شجاعة وجسارة ، صادقين في أقوالهم ، ثابتين فيها ، لا يتكلمون بالكذب أصلا ، ولا يحملون أيما ناكاذبة » .
وجاء وصفهم في دائرة المعارف البستانية هكذا :

« أن الجر كس طوال القامات ، عراض المنالك ، نحاف الجسوم ، صغار الأيدي والأرجل ، حداد النظر . لهم هيبة وبأس ، وسائمة وخيول ، وأسلحة مشهورة . وهم أعلى الناس همة ، وأشجعهم وأجملهم ... وهم بطون وعشائر . يزع بين كل منها وازع من الأمراء ... ويحتفظون بأنسابهم ويفخرون بها . وعزاهم بعضهم إلى سفك الدماء والوحشية .

وقال عنهم الحسن بن عبد الله العباسي في كتابه (آثار الأول) :

« إن الوفاء ، والخز ، والآلة ، في الجر كس » .

وذكرهم العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى بك فى دائرة المعارف ، بقوله :
« إن الجرکس جيل من الناس يسكنون حوالى جبال القوقاس . وهم
معدودون أكمل بنى آدم خلقة ، وأحسنهم وجوها ، وأشجعهم قلبا ، وأشدهم
للشدائد مقاومة » .

وهذا رأى طريف ذكره ابن خلدون عند وصفه للأمير أنس الغسانى
والد السلطان برقوق عند وصوله إلى مصر ، قال :

« أصل هذا الأمير برقوق من قبيلة جرکس المنوطین ببلاد الشمال فى
الجبال المحيطة بوط. القفجاق ، والروس واللان ، من شرقها ، المطلة على
بسانطهم . ويقال إنهم من غسان الداخلين إلى بلاد الروم مع أميرهم
جَبَلَة بن الأيهم » ...

« وخبر مسيره من أرض الشام وقصته مع عمر بن الخطاب ، متناقلة
معروفة بين المؤرخين » .

قال : « وأما هذا رأى فليس على ظاهره . وقبيلة جرکس من الترك
معروفة بين النسابين ، ونزولهم بتلك المواطن قبل دخول غسان » ...

قال : « وتحقيق هذا رأى ، أن غسان لما دخلوا مع جبلة إلى هرقل
(بالقسطنطينية) أقاموا عنده ، ويسموا من الرجوع إلى بلادهم . وهلك هرقل ،
واضطرب ملك الروم ، وانتشرت الفتنة هناك فى ممالكهم . واحتاجت
غسان إلى الحلف للدفاع فى العتق وحالفوا قبائل جرکس ، ونزلوا فى بسط
جبلهم من جانبه الشرقى مما إلى القسطنطينية ، وخالطوهم بالنسب والصهر ،
واندرجوا فيهم حتى تلاشت أحيائهم ، وأووا من البسائط إلى الجبال مع

جر كس . فلا يبعد مع هذا أن تكون أنسابهم تداخلت معهم من انتساب إلى غسان من جر كس . وهو (أى والد برقوق) مصدق في نسبه ، ويستأنس له بما ذكرناه ، فهو نسبة قوية في صحته . والله أعلم .

قلت : إذن في الدم الجر كسى عنصر عربى غسانى . ولعل النوع الأصغر الذى ذكره الإشاطى في كتابه ، ووصفه بأنه « يكون شجاعا كبير الهمة مقداما ، ووصفه العباسى « بالوفاء والحنو والآلفة » من ثمار هذا الزواج ، ومن مظاهر هذا النسب الغسانى الجر كسى ... ! خصوصا وأن المؤرخين يقدرّون من دخل من العرب الغسانية مع جيلة بن الأيهم إلى بلاد الروم ، بأربعين ألفا ... وهو عدد كبير جدير - إن صح - بأن يتوالد ويتناسل ويحالف ويناسب ويصاهر من يكافئه ، من الأجناس أن شاء ...

٣ - مؤسس دولة المماليك الجراكسة :

كان أول من أسس هذه الدولة ، وقام على رأسها ، فى ملك الديار المصرية : السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن أنس (أو آنص . على ما يقول بعض المؤرخين) فقد اقتعد غارب السلطنة المصرية فى أواخر سنة ٧٨٤ هـ ١٣٨٣ م بعد منازعات وخطوب . وبعد أن وطد قواعد ملكه ، وثبت دعائم سلطانه ، أجرى بعض التعديلات فى نظام الجيش المهرى ، فأبدل ملابس الجنود الحربية بغيرها من الصوف . وترسم طريق أستاده السلطان قلاوون فى العناية بمماليك الطباق وتخريجهم فيما أعدوا له من صفات الجندية ، ومؤهلات رجال الحرب .

المولد النبوى فى عهد الجراكسة

١ - عهد الظاهر برقوق :

فى ربيع الأول من سنة ٧٨٥ ١٣٨٣ م توجهت عناية الظاهر برقوق إلى إحياء ذكرى المولد النبوى الشريف ، وانصرفت همهته إلى أن يكون الاحتفال بها بالغاً حد الكمال . فأمر بإقامة معالم الحفاوة ، ومظاهر الزينة ، وإجراء الرسوم على خير ما كانت عليه مع الافتنان فى ذلك ، وإدخال السرور والابتهاج على الأمة . فنهض الناس فى هذا الشأن وزينت القاهرة بما يتفق وجلال هذه الذكرى السكرية . وقامت الدولة بالنفقات الواسعة ، والمخصصات البالغة ، وبذات من المبرات وضروب الخيرات ، ما عم الناس جميعاً ، وأطلق ألسنتهم بالدعاء للسلطان ، والثناء عليه ... كما تبارى فى ذلك أمراء الدولة ، وأعيان الملة ، وجرى وجوه الناس فى ترسم رغباته ، وإعطاء أنفسهم أمانها بما يتقربون به إلى الله تعالى ، من إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ، فى هذا المرمم العظيم . فبالغوا ، فى تحسين الزينات الباهرة ، وإقامة الولائم الفاخرة ، وتوزيع الأموال الجمة فى وجوه الخير وصنوف الصدقات .

وروى السخاوى عن شهد هذا الاحتفال قال : لقد حضرت ليلة مولد [النبي] فى سنة ٧٨٥ عند الظاهر برقوق رحمه الله ، بقلعة الجبل ، فرأيت ما هاتى : وحزرنى ما أنفق فى تلك الليلة على القراء الحاضرين وغيرهم ، نحو عشرة آلاف مثقال من الذهب العين . ما بين خلع ، ومطعوم ، ومشروب ، ومسحوق ، وغير ذلك [بحيث] لم يزل واحد منهم إلا بنحو

عشرين خلعة من السلطان والأمراء.

وقد استمر الاحتفال بالمولد النبوي في مواعيده المقررة ، وعلى هذه الرسوم الفخمة طوال عهد السلطان برقوق رحمه الله .

٢ — وفود ملك العراق على مصر

في خلال سنة ٧٩٥ هـ ١٣٩٣ م كانت المحنة الكبرى ، والجائحة العظمى والفتنة المييدة ، والطامة المبيرة . إذ تحرك تيمورلنك بمحاولة الجسارة ، وجيوشه الكرارة ، من التتار والمغول وأجناسهم ، نحو بلاد الشرق الأوسط ، فاستولوا على ممالك الفرس ، واكتسحوا أرض العراق . وأعادوا سيرة جنكيزخان وهولاكو وغازان ، من الجبايرة المتقدمين .

وكان على العراق ، في ذلك الإبان ، السلطان أحمد بن أويس . فجمع جموعه وصمد لتيمورلنك وفيالقه ، ودافعه مدافعة الأبطال ، ونازله بما استطاع من قوة ، وما ملك من حول وطول . ولكن أين يذهب أحمد بن أويس وجنوده من تيمور وسيوله ؟ أحم القضاء ، وعجزت جيوش العراق عن المقاومة وباد أكثرها ، وتمزق شملها ، وكانت الهزيمة ...

فلما رأى السلطان أحمد بن أويس ما حل بقواته المدافعة ، لم يربدا من الفرار ، ولم ير له ملجأ إلا مصر ، ولا مغيثاً إلا السلطان برقوق . فخبره في ذلك ، فأجاب مُرَّحِباً ، وأذن له في القدوم عليه ، والنزول في ساحته . ولما صار على مقربة من القاهرة خرج السلطان للقائه والحفاوة به ، وأمر القواد والأمراء وكبار رجال الدولة ، بالمشي في خدمته . وأنزله من القاهرة خير منزل ، وأكرمه غاية الإكرام . وأخبر السلطان برقوق أن تيمور بعد أن

استولى على بلاد الفرس والعراق ، أرسل قُصاده إلى السلطان لإبلاغه بما
يترتب على مخالفته . فبادر السلطان برقوق بإصدار الأمر إلى نائب السلطنة
في حلب والرحبة ، بأن لا يمكن هؤلاء القصاد من اجتياز الحدود ، وأن يقتلهم
إذا لم يعودوا أدراجهم .

وعندما علم تيمور ماحل بقصاده ، دفع بجيوشه نحو الشام ، فاجتاحت
الرها بالسيف ، وأمعنت فيها قتلا وسلبا ، وتدميراً ونهباً .

غير أن السلطان برقوق عندما تراءى إليه هذا الخبر ، كان قد أعدّ عدته
فخرج في جيوشه المظفرة إلى حلب . وكان بصحبته السلطان أحمد بن أويس .
فأوقع بجيوش تيمور وقعة هائلة ، ومازال يكر عليهم حتى فرق شملهم ،
ومزق جمعهم ، وهزمهم هزيمة شنعاء ، وردهم مفلولين عن البلاد ، ثم قصد
إلى دمشق وأقام بها فترة جهز فيها سلطان العراق بالرجال والعتاد ، وأمدّه
بالأموال ، كما أذن له باتخاذ شعار السلطنة المصرية . ومن الطبيعي أنه عقد
معه محالفة دفاعية هجومية .

وسار السلطان أحمد بن أويس في جحافل وإمداداته نحو العراق ،
وهناك التحم بجيوش تيمور المغيرة وأجرى معها عدة وقائع كانت في نهايتها
الهزيمة الساحقة ، واسترد بغداد وما والاها من الأعمال . ولما استقر به
المقام أظهر شعار السلطنة المصرية ، وخطب على منابر العراق باسم السلطان
برقوق ، والدعاء له ، كما ضرب السكة باسمه . وبهذا صار العراق تحت السيادة
المصرية الكريمة . وكان ذلك في سنة ٧٩٦ هـ ١٣٩٤ م .

٣ — شعار مصر ومراسمها في بغداد

ومن البديهي أن السلطان أحمد بن أويس حينما كان بمصر شاهد الاحتفالات الشائقة التي أقامتها الدولة والأمة لذكرى مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ورأى العناية الفائقة التي كان يوجهها السلطان برقوق إلى الاحتشاد لها ، ووقف على مقادير النفقات التي كانت تبذل في سبيلها على الفقراء والمعوزين وأهل الستر، من ذوى الخصاصة . وعرف ما كان يوزع من الصدقات ، ويقام من الولائم والمبرات ، مع الخلع والكسى على اختلاف صنوفها ، على القراء والوعاظ وأرباب الوظائف . كما لمس عن قرب معالم الزينات ، ومراسم التنسيقات ، التي كان يتبارى في الافتتان فيها أعيان الدولة ووجوه الأمة ، وكبار التجار . مما كان يأخذ بالألباب .

ولذلك لما استتب له الأمر في بلاده ، جرى على هذه السنة الحسنة ، وأحيا معالم هذه الذكرى ، بما وسعه من جهد . ولا شك أن الأمة العراقية قد شاركت في مشروعه المحبوب ، وبذلت فيه غاية المستطاع .

٤ — في عهد الناصر فرج بن برقوق :

تولى السلطان فرج بن برقوق عرش مصر بعد أبيه في سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٩ م غير أنه بدلا من أن يترسم سنن أبيه في العناية بممالك الطباقي ، ذهب في إهمال أمرهم كل مذهب . فكان بذلك سببا في نشر الجهل بينهم ، مع الزمن . حتى خرج الكثير منهم عن جادة الاستقامة ، وفسدت فيهم روح الجد والشهامة ، إلا من احتفظ منهم لنفسه بفضل العزة والكرامة . فكان عدم تثقيف تلك الكثرة منهم وسيلة إلى إحداث بعض الفتن ، ونشر القلاقل والاضطرابات .

أما عنايته بأمر الاحتفال بذكرى المولد النبوى ، فقد جرى فيه على شئ من سنن أبيه بقدر ما وسعته همته ، وإن كانت الأمة قد مضت فيه على جارى عادتها .

٣ - فى عهد الظاهر سيف الدين قمقق :

تولى السلطان قمقق عرش السلطنة المصرية فى سنة ٨٤٢ هـ ١٤٣٨ م فصرف همته إلى إحياء ذكرى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، وعنى به عناية بالغة حدود الروعة والجلال . فقد رسم بإقامة الزينات فى أحياء القاهرة ، وتبارى فى إبداعها رجال الدولة ، وأعيان الأمة ، ومياسير الناس . كما بذل فى سبيل البر بالفقراء والمعوزين ، وإقامة الولائم للصادرين والواردين - أموالا قيمة . وذلك بخلاف ما وزعه على القراء والوعاظ والمبشرين ، من الخلع والكساوى وصنوف الخيرات . حتى عمت صدقته من لا عهد له بها من أهل الحياء والستر .

قال السخاوى : وفى هذا الشهر [ربيع الأول سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م فى عهد السلطان قمقق] كان المولد السلطانى (يريد المولد النبوى) على العادة . ثم قال : ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده صلى الله عليه وسلم ، ويعملون الولائم لذلك ، ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ، ويظهرون السرور ، ويزيدون فى المبرات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته فضل عميم ... قال ابن الجوزى : ومما جرب من خواصه : أمان فى ذلك العام ، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام ... ١٩ وأكثروا بذلك عناية أهل مصر والشام ، وللسلطان فى تلك الليلة مقام

يقوم فيه أعظم مقام ...

ثم مضى السخاوى يقول : ولو لم يكن فى ذلك إلا إرغام الشيطان ،
وسرور أهل الإيمان من المسلمين [لكفى] وإذا كان أهل الصليب اتخذوا
مولد نبيهم عيداً أكبر ، فأهل الإسلام أولى بالتكريم وأجدر . فرحم
الله أمراً اتخذ ليلالى هذا الشهر المبارك وأيامه أعياداً ، لتكون أشد علة
على من فى قلبه أدنى مرض وأعيى دا ...

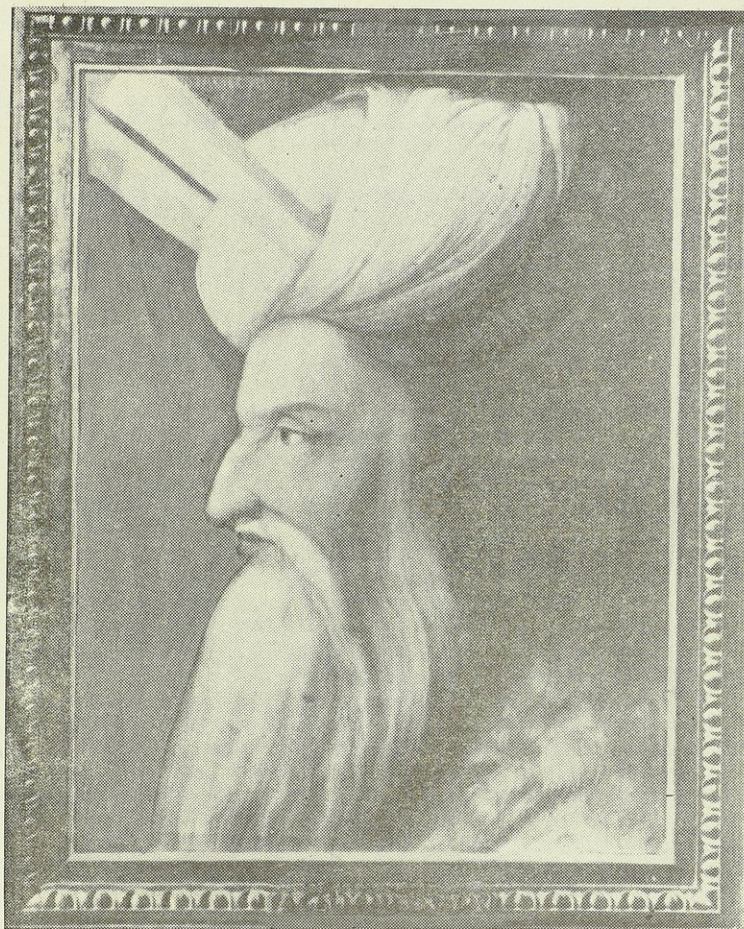
وقال العلامة على مبارك باشا فى خطه : إن الاحتفال بالمولد النبوى
الشرىف زاد فى عهد السلطان الظاهر أبى سعيد چقمق على ما كان عليه
فى عهد الظاهر برقوق . لاسيما فى النفقات والمبرات ، وتنويع الخيرات ،
وتوزيع الصدقات .

قلت : وعلى هذه الرسوم جرى الأمر فى الاحتفال بذكرى المولد
فى عهد من جاء بعده .

٤ — فى عهد الأشرف قايت باى :

أما السلطان الملك الأشرف قايت باى الذى تولى عرش السلطنة
المصرية فى سنة ٨٧٢ ١٤٦٨ م فقد كان فارس هذا الميدان ، ومجلى
هذه الحلبة على ملوك الزمان ، وحائز قصبات السبق دون غيره فى كل آن .
إذ تفوق فى ذلك على من تقدمه من سلاطين المماليك عامة ، وأربى على
من جاء بعده من ذوى السلطان فى مصر إلى يومنا هذا .

فقد صرف همهته العالية فى إحياء ذكرى المولد النبوى الشرىف بصورة



السلطان قايت باي

لم يسبقه إليها سابق ، ولم يلحقه فيها لاحق . إذ جدد رسوم هذه الذكرى على نسقها العالى ، وآفن في نشر أعلامها ، وبالنغ في تشييد معالمها . وأجرى فيها من المبرات ، وصنوف الخيرات ، وأنواع الصدقات ، ما امتاز به عن تقدمه . وفوق ذلك فقد زاد عليهم بأن رسم بصنع سرادق خاصا بالاحتفال بذكرى مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام . دفعه إليه شدة حبه وعظم تفانيه في إجلاله صلى الله عليه وسلم . وعهد بصنعه إلى مهرة الصنائع من المصريين ، فتهضوا في إجادته إلى ما وراء الغاية ، وبذلوا في إتقانه كل ما عرف عنهم من البراعة والإتقان ، وافتنوا في تحسينه وأناقته وإحكامه أى افتنان . حتى جاء آية من آيات الصناعة المصرية ، ومعجزة من معجزات الفن المصرى . فكان في صنعه والافتنان فيه ، بما لم يعهد له شئيل في الدنيا .

وصف السرادق الأشرفى

كان صنع هذا السرادق العديم النظير ، من القماش السميك المنسوج من القطن المصرى - وعلى ما هو معروف إلى اليوم في صناعة الخيام المحكمة الدسج - غير أنه كان من القطن الخام الجيد الخليج ، وقد أخلص صناع المهرة الذين تولوه في عملهم ، فلم تقف بهم همتهم عند حد إجادة نسجه ، وإحسان وضعه وصنعه ، بل افتنوا في تزيين داخله بشرائح الأطلس الملون بالألوان الزاهية ، وتحليته بالرسوم البديعة ، والأشكال الرائعة ، والنقوش المشرقة ، والحلى الفائقة . وكل ذلك في تناسب وتناسق ، يستوقف الأنظار ، ويأخذ بمجامع القلوب . ولا سيما إبداع أرباب الخطوط في كتابة الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والكلمات المأثورة ، والعبارات المشهورة ،

وإجراء ذلك كله على القواعد الهندسية ، والرسوم الملوكية ، والرئوس السلطانية .
وكان هذا السرادق ، متى أقيم على أساطينه ، يشبه في هيئته إيوانا فخا
هائلا ، ترامت أرجاؤه ، وتباعدت أنحواؤه ، وتناوحت أطرافه ، وتدانت
أكنافه ، وانبسطت كرنه . لأنه كان مع هذا مستدير الشكل . يضم في رحبته
الواسعة : أربعة إيوانات كبيرة ، تعلوه من وسطه قبة شاهقة ، نهضت على
أربع أساطين تمايزت عن سائر أعمدته بالفخامة والسمو . وقد انتشرت في
سما القبة كواكب المشكاوات المصنوعة من البلور الفاخر ، ذى الألوان
الزاهرة ، والأشكال الباهرة ، تلمعت منها ، في ليالى الاحتفال : الأنوار
المتلألئة ، بألوانها المتألقة ، وزخرفت بالتقاصيص العجيبة ، والفصوص الغريبة
بما قد يعز عمل مثله الآن ، مهما بذل فيه من بدرات الأموال .

وناهيك به من سرادق ، كان عند ما يراد إقامته في أيام المولد ، لا يستطيع
أن يستقل بتشيدته وترتيبه ، وتثبيت أساطينه ، وشد أطرافه ، وتركيب
أستاره : أقل من خمسمائة رجل من أشداء الرجال . كان يؤتى بهم من بحارة
الأسطول المصرى المختارين .

وكان ينصب في الحوش السلطانى من قلعة الجبل . وعندئذ ترى أمامك
مدينة جليلة . بها كل ما يسر النفوس ، ويشرح الصدور ، ويشعر بالهيبة
والجلال ، والعزة والجمال . وظهر لك غاية فى البهاء والروعة ، وآية فى
الفخامة والبهجة .

قال ابن إياس : إن الأشرف قايت باى أنفق على هذه الخيمة [أى هذا

السرادق] أكثر من ستة وثلاثين ألف دينار. ^(١) وكان من أهم شعائر الدولة المصرية وأجلها .

فإذا كان اليوم الأول من ربيع الأول نصب هذا السرادق بالحوش الكبير بالقلعة ، وفيه يقوم الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف طوال أيام المولد ولياليه الاثنتى عشر ، فى كل سنة . وكان يضاء فى الليالى بآلاف من الشموع الكبيرة المعروفة بالموكبية ، وغيرها من ذوات الأحجام والأطوال المختلفة ، يضاف إلى ذلك مئات من الثريات وأحمال القناديل وعلائق المشكاوات ، حتى يعود الليل فيه نهارا .

وصف الاحتفال بليلة المولد :

جرت العادة فى كثير من السنين أن يحتفل بليلة المولد النبوى الشريف ، ابتداء من اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، وأن يكون ذلك عاما فى سائر بلاد المملكة المصرية . فإذا كانت الليلة الختامية ، تضاعفت الجهود ، وعمت الزينات ، وقامت الولائم ، وانتشرت المآذب ، وسيرت المواكب ، وارتفعت فيها الأصوات بالأدعية والناشيد . ويتعاقب رجال الأسطول المصرى فى إقامة السرادق العظيم بحوش القلعة وإعداده إعدادا نفيا ، فتفرش فيه البسط الثمينة ، والسجاجيد الفاخرة ، وتصف الأرائك الوثيرة ، وتثر فى أنحاء المقاعد الجليلة ، عليها الطنافس المزركشة ، والنسارق المصفوفة ، والزرابى المبهوثة . وكل ذلك فى نظام محكم ، وترتيب غاية فى الإتقان .

(١) مما يعادل ما قيمته ٢٢ ألف جنيه مصرى تقريبا .

وبعد أن يبلغ شأوه من الأناقة والإحسان ، يحضر الخليفة العباسي المصري ، يحف به القضاة الأربعة ، ويتلوهم العلماء والفقهاء ورؤساء الأروقة ، ثم الأمراء والقواد وكبار رجال الجيش ، ثم عظماء الدولة ومديرو الإدارات في الحكومة ، ومتقدمو أرباب الوظائف . ثم أعيان الأمة ووجوه التجار ومياسير الناس . وقد امتطى أكثرهم الخيول المطهمة ، والبغال الموسومة ، والبراذين الفارحة ، والحمر المخدومة . ثم تتوالى المواكب في صدورهما مشايخ الطرق الصوفية تحيط بهم حملة الأشرار والأعلام ، وتقدمهم أصحاب الطبول والزمور . ويتلوهم الاتباع والمريدون ، رافعين أصواتهم بأدعيتهم الموروثة ، وأرادهم المنتهرة ، وأناشيدهم المأثورة .

ثم يحضر بعد ذلك كبار الضيوف ، ووجوه الواردين من الأقطار الإسلامية . وكذلك السفراء والقصاص الوافدين من الممالك المجاورة . ومن في حكمهم .

وتسير هذه الجوع الحاشدة ، في مواكبها الحافلة ، وأزيائها التقليدية ، والطبول تضرب ، والزمور تطرب ، حتى تصل في نظام وترتيب ، إلى ساحة الحوش السلطاني . فيستقبلهم على أبواب القلعة مندوبو الدولة ، ويتلقاهم عند أبواب السراشق رجال من حاشية السلطان بكل ترحيب وتكريم . وهناك يجلس كل فريق على حدة في المكان المعد له من أروقة السراشق ، كل على حسب طبقتة .

فإذا استقر بهذه الجوع المقام ، أخذ القراء في ترتيل آي الذكر الحكيم بأصوات جميلة ، ونغمات مشجبة ، ثم يقوم الوعاظ فيخطبون بين الملا الحاشد

ويذكرون الناس بما يجب لهم أو عليهم نحو الله ونحو أنفسهم ، ويحثونهم على ما أمر الله به من العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ويحذرونهم ما نهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغى . ويدعون إلى التعاطف والتراحم وإسداء المعروف ، والتعاون على البر والتقوى وأداء الأمانة ، ثم يخوفون بما أعد الله لذوى الإثم والعصوان . ولا يزالون يبدون ويعيدون حتى تخشع القلوب ، وتُسَدَّرَ العيون .

وبعد الانتهاء من ذلك وما يتبعه ، تمت الأسمطة الزاخرة ، بالأطعمة الفاخرة ، فيتناوب جميع من حضر ، من كبير وصغير ، وغنى وفقير ، ما حفلت به الموائد ، من الألوان والثرائد . فإذا ما انتهوا من الطعام وما يتبعه رفعت الموائد ، وطويت الأسمطة ، وعاد كل إنسان إلى مكانه ، فبأمر السلطان بتفرقة العطايا والهبات ، وتوزيع المنح والصلات . ثم تدار عليهم أنواع الأطباق والصواني الحاملة لصنوف الحلوى ، ولذيذ الأشرية .

وفي خلال ذلك يكون السلطان جالساً برواقه المختار من السرادق وحوله حاشيته الخاصة ، ومعه رجال الدولة ، فيدعى كل فريق على حدة للمشول بين يديه ، فيسلم إليه ما خصه من الخلع الثمينة المزركشة ، والكساوى الجيدة المصنوعة من شقق الحرير المحكم النسج ، البديع الألوان . فيناولها طبقات العلماء ، والفقهاء ، والوعاظ ، والقراء ، والمشدون ، وغيرهم من أرباب الوظائف ، ومشايخ الطرق الصوفية ، وأعيان الناس ، ووجوه الأمة ، كل على قدر منزلته . ثم توزع أموال الصدقات ، وما خصص منها فى الخيرات والمبرات ، فتعم الناس جميعاً ، وتخص أهل الستر منهم ، أولئك الذين يحسبهم

الجاهل أغنياء من التعفف . ثم تنثر الدراهم على الجماهير من الفقراء والمعوزين بسعة وسخاء . وهناك يرتفع الدعاء للسلطان بطول العمر ، ودوام العز والبقاء . وعلى الجملة يعم الخير والسرور في هذه الليلة المباركة . سائر الناس . وما تحسن الإشارة إليه في هذا المقام أن السلطان الملك الأشرف قايت باي ، حج إلى بيت الله الحرام في سنة ٨٨٤ هـ ١٤٧٩ م فأدى فريضته وأمر بإنشاء الآثار الصالحة في الأماكن المقدسة ، يرتفق بها الحجاج والمقيمون ، وينتفع بها طلبة العلم والمجاورون ، ووقف عليها الأعيان والعقارات بمصر مما يدر عليها الأموال الجسيمة التي تضمن لها العمار والبقاء ، ما أحسن القيام عليها . كما وزع في أهالي الحرمين الشريفين أموالاً جلييلة ، وخيرات جزيلة ، ومباراة شاملة . وما يلاحظ أن قايت باي هو السلطان الوحيد - من بين سلاطين الدولة العثمانية - الذي وفق إلى أداء فريضة الحج . أحسن الله مشوبته .

وفود الأمير جم العثماني على مصر :

كانت العلاقات الدولية بين مصر والدولة العثمانية ، قائمة على قاعدة حسن الجوار ، ومفعمة بالكثير من أسباب التفاهم وتبادل مظاهر المودة . وإن كانت بعض النزوات والمطامع تشور أحياناً في بعض الرؤس العثمانية ، فتحدث ما قد يكدر هذا الصفاء . ولكن بالرغم من ذلك ، فقد كان كثير من كبراء الترك العثمانيين وأعيانهم وتجارهم . يفدون على مصر ، ولا تكاد تنقطع السبل منهم . وكذلك كان الكثير من طبقات المصريين يرحلون إلى البلاد العثمانية ، لتبادل المصالح والمتاجر والمنافع بين السكان ، دون قيد أو شرط .

وعلى هذه القواعد وفد الأمير چم بن السلطان محمد الفاتح ، على مصر .
غير أن مجيئه إليها كان للاتجاه إلى كشف السلطان قايت باي .

وكان السبب في ذلك أن السلطان محمد الفاتح لما انتقل إلى رحمة الله تعالى في سنة ٨٨٦ هـ ١٤٨١ م كان قد خلف ولدين ، هما : بايزيد ، وچم .
وچم هذا يسميه ابن إياس (الجمجمة) بحجارة للعامة . والصحيح أن اسمه (چم) بالجميم الفارسية المشابة . ومعناه بهذه اللغة (القمر) .

وكان السلطان الفاتح قبل وفاته قد جعل (بايزيد) حاكماً في أماسيا .
وعين (چم) حاكماً على قرمان . فلما توفي لم يلبث أن قام بين الأخوين نزاع وتخاصم على الملك . وجرت بينهما خطوب وكروب ومعارك آلت إلى انهزام (چم) أمام جيش (بايزيد) هنالك فسكر (چم) في أمره فلم ير له ملجأ إلا مصر ، ولا أمناً إلا في جوار السلطان قايت باي ^(١) ...

(١) وخلاصة أمر (چم) هذا أنه لما توفي السلطان محمد الفاتح كان الوزير محمد باشا القرمانى يميل إلى چم لما يأنسه فيه من المزايا العالية ، فبادر بالإرسال إليه ليعجل بالحضور إلى القسطنطينية . غير أن الانكشارية حينما علموا ذلك ثاروا بالوزير وقتلوه ، ثم بايعوا بايزيد الذى حضر فى جيش من أماسية وقتل أخاه چم وانتصر عليه وهزمه فى صحراء بنى شهر . ففر چم ملتجئاً إلى مصر ... وفى خلال وجوده بمصر تجمع أنصاره وأعدوا عدتهم لمناصرته ، ودعوه إليهم . فمداد إلى القسطنطينية وأعد جيشاً تلاقى به مع أخيه ولكن الدائرة كانت عليه . ففر ملتجئاً إلى رودس وهناك تلقاه فرسان ماريوحنا بالترحاب . ولما علم بايزيد بذلك أرسل إليهم بأنهم إذا تعهدوا بأن لا يفر منهم أعطاهم فى كل سنة ٥٠٠٠٠ دوكا . فقبلوا ذلك وأرسلوا چم مخفوناً إلى فرنسا حيث اعتقل فى برج (بروجانوف) وبعد فترة نقلوه إلى روما . ثم إن البابا (اسكندر بورجيا) بعث إلى السلطان بايزيد يسأومه فى أمر چم ، وأنه يتعهد بقتله إن دفع إليه ٣٠٠٠٠٠ دوكا ، أو باعتقاله إن دفع إليه ٤٠٠٠٠ دوكا سنوياً . وفى أثناء هذه المخابرات كان =

وفد چم على مصر فتلقاه السلطان بما يليق بمثله من الحفاوة والتكريم وأنزله وحاشيته على الرحب والسعة . وظل بمصر سنة كاملة ، ضيفاً كريماً على السلطان ، محفواً بالعطف من المصريين ، ثم اعتزم العودة إلى بلاده ، فزوده السلطان بما هو في حاجة إليه من المال والخيول والسلاح والمؤن والذخائر . ثم ودّعه خير وداع .

ولجم هذا أخبار وحوادث ، وأنباء ووقائع ، وحكايات وأقاصيص ، عنى بها بعض الكتاب الأوربيين وأرسلوا عليها أشعة كشيعة من تخيلاتهم ، ومبالغات سخيفة من تمحلاتهم ، واختلقوا حوله روايات وأوهاما نظموها فيما كتبوه عنه . لأن المقادير ألقت به في بعض بلادهم .

وما لاريب فيه أن هذا الأمير چم قد حضر - وهو بمصر - الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وشاهد بعيني رأسه ، العناية البالغة التي كان يوجهها السلطان قايت باي نحو إبلاغه الغاية التي لا ترام . كما رأى أثر الهمة المشكورة التي يبذلها المصريون في إقامة الزينات في كل مكان من أحياء القاهرة ، وما يتبرعون به من الماء كل والمشارب والكسبى للفقراء وأهل الحاجة . فكان لهذا أثر عميق في نفسه ملأ قلبه روعة ، وفؤاده جلالاً ومهابة

= كارلوس الثامن ملك فرنسا يزحف على بلاد إيطاليا . فتمكن چم من الفرار من معتقل البابا . غير أن ملوك النصرانية رأوا أن يتخذوه ذريعة لإثارة الفتنة في المملكة العثمانية . فانفق فرسان رودس وملوك إيكوسية والمجر وبولونيا وفرنسا والمرديث من الأرنأوط وغيرهم على أن يعدوا لجم جيوشا يزحف بها على أخيه بايزيد ويتزع منه عرش السلطنة . فلما بلغ بايزيد هذه المؤامرة أرسل إلى البابا مبلغ الـ ٣٠٠٠٠٠ دوكا الذي كان اقترحه في نظير قتله ، فاحتمل البابا حتى دس السم لجم فمات في نابولي

في ٢٤ فبراير سنة ١٤٩٥

وكان مما وقع منه موقع الدهش والغرابة ، تلك الهبات السكرية التي كان يوزعها السلطان على طبقات الناس ، مما لاعهد له بمثله في ملك آل عثمان .

* * *

وجرى الحال بالاحتفال بالمولد على هذه الرسوم الفائقة ، وبهذه الحفاوة البالغة ، طوال عهد السلطان قايت باى الذى توفى سنة ١٤٦٠ هـ ١٥٠١ م . وفى عهد ولده الناصر محمد جرى الأمر على ذلك مع شئ من القصور والإهمال ، لأن أمراء الدولة لم ترقهم بعض تصرفاته فقاموا عليه بشورة وقابلهم عليها بالصمود ، فكان ذلك شغلهم الشاغل الذى صرفوا إليه جهودهم وما زالت المعارك ناشبة بين الطرفين مدة حكمه إلى أن قتل بأرض الطالبية التى بجوار الأهرام من أعمال الجيزة فى ١٦ من ربيع الأول سنة ١٤٩٨ هـ ١٥٠٤ م ولهذا تعطل الاحتفال بالمولد ، بالصورة الرسمية ، ولم يستطع أحد من رجال الدولة القيام ، فى هذه الفترة ، بشئ من رسومه المقررة .

٥ — فى عهد الظاهر قانصوه الأشرفى :

وفى ١٧ من ربيع الأول سنة ١٤٩٨ هـ ١٥٠٤ م تولى السلطنة المصرية ، السلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه الأشرفى ، بعد أن بايعه الأمراء وأهل الرأى . ولما تم له الأمر ، واستتب له الملك ، فكر فيما حدث من التقصير فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، مدة الثورة ، ورأى وجوب قيام معالمة على ما جرت به التقاليد ، ولكن آثار الفتنة والاضطراب التى تولى على أثرها ، كانت لا تزال ماثلة للعيان ، وفى حاجة ماسة إلى كثير من الانتباه ، والأخذ بالحزم ، لإعادة الأمن والسكينة إلى النفوس ، والهدوء

والطمأنينة إلى البلاد . فلم يتمكن من ذلك إلا بعد خطوب .

ولما صفا له الجو ، وعم النظام والأمن ، أخذ في إنفاذ فكرة الاحتفال بالمولد ، واستدراك ما فات من تعذرها . غير أنه لم يستطع التفرغ له وإجرائه على سبيله الصحيحة ، إلا في جمادى الأولى من تلك السنة . فأجراه على قواعده بكل ما استطاع من جهد ، وكانت هذه أول مرة ، بل لعلها المرة الوحيدة في التاريخ ، التي احتفل فيها بالمولد النبوى في غير مياعده . ولذلك عُد هذا من غرائب النوادر ، وفلتات الأحداث .

٦ - في عهد الأشرف قانصوه الغورى :

وفي سنة ٩٠٦ هـ ١٥٠١ م تولى عرش السلطنة المصرية السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى . صاحب القبة التي أكتب الآن تحتها هذا التاريخ .

ولما صفا له الوقت ، واطمأن إلى تصريف شؤون الملك ، كان فيما فكر فيه إعادة الرسوم التقليدية ، في الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، إلى سابق عهدها ، في زمن الأشرف قايت باى ، مع التبسط في النفقات ، والتوسع في المنح والمبرات .

وصف الاحتفال بالمولد :

كان السلطان الغورى طوال عهده ، عند حلول شهر ربيع الأول من كل سنة ، يأمر بإقامة السراشق الأشرفى العظيم ، بالحوش السلطانى الكبير ، من قلعة الجبل ، وإعداده بكل ما من شأنه أن يجعل الاحتفال بالمولد شائقا غنيا كريما .



السلطان الغوري

فيفام ويهياً بما جرت به الرسوم من الفخامة والأبهة والجلال .
فإذا كان اليوم الحادى عشر من شهر ربيع الأول ، اتُّخِذت في مداخل
أبواب السراشق أحواض من الجلد ، تملأ بالماء الصافى المحلى بالسكر
والليمون . ثم تعلق حولها الأكواب الفاخرة ، المصنوعة من الشَّبَه (النحاس
الأصفر) والنحاس الأحمر ، والمزينة بالنقوش الجميلة ، والمنزلة فيها الكلمات
القرآنية ، والعبارات النبوية ، بالفضة . وقد اتصلت هذه الأكواب بشوكات
ارتبطت بسلاسل من النحاس اللامع البراق ، وعلقت بعُراها التى تملك بها ،
ويصطف حول هذه الأحواض طائفة من غلمان الشراىخانة ، لمناولة الناس
من هذا الشراب السائغ ، لا فرق فى ذلك بين كبير وصغير . ثم تزىن جنبات
السراشق والأحواض بالأوانى الخزفية من النوع الصينى البديع الأشكال ،
الجميل الرسوم والألوان . وتصف الكاسات النحاسية المحلاة بالنقوش
الفضية فى أوضاع أنيقة تسترعى الأنظار . وبهذه الكاسات ، وهاتيك
الأكواب ، يتناول الصادر والوارد من الناس ، هذا الشراب السائغ اللذيذ .
وببالغ الغلمان الشراىدارية وعرفائهم فى إرضاء كل طالب ، وإرواء كل شارب
بعد أن يكون الغلمان قد قاموا بتزىين الشراىخانة حتى تصير بهجة للناظرين .
وعند حلول الوقت المعين للاحتفال - وكان ذلك بعد صلاة العصر -
يصعد الخليفة العباسى المصرى إلى القلعة فى ركبه العظيم ، يحف به القضاة
الأربعة ومن يليهم من رجال الشرع الشريف والشهود المعدلون . ثم يتلو
الأتابكى سودون العجمى فى كوكبة من الأمراء والقواد ومن يليهم من مقدمى
الجيش . ثم كبار العلماء والفقهائ والعواظ والقراء ، ومن يليهم من المقدمين

ثم أعيان الأمة ووجوه الناس ، ثم المباشررون وأرباب الوظائف وأصحاب الرتب . ثم مشايخ الطرق الصوفية وأتباعهم ومريدوهم ، في مواكبهم المرتجة بطبولهم وزمورهم وملشديهم . ثم طبقات الجند وصفوف العساكر ورجال الحفظ . وجميعهم يرفلون في الثياب الفاخرة حسب درجاتهم ومقدرتهم . أو كما يقولون : في الشاش والقماش . وعلى أحسن زى ، وأجمل حلية .

وبعد أن يكتمل اجتماع هذه المواكب الحاشدة بحوش القلعة ، يدخلون السرادق الأشرفي ، وينتشرون في أرجائه ، يأخذ كل فريق مكانه المعتدله من أروقته المنزمية الأطراف . ثم يبدأ القراء في تلاوة آي الذكر الحكيم بأصواتهم الجميلة ، وأنغامهم المشجية ، وترتيلهم المؤثر ، يليهم خطباء الوعظ والإرشاد ، فيلقون على الناس الأقوال المأثورة في الأوامر والنواهي الدينية ، ثم يقوم أرباب الطرق الصوفية بتلاوة أورادهم وأدعيتهم . وكل فريق يؤدي خدمته المخصص بها .

فإذا انتهوا جميعا من شؤونهم ، نصبت الموائد عليها الأطعمة الحافلة ، ومدت الأسنطة بمختلف الألوان الشهية ، وصنوف المآكل المتنوعة الجيدة الهنية ، ودارت عليهم الطاسات الفاخرة بالأشربة اللذيذة المرية ، فإذا قضاوا من هذه المآدب الجميلة أربهم ، وتناولوا منها مالذ وطاب لهم . عاد كل إنسان إلى مكانه ، وتجمع كل فريق في إيوانه . وهناك تنهل عليهم الإنعامات السلطانية ، وتشملهم المنع والهبات المملوكية ، وتوزع فيهم الخلع والشقق الحريرية ، ويختص منهم بذلك من جرى الرسم باختصاصه .

قال ابن إياس : وكان ينفق في ذلك اليوم من الإنعامات ، وجواري

الصدقات ما يقدر بما يفوق الأربعة آلاف دينار .

وفود الأمير كركود العثماني على مصر

كان للسلطان بايزيد بن محمد الفاتح ، أحد سلاطين آل العثمان ، في أواخر أيامه ثلاثة من الأولاد . هم : كركود ، وأحمد ، وسليم . وكان لكل واحد من هؤلاء الإخوة اتجاه خاص في الحياة .

أما كركود ، فكان ميالا بفطرته إلى الأخذ من العلوم والآداب ، بأطراف حسنة ، وإلى التشقق بأنواع من الفنون اللطيفة . ولذلك كان من أحب الأشياء إلى نفسه مجالسة العلماء ، ومسامرة الأدباء ، ومحاضرة أصحاب الفنون . وكان من هذه الناحية غير مرضى عنه من رجال الجيش . والمعروف من طبيعة العسكريين بصفة عامة ، النفور من العلم ، مع التظاهر بمجالسة العلماء والخضوع لهم - لا سيما أن كركود لم يكن على مشربهم من الميل المطلق إلى الحرب وشؤونها ، وخوض معامعها ، ومباشرة القتال في ميادينها . وأما أحمد ، فقد عرف بين رجال الدولة بلطف المعاشرة ، وكرم الأخلاق ، وحسن الحديث . ولذلك كان قريبا من نفوس الأمراء ، محببا إلى عظماء السلطنة وذوى الرأي فيها . وكان الصدر الأعظم على باشا يبدي له كثيرا من مظاهر الإخلاص ودلائل العطف

وأما سليم ، فقد كان على ثقافة راقية ومعارف جليلة ، وكان كأخويه يعرف اللغات التركية والفارسية والعربية ، ويحيد الكتابة والشعر بها جميعها ، إلا أنه كان مع هذا محبا للأمر والنهي ، ميالا إلى الطعن والضرب ،

مشغولاً بمباشرة الحروب ، وإشغال نيران الوقائع . معجبا برؤية الدماء .
ولهذا كان أثيراً لدى الانكشارية ، قريباً من قلوب رجال الجندية ...

فلما رأى والدهم السلطان بايزيد ما هم عليه من التباين في الأخلاق
والمشارب ، والتباعد في الانجذابات والمآرب ، خشى وقوع التنافر بينهم
بعد وفاته ، وما قد يترتب على ذلك من تمزيق الشمل ، وتفريق الجمع ،
ووقوع الفتنة التي قد تؤثر في كيان الدولة ، وتضر مصالح السلطنة - فرسم
بأن يتولى كل واحد منهم شؤون الحكم في إحدى الولايات ، على أن تكون
كل من هذه الولايات متباعدة عن أختها . فعين كركود حاكماً على إحدى
الولايات النائية . وعين أحمد حاكماً على ولاية أماسيا . وعين سليمان حاكماً
على ولاية طرابزون . كما ولي سليمان بن سليم على بعض بلاد القرم .
وقد رضى كل من كركود وأحمد بما اختاره لهما والدهما .

أما سليم فقد أبى الإذعان لما قرره والده ، ولم يرضه هذا التقسيم ،
وئثرت في نفسه نزوة التمرد والعصيان ، فترك ولايته وذهب مغاضباً إلى
ولده سليمان بالقرم ، وأرسل إلى والده يطلب إسناد الحكم إليه في إحدى
الولايات الأوربية . غير أن السلطان بايزيد أمره بالبقاء حيث عينه . فلم
يرض سليم بذلك بل أعلن التمرد على والده ، وجاهره بالعصيان . ثم لم يلبث
أن جمع جيشاً من تتار بلاد الروملى . وبعد أن استكمل عدته ، ونظم ألويته
قاد جيشه وسار لمحاربة والده إن لم يذعن لمشيئته ... فاضطر السلطان إلى
تجريد إحدى الفرق العسكرية إليه إرهاباً له . غير أن سليمان لم يرهبه ذلك ،
بل أصر على إنفاذ رغبته ، ... فعاودت السلطان بواغث الإشفاق من

أنساع الفتنة ، وإسالة الدماء ، وإزهاق الأرواح ، فيما قد يضر الدولة ولا ينفعها ... فبعث إليه مكرها ، برسود يتولى بموجبه إحدى الولايات بالشواطئ الأوربي ... عندئذ تحرك شيطان الطمع في نفس سليم ، ولم يكفه ماتم له من الظفر ، بل دفعه شيطان الغرور إلى أن يقوم على رأس جيش استولى به على «أدرنة» معلناً نفسه سلطاناً عليها ... ١

فلما بلغ كركود ماوصل إليه أخوه سليم من النجاح في مقاومته إرادة والده ، أعد عدته للسير على منهاج أخيه ، وقاد جيشاً استولى به على «صاروخان» وصار بذلك قريباً من عاصمة الدولة ، استعداداً للطوارئ .

ولا شك أن هذه الأحداث قد وقعت من السلطان بايزيد موقع الصاعقة وحلت من نفسه محل الاستياء الفاتر . لحفظاً لكيان الدولة ، وعملاً على صيانة سمعة السلطنة ، لم ير بُدأً من تجريد الجيوش وإرسالها إلى سليم ، وإلى كركود ... فالتقت هذه الجيوش بعساكرهما ، كل في مكانه ، وهزمتما ، وفرقت شملهما ... أما سليم ففر إلى بلاد القرم . وأما كركود فالتقى بيده مستسلماً ...

ولما كان أمراء الإنكشارية وزعمائهم مؤيدين لحركة سليم ، ومعجبين بصفاته الحربية ، اجتمع قاداتهم وتشاوروا فيما بينهم ، في الذهاب إلى السلطان بايزيد لالتماس العفو عن سليم ، وشموله بالعطف عليه ، وإعادةه إلى ولايته الأوربية . فقدّر السلطان أن من المصلحة لإجابتهم إلى ملتئمهم ... ولكن عندما ذهب سليم إلى ولايته ، استقبله الإنكشارية بمظاهرة صاخبة ، وساروا به في موكب ضخم إلى القسطنطينية ، وإلى سراي السلطان بايزيد ، حيث طلبوا

إليه التنازل عن العرش لولده سليم .. اوفى هذه الحالة رأى بإيزيد أن الفتنة قد شب قرنهما ، وأنها توشك أن تزلزل من قواعد الملك . فحرص على أن تمر عاصفتها بسلام ، وأعلن تنازله عن عرش السلطنة ، حسما لمادة الفساد ، وحقنا لما قد يسيل من الدماء ... وكان ذلك في صفر سنة ٩١٨ هـ ١٥١٢ م أما كركود ، فبعد انهزام جيشه ، واستسلامه لأبيه ، صار يتنقل بحاشيته من بلد إلى بلد ، ومن ولاية إلى أخرى ، حتى رمت به المقادير إلى مصر . فحضر إليها ملتجئاً إلى السلطان الغورى .

وقد ذكر ابن إياس أن مجيئه كان في سنة ٩١٥ هـ ١٥٠٩ م . وذكر محمد مختار باشا المصرى أن مجيئه كان في سنة ٩١٨ هـ ١٥١٢ م . والظاهر أن رواية ابن إياس أولى بالاعتبار لأنها مبنية على المشاهدة . ولعل رواية مختار باشا بنيت على تقدير أنه لم ينجئ إلى مصر إلا بعد تنازل أبيه عن العرش ...

وكان ابن إياس بسميه (قُرُود) والصواب كما هو عند العارفين (كركود) . ولما وفد كركود على مصر استقبله السلطان الغورى استقبالا كريما ، واحتفى به وبحاشيته احتفاء بالغا ، حتى إنه أجلسه في قاعة العرش فوق مرتبة الأمير الكبير ، وفوق منزلة قاضى الشافعية ، الذى كان له التقدم على سائر القضاة . وعنى بشأنه عناية فائقة . وأمر بأن تعد له ولحاشيته (قاعات البرابجية) في بولاق . ورسم لناظر الخاص بأن يحضر إليه ما يحتاجه من فرش وأوان وصينى وأدوات فاخرة ، تصلح لإقامة مثله وراحته مع حاشيته . ثم أرسل إليه عشرين فرسا لركوبه وأتباعه . منها أربع جنائب بالسروج الذهب ، والكنابيش الزركش ، والغواشى الحرير الأصفر . ثم أمر السلطان بإقامة

مأدبة حافلة في (دار البرانجية) وأن يتوجه إليه الأتابكي قرقاس والأمراء
المقدمون ، لتحيتته والسلام عليه والترحيب به ، وكذلك القضاة الأربعة ،
وأعيان المباشرين ، من أرباب الوظائف فكان كركود يقوم لكل من يتقدم
إليه بالسلام ...

ثم رسم السلطان لنقيب الجيش بالاستعداد لحضوره والأمراء جميعا ،
الموكب الذي سيحف بالأمير العثماني عند طلوعه إلى الحوش السلطاني
بالقلعة ، وأن يكونوا - كما يقول ابن إياس - بالشاش والقماش . يعنى
بالملايس الرسمية ، حسب ترتيب درجاتهم .

كما رسم بأن تنصب السحابة الزركش على الدكة - وهى غير السرادق
الأشرفى - وأن تفرش الدكة بالطنافس الفاخرة ، وتُغشى بالأطلس الأصفر ،
وأن تزين القلعة - عند باب الزردخانة - بالسناجق السلطانية ، وبآلات الحرب
من سائر أنواع الأسلحة ، وأن تصف المكاحل الكبار على بابها . وأمر
بأن المهمندار ورؤس الثوب ، يتوجها إلى الأمير كركود ابن عثمان بالشاش
والقماش ، يعنى بأزيائهم الرسمية . ويصحبوه فى طلوعه إلى القلعة ...

وعند ماذهب إليه رسل السلطان فى موكبهم الباهر ، أركبوه من
دار الضيافة بيولاك ، فرسا مطهما بسرج من الذهب وكنبوش فاخر .
وقادوا أمامه الجنائب السلطانية وسار الموكب به إلى طريق المقس ، ثم
على سوق مرجوش . ومن هناك شقوا به القاهرة نحو القلعة .

قال ابن إياس ، فكان له يوم مشهود ، وخرج الناس أفواجا لرؤيته ،
واستمر فى ذلك الموكب الفخم حتى وصل إلى القلعة . فطلع وهو راكب

إلى باب الحوش السلطاني ، ثم نزل على مصطبة باب الدهيشة ، ففرشوا له هناك مقعدا من الحرير ، استراح عليه قليلا ، ثم دخل الحوش . فلما بلغ أوائل البساط ، نهض السلطان ونزل عن الدكة واستقبله واقفا ، وتعانقا ... وقيل إن ابن عثمان باس يد السلطان ووضعها على عيبيه ... ثم تحدثا وقوفا ساعة . ثم خلع السلطان عليه . فلما خرج ركب من مصطبة شاة الزردخانة . قال : وكانت صفة (قُرقد) بيك ابن عثمان ، رجلا شابا في عشر الأربعين ، معتدل القامة ، عربي الوجه ، يميل إلى الصفرة ، نحيف الجسد ، أسود اللحية ، جميل الهيئة . وعلى رأسه عمامة تركماني ، وهي صغيرة دون عمامم جماعته - وقيل إنه أكبر أولاد بايزيد ابن عثمان - ولما طلع إلى القلعة كان عليه (دُلّاما) حرير أصفر ، وفوقها (جُنْدَة) صوف أخضر مفتوحة ... فخلع عليه السلطان خلعة جرد ذهب شغل القاعة ، تلعب كالبرق ... فنزع ما عليه ، وألبس الخلعة السلطانية ... وبالع السلطان في إكرامه جدا ...

ثم قال : ورسم السلطان للأمراء بأن ينزلوا صحبة (قُرقد) بيك . فنزلوا معه إلى الصليبية ... خلف عليهم بالرجوع إلى دورهم ... فصحبته رؤس الثوب بالشاش والقماش ، إلى بولاق ، على الجزيرة الوسطى ، حتى وصلوا به إلى (البرابجية) دار الضيافة . ثم انفض الموكب . وهناك مدت له مدة حافلة ...

قال : وفي أثناء ذلك بعث إليه السلطان بتقدمة حافلة ... قيل إنه بعث إليه بعشرين ألف دينار : عشرة ذهب ، وعشرة فضة . وعدة بقج فيها

قماش مفتخر ، ما بين سكندري ، ومنزلاوى ، وغير ذلك .. وفيما بعد ، قدم ابن عثمان للسلطان هدية جيدة ، ما يحضر فى قدرها ... ثم قال :

وفى يوم الثلاثاء ، ثامن ربيع الأول سنة ٩١٥ ، دعا السلطان (قرقند) بيك إلى الميدان ، ولعب السلطان والأمراء أمامه بالكرة . ثم مدت له أسمطة حافلة ببُحرة الميدان ، ولم يحضر ذلك سوى ابن عثمان وجماعته ... ولما أراد الانصراف ، خلع عليه السلطان كاهلية بتماسيح على الأحمر ، وأركبه فرسا بسرجه ذهب وكنبوش ... واستمر بعد ذلك يدعى إلى ميدان الكرة ،

ومما لا يحتمل الشك أن الأمير كركود قد حضر الاحتفال بالذكرى المولد النبوى الشريف فى هذا الشهر ، وشاهد هو وحاشيته ما تجلى من عناية السلطان الغورى بالمولد ، ومن سعة كرمه فى النفقات ، وبالغ الإنعامات وشمول المنح والمبرات ، وإسداء الإحسان والخيرات ، مما كان له وقع عظيم الأثر فى نفوسهم . كما راعهم ما أبصروا من ضخامة الاحتفال بهذه الذكرى المباركة ، وما يوزع فى أيامها ولياليها من صنوف الصدقات على الفقراء والمعوزين ، مما لا عهد لهم بمثله فى بلادهم .

وفى شوال من هذه السنة أجرى السلطان للأمير كركود راتباً شهرياً قدره ألفا دينار ، تصرف إليه مادام فى مصر ...

وظل هو وحاشيته موضع الحفاوة والتكريم ، إلى أوائل ربيع الثانى من سنة ٩١٦ ، حيث طلع إلى القلعة مستأذناً فى العودة إلى بلاده . فتحقق به السلطان وخلع عليه خلعة سلية ، منسوجة بخيوط من الذهب ، شغل القاعة . وسمح له بالإذن . فنزل من القاعة فى موكب هائل ، وفى صحبته

الأتابكي قرقاس والأمراء المقدمون ، وجماعة من الرؤساء أصحاب النُوب ،
وساروا معه إلى بولاق . وهناك قدموا إليه الحراقة العظيمة التي يمتطيها السلطان
عند الاحتفال بكسر الخليج . كما جهزوا له عدة سفن عليها المؤن والعلوفات
والآواني اللازمة للإقامات . ورسم السلطان للبهمندار والخازن وبعض
غلمان الخاص ، بأن يظلوا في خدمته حتى يصل في النيل إلى رشيد ... ومن
هناك سافر الأمير إلى بلاده .

٤ — احتفال السلطان الغوري بالمولد

في ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ ١٥١١ م رسم السلطان الغوري بإقامة معالم
الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف ، على الرسوم المعتادة ، والتقاليد
المقررة . وكانت ليلته الختامية مساء الجمعة . وحضره الخليفة العباسي المصري ،
والقضاة الأربعة ، والأمراء ، ورجال الدولة ، وأعيان الأمة ، ووجوه الناس ،
ومشايع الطرق الصوفية وأتباعهم ، بأعلامهم وطبولهم وزمورهم ، في
مواكبهم وإشارتهم المعهودة .

قال ابن إياس : وكان حافلاً ... وهكذا كانت العادة في كل سنة .
وقال : فلما كانت سنة ٩٢١ هـ ١٥١٥ م أمر السلطان بعمل المولد ، ونصب
الخيمة الكبيرة (السرايق الأشرفي) وكان بمصر إذ ذاك الشريف بركات
أمير مكة . فحضر الاحتفال بالمولد مع القضاة الأربعة . وقيل إن السلطان
أجلسه فوق مرتبة الأتابكي سودون العجمي . واجتمع سائر الأمراء المقدمين
وأرباب الوظائف ، ومشايخ العلم . وكان يوماً مشهوداً .
هذا ما ذكره ابن إياس ...

وأما الأستاذ محمد لبیب البتونی بك فقد ذكر فی كتابه (الرحلة الحجازية) أن السلطان الغوری أرسل فی سنة ٩١٨ إلى الشریف بركات يدعوہ إلى مصر ، فاعتذر ، وأرسل بالنبیابة عنه [ولده] الشریف أبانمی ، وعمره ثمان سنین . فأكرمه السلطان كل الإكرام ، وردہ إلى أبيه معزاً ، وأشركه معه فی أمر مكة والأقطار الحجازية ...

أقول : وقد يكون هذا صواباً إذا لم يكن الشریف بركات قد حضر فی السنة التي ذكرها ابن إیاس ، أما أن يحضر الولد فی سنة ٩١٨ ويحضر أبوه فی سنة ٩٢١ فلا تعارض ، خصوصاً وابن إیاس یقرر ما شاهده وعرفه ووقف علیه . علی أن البتونی بك لم يذكر حضوره فی هذه السنة

قال ابن إیاس : وفي ربيع الأول سنة ٩٢٢ م عمل السلطان المولد الشریف النبوی ، علی العادة . ونصب الخيمة العظيمة التي صنعها الأشرف قايت باي ، بالحوش . ونصب الشرابدارية فی الحوش [أمام السرايق] أحواضاً من الجلد ممتلئة بالماء الحلو ، وعلقوا شوكلات بالسكيزان الفاخرة ، وزينوا بالآواني الصينية والطاسات النحاس ، وتوسعوا فی زينة الشرابخانة أكثر من كل سنة ...

ثم جلس السلطان فی الخيمة ، وحضر الأنابكي سودون العجمي ، وسائر الأمراء من المقدمین وغيرهم ، ثم حضر قراء البلد قاطبة ، والوعاظ ، علی العادة . ثم مد السلطان السباط الحافل ، وتوسع فی أمره . وكان ذلك اليوم مشهوداً ، وأبهج مما تقدمه من الموالد الماضية .

قلت : وما یوجب الأسف أن السلطان الغوری انتقل فی هذه السنة

إلى جوار ربه ، ممزقا تحت أرجل الخيل العثمانية ، في موقعة مرج دابق بحلب .
فعليه من الله الرحمة والرضوان .

إغارة السلطان سليم العثماني على مصر

١ - في سنة ٩٢٢ ١٥١٦ هـ م ترمى إلى السلطان الغورى أن الأسطول البرتغالى أغار على بعض الثغور الهندية ، وأن الجنود البرتغالية احتلت بعض مدنها الساحلية ، وأعملوا فيها النهب والسلب والتخريب . كما وردت عليه رسل بعض ملوك الهند تستصرخه وتطالب إليه النجدة . فبادر بالامر بإعداد أسطول شقنه بالرجال ، وأرسله بقيادة الأمير حسين أغا الكردى ، مزودا بالمسال والمؤن والسلاح والعتاد ، إلى بلاد الهند ، لإقامة سوق الجهاد ، ورد الأعداء عن بلاد الإسلام . سافر الأسطول بمعداته الحربية لإنقاذ المسلمين من عادية أولئك المغيرين ..

٢ - وبينما الأمة المصرية فى انتظار الأخبار السارة عن أسطولها المنتقد ، إذا بالأيام تتمخض عن كارثة من أشد كوارث الدهر فى التاريخ المصرى ، وجائحة من أفدح جوائح الزمان ، وأى كارثة أحد من فقدان الأمة المصرية استقلالها الذى تمتعت به أدهارا متطاولة ؟ وأى جائحة أشد من ضياع السلطنة المصرية ، وإحالتها ولاية تابعة ، بعد أن كانت آمرة ناهية فى كثير من الممالك والولايات والأقاليم ... !

فقد تواترت الأنباء على السلطان الغورى بأن الجيوش العثمانية ، وعلى رأسها السلطان سليم بن بايزيد ، قد اجتازت حدود السلطنة المصرية ،

محتاجة أملاكها الواسعة بآسيا الصغرى ، وولاياتها بالشرق العربى ... !
فإن بلغت هذه الأخبار المسكدة مسامع السلطان حتى أصدر أوامره
إلى أمراء الجيوش المصرية بالاستعداد والتأهب لملاقات الجيوش العثمانية ،
وردها عن البلاد . كما أصدر أوامره إلى ولاية الثغور وحراس الحدود
بإعداد القوة الكافية لوقف زحفها ، ودفع غاديتها ، بقدر المستطاع حتى
تصل إليها الجيوش .

على أن علاقة الدولة المصرية ، بالدولة العثمانية ، كانت - كما أشرت إليه
من قبل - قائمة منذ أمد بعيد ، على المساواة ، والمواذعة ، وحسن الجوار ،
وتبادل العواطف . ولم يحدث بينهما ما يكدر الصفو ، أو يدعو إلى الجفاء
أو الحرب .

ألهم إلا تلك المرة التى حدث فيها أن احتكت المراقبة العثمانية بالمراقبة
المصرية ، فى بعض الثغور من آسيا الصغرى ، وقام الجنود المرابطون من المصريين
هناك ، برد عدوان المعتدين من العثمانيين . مما دعا إلى تحرك السلطان بإيزيد
لذلك وإرساله جيشا لإخلاء أذنه (أطنة) وطرسوس ، من الجنود المصرية التى
أحتلتها ، وتدارك السلطان قايت باى ، الأمر ، ورأى - حسما للشر الذى كان
يوشك أن لا يعرف مداه ، وحرصا منه على دماء المسلمين من أن تراق
فى غير سبيل الله - التخلّى عن هذين الثغرين ، والسلامة مما يجر الدفاع عنهما
من سوء العواقب .

٣ - ولعل الأسباب التى حملت السلطان سليم على غزو مصر والاستيلاء
عليها ، تملخص - على ما أرى - فيما يأتى :

كان السلطان سليم جامع المطامع ، كثير الأوام إلى سفك الدماء ، لا يعرف في ذلك عهدا ، ولا يرعى حرمة ، ولا يحفظ جوارا . وقد دفعته طبيعته الملتهبة إلى غزو مملكة الفرس ، والانتقام من الشاه إسماعيل الصفوى ، لأنه آوى إليه المشردين في أبناء أخويه كركود وأحمد وأولادهم ، والبقايا من أعقابهم ، بعد أن قتلها وأباد ماوصلت إليه يده من ذرائعها ... ولمسارآه فوق ذلك من اهتمام الشاه بالتوسع في رقعة الدولة الفارسية ، وامتدادها متجهة نحو الرقي والنمو . لاسيما بعد أن استولى الشاه على ولاية «شروان» واتخاذ «تبريز» قاعدة للملكة ، كما وضع يده على العراق العربى ، وبلاد خراسان ، وديار بكر ، واحتلت جنوده بغداد ، وضم إلى أملاكه مملكة فارس ، و«أذربيجان» وصار سلطانه ممتدا من الخليج الفارسى حتى بحر الخزر ، ومن منابع الفرات حتى نهر «أموداريا» جيحون ...

وكان السلطان الغورى قد راسل الشاه إسماعيل محذرا إياه من طغيان السلطان سليم ، وأنه غير مأمون الجانب . وعرض عليه عقد تحالف بين السلطنة المصرية والمملكة الفارسية ، يقوم على قواعد الدفاع المشترك . وقد تم عقد هذا التحالف . وكان من أثره أن بادر السلطان سليم بمهاجمة مملكة الشاه ، كما أضمر الشر لسلطنة الغورى ...

٤ - وقبل أن يهاجم السلطان سليم بلاد الشاه ، لجأ إلى فكرة ، بل أمر بارتكاب جريمة تعد من أفظع الجرائم الإنسانية . وذلك أنه أصدر مرسوما سريا بحصر عدد الشيعة المنتشرين في أنحاء الولايات العثمانية - لاسيما أولئك الذين كانوا يسكنون البلاد المتاخمة لأرض الفرس - فلما

نفذ أمر الإحصاء، أمر بقتلهم جميعاً ... أوقد كانوا - فيما يروى - قرابة أربعين ألفاً ... فيا لهول ما صنع ... !

ولا شك في أن هذا الفعل الشنيع لا يصدر إلا عن طبيعة تجاوزت حدود الوحشية، وبرئت منها الفطرة الإنسانية، ولا يمر التفكير في مثلها بخاطر فيه أثارة من الإيمان بالله تعالى، سواء انتحل الإسلام، أم انتحل أى دين آخر من الأديان السماوية . ولا يصدر إلا عن مسخ أعرت أصوله في أجناد البربرية ...

هـ - وما مرت هذه الحادثة الشنعاء بخاطرى، إلا ذكرت بها حادثة أخرى تشبهها، من كل الوجوه .

وذلك أنه في أغسطس سنة ١٥٧٢ م ١٥٨٠ هـ حرضت الأميرة كثرين دى مدسيس ولدها شارل التاسع ملك فرنسا على البروتستانت، وأغرته بالعمل على إبادتهم من الممساكة . فأذن لإرادتها، وحرض عليهم الكاثوليك فذبحهم عن آخرهم ... ويروى أن عددهم كان نحواً من ستين ألفاً . وفيهم كثير من النبلاء والعلماء والقواد والأدباء والشعراء ...

ومن البديهي أن من يقدم على ارتكاب أمثال هذه الفظائع لا يصح أن يحسب في عداد بنى الإنسان، أو يدعى أنه ينسب إلى دين من الأديان ... وفي التواريخ القديمة والحديثة وقائع من هذا النوع، تقشع لذكرها الأبدان أضربنا عن الإشارة إليها؛ لاسيما ما كان منها خاصا بدول الاستعمار وما تتخذ من الوسائل الجاحمة في استعباد الشعوب المغلوبة على أمرها في هذا العصر، مما يسود له جبين الإنسانية . ويلوث صحائف الحضارة

والمدينة التي تدعها الدول الأوربية .^(١)

٧ — وقد ذكر بعض المؤرخين أن الشاه إسماعيل الصفوى قابل فعلة السلطان سليم بالشيعة في بلاده ، بمثلها أو بما يقرب منها بأهل السنة في أرضه . إذ أمر بقتل طائفة من شيوخ السنة وإحراق كتبهم ، وهدم قبور موتاهم ... وكل هذا طغيان وخروج عن جواد الحق والعدل والرحمة ... والبادئ أظلم ...

٨ — بهذه الفظائع وأمثالها بدأ السلطان سليم في اجتياح بلاد الفرس ، فقاد جيوشه إليها رهاجها وأخذ يعمل فيها بد التقتيل والتدمير والتخريب ، ما شئت له طبيعته الجاحمة . وبعد أن أبلى الشاه إسماعيل في الدفاع عن بلاده البلاء العظيم ، فرمنهزما ، واستولى سليم على أمواله وذخائره وخزائنه ونفائسه ، كما وقعت في يده إحدى زوجاته ولم يقبل ردها إليه ، بل زوجها من أحد كتابه . وقبض على كثير من مهرة الصناع وأرسلهم إلى بلاده ، ليحرم الدولة الفارسية من عوامل الحضارة ، ووسائل التقدم والارتقاء .

وكان الشاه عندما هاجمت الجيوش العثمانية بلاده ، أمر بإحراق مخازن المؤن والأقوات ، وأنبار الحبوب . ولذلك لم يلبث الجيش العثماني أن وقع في مجاعة اضطر معها السلطان سليم إلى الارتداد ، وإخلاء البلاد ، والعودة إلى ملكه ، للاستراحة والاستعداد لمعاودة الكرة في الربيع ...

وفي خلال ذلك ترمى إليه أن المؤن والذخيرة والأقوات التي كان أعدها للحاق بجيشه ، أثناء مهاجمته البلاد الفارسية ، قد مُنعت عن السير في

(١) وهنا أذكر قول الدكتور غوستاف لوبون : إن الحضارة الأوربية ، وإن كانت أقل قسوة من الغارات الحربية ، إلا أنها أشد فتكا وأمعن تدميرا . وأقول : لاسيما في النفوس والأخلاق ، واستنزاف الأرزاق ، وهذا أخطر ما تصاب به الإنسانية .

طريقها ، وأن ذلك المنع كان بتدبير من السلطان الغورى . فقامت قيامته وأمر بإعداد الجيوش لمهاجمة مصر والانتقام من الغورى . لاسيما وقد علم أن فيلقا من الجيش المصرى ذهب فى أسطول لنجدة بعض ملوك الهند الذين استغاثوا بالسلطان لرد غارة البرتغاليين عن ثغورهم وهذه فرصة ... !

ولكى يمهّد السلطان سليم لهذه الغزوة ، أرسل بعض رجاله إلى ولاية الدولة المصرية لاستطلاع الأخبار ، ومحاولة إرشاء من يقبل منهم الرشا ، مع الوعد والوعيد ، والترغيب والتهديد . ولسوء الحظ كان هؤلاء الولاة وهم : خير بك الأباطى وإلى حلب ، وجان بردى الغزالى وإلى دمشق ، وسيبى وإلى حمص ، كانوا يحملون شيئا من الضغينة على السلطان الغورى . فوجد رسل السلطان سليم فيهم استعدادا لما يراد منهم . فتقدموا الأموال والهدايا والتحف المرسلة إليهم . وتم الاتفاق على كل شيء ، خلف الأستار . ثم عاد الرسل إلى بلادهم وأبلغوا السلطان سليم ماتم فى أمر رسالتهم - فأخذ فى الاستعداد والتأهب ... ثم ساق جيوشه نحو مصر .

ولما اقتربت الجيوش العثمانية من الثغور المصرية ، وعلم السلطان الغورى بشأنها أرسل فى الحال إلى أمراء الولايات ، التى سيحتاجها الجيش المغير ، بالوقوف فى وجهه ومدافعتة بما لديهم من الفياق المصرية ، ومنع تقدمه إلى أن يحضر هو بجيوشه المظفرة . ثم نهض فى جيش حسن العدة ، منضمّا إليه الكثير من الجنود المطوعة والعربان وغيرهم من شباب البلاد . وهناك فى مرج دابق من صحراء حلب ، التقى الجيشان وبدأت المعركة ، وكان التفوق فيها أولا للجيش المصرى . وعند الالتحام واستعار الوطيس ، تحركت الخطة المرسومة فى نفس خير بك ورفيقه ، وظهرت الخيانة العظمى منهم

إذ انهزموا بمن معهم من حُماة الشُّغور، وانضموا إلى الجيوش العثمانية . فلما رأى السلطان الغورى هذه الفعلة الشنعاء، أصيب في الحال بالفالج، وسقط عن ظهر جواده . وكان إذ ذاك قد أربى على الثمانين من سنى حياته . وتطاردت الخيل فزقته تحت منابكها ... وكان ذلك فى ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ ١٥١٦ م .

وخيانة خير بك والغزالي لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجيش المصرى ...

أما سيباى فقد عاودته الحمية ، وثارت به الشهامة والغيرة ، فندم على ما كان وارثه فقاتل حتى قتل مقبلا غير مدبر، رحمه الله .

٩ - فترة طومان باى :

وردت الأخبار إلى القاهرة بفقد السلطان الغورى ، وبانهزام الجيش المصرى ، بسبب خيانة خير بك وجان بردى الغزالي . فعم الحزن جميع البلاد المصرية ، غير أن ولاية الأمور رأوا الأمر أخطر من أن يُتوانى فى مداركته . فاجتمع الخليفة العباسى المصرى والأمراء والقضاة وأهل رأى ، وبايعوا بالسلطنة لابن أخى الغورى : السلطان طومان باى ، الذى كان خليفته عند سفره ...

تولى طومان باى عرش مصر فى هذا الظرف العصيب . فبادر فى الحال بتأليف جيش تطوع فيه كثير من شجعان الأمة ، وانضم إليه فرسان العرب ورجالاتهم . ونهض بعزيمة قوية وقاد هذا الجيش ، وصمد لمداغة العثمانيين عن البلاد ، وأبدى من الشجاعة والفروسية والإقدام ، ما لا يفى به وصف . حتى إن السلطان سليم أعجب بما رأى من تفوقه فى البطولة ، وعزم على

أن يعهد إليه بولاية مصر . . وتحدث بذلك أمام الأمراء . فحذره خيربك والغزالي من عواقب هذا العزم ... فعدل عن ذلك . فلما وقع طومان باي أسيرا أمر بشنقه . فعلق على باب زويلة . وكان ذلك في ١٢ محرم سنة ٩٢٣ ١٥١٧ م .

وبموت السلطان طومان باي فقدت الديار المصرية استقلالها ، وامتحت من الوجود سلطتها ، ووقع سكان وادي النيل في مخالب الاستبداد ، وبين براثن الظلم والاستعباد ، دهرأ طويلا . وسبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء .

مقارنة بين قبيز المساوي وسليم العثماني

١ - تبين لي مما لاحظته أثناء دراستي موضوع هذا الكتاب وملا بساته التي دعا إليها التقصى والاستيفاء ، أن بين قبيز ملك الفرس الأقدمين ، وبين سليم سلطان الترك العثمانيين ، كثيرا من التقابل في الصفات ، والتشابه في الخصال والحالات . على بعد ما بينهما من القرون والحقب والأجيال . فقد كان بين إغارة قبيز على مصر واغتصابها من الفراعنة ، وبين إغارة سليم عليها وانتهابها من المماليك الجراكسة ، أكثر من عشرين قرنا . وقد راعني هذا التوافق الغريب بين هذين الجبارين ، ولأنه ليعد من عبر التاريخ ، وروائع الأحداث الزمنية . فرأيت أن أعرض ما استنبطته من تقابل شؤونهما في هذا الفصل ، ليكون عظة من عظات الدهر ، وعبرة من عبر الأيام .

١ - لما تولى قبيز الملك بعد أبيه ، كان له أخ وحيد . فقتله .

ولما تولى سليم - وكان أبوه لا يزال حيا ، فدمس له السم فمات - وكان له أخوان ، فما زال بهما حتى قتلهما ، وأفنى كثيرا من أولادهما .

٢ - غزا قبيز مصر ، فلم يستطع التغلب عليها إلا بخيانة (فانيس) أحد القواد الأجانب الملتحقين بالجيش المصرى .

وغزا سليم مصر ، فلم يستطع التغلب عليها إلا بخيانة (خير بك الأباظى وجان بردى الغزالى) وكانا من قادتها وأمرائها .

٣ - فى أثناء غزوة قبيز لمصر ، مات الفرعون (أماسيس) وقتل هو الفرعون (أبسامتيك) .

وفى غزوة سليم لمصر مات السلطان (الغورى) وشقيق هو السلطان (طومان باى) .

٤ - لما وضع قبيز يده على مصر ، عرض لمقدسات المصريين ، فنسكل بالسكهان ، وذبح العجل أبيض .

ولما وضع سليم يده على مصر ، عرض لبعض مقدسات المصريين من التقاليد والعادات ، فاعتقل الخليفة وأرسله هو وأهل بيته إلى بلاده ، شبه أسرى وسبايا ، ومنزق السرادق الأشرفى الذى صنع لمولد النبى الكريم وباعه بأجنس الأثمان ، وكان من التحف التى لانظير لها .

٢ - وأهم من ذلك كله :

٥ - أن اجتياح قبيز للديار المصرية ، أضعاع على الأمة استقلالها ، وأفقدتها حريتها ، ومنزق وحدتها ؛ تلك المزايا التى رفلت فى مجبوحاتها ، ونعمت بها ، أدهارا متطاولة .

وإن اجتياح سليم للديار المصرية أضاع على الأمة سلطانها الواسع ،
وأفقدتها استقلالها الكامل ، وحرقتها المظلمة . تلك المزايا التي رفلت في
بجوحها ونعمت بشمراتها الجنية عدة قرون .

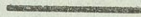
٦ - مات قبيز منتحرا ، في نوبة من نوبات الصرع التي كانت تعتاده
في فترات من حياته ، ومات سليم بضربة الطاعون - ولم يمكن أطباءه من
علاجه - فهو بذلك والمنتحر سواء .

٧ - مات قبيز ، بعد أن حكم سبع سنوات .

ومات سليم ، بعد أن حكم سبع سنوات .

وهذا من غرائب الاتفاقات ١٠٠ وليس من جديد على الزمن .

تولى الله جزاءهما بما يستحقان ...



في عصر الدولة العثمانية

١ - سياستها في مصر :

أشرنا فيما مضى إلى ما كان من استيلاء السلطان سليم بن بايزيد العثماني على الديار المصرية ، بعد شنق السلطان طومان باي ابن أخى السلطان الغورى . وكان ذلك فى سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م ومنذ ذلك التاريخ المشؤوم طويت صفحة من أنصع صفحات التاريخ فى عصور مصر المستقلة وأجدها ، وتقلصت راية السلطنة المصرية عن الممالك والولايات المترامية الأطراف التى كانت تخفق عليها فى آسيا وأفريقية . وفقدت هذه الأمة المصرية الكريمة أمنها وسلامتها ، واستقلالها وحريتها ، التى تمتعت بشمرانها ، وألفت خيراتها بضعة قرون ، وتمزق شمل المملكة المصرية ؛ فغدت ولاية من ولايات الدولة العثمانية ، يتصرف فى شؤونها سلاطين آل عثمان بالتولية والعزل ، والتعيين والفصل ، كما شامت أهواء صدورهم ومطامع وزرائهم . « والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين » .

نهاية السراى الأشرفى :

قال ابن إياس : وأشيع أن ابن عثمان (السلطان سليم) لما طلع إلى القلعة وعرضت عليه الحواصل التى بها رأى خيمة المولد (السرادق الأشرفى) فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار ... ! فقطعوها قطعاً ، وباعوها للناس ستائر وسفراً ... ! وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة . فبيعت

بأنحس الأثمان ، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها ، وفقدتها الملوك (المصرية)
من ذلك الوقت ... قال : وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا ، لم يعمل
مثلها في العالم قط . وهذا من جملة مساوئ ابن عثمان التي فعلها في مصر .

* * *

أقول : ياليت السلطان سليم كان انتهبها فيما انتهبها من ذخائر ملوك مصر
ونفائس سلاطينها ، وما استلبه من الأموال العامة والطرائف الخاصة ،
وتحف مصر وآثارها النادرة ، وما كان عند أمرائها وأكابر تجارها من
الأسلحة الثمينة ، والمجوهرات القيمة ، والسلع التي لا تقوم بشمن ... يا ليت
اغتاها كما اغتال غيرها من مقومات السلطنة ، ومخبات المملكة ، مما ليس
هنا موضع تفصيله ، ولم يعرضها على أهل الطمع والجشع ممن لا يعرف
قدرها ، فيبيعها منهم بشمن لا يقوم بطنب من أطناها ... ! مع أنها قد كلفت
الخزانة المصرية ، بإشراف السلطان قايت باي ، نفقات باهظة تجاوزت الستة
والثلاثين ألفا من الدينار الذهب . أي ما يربى على الواحد والعشرين ألفا
من الجنيهات المصرية ... ! يا ليت نقلها فيما نقل إلى بلاده ؛ إذا لحفظت في
دار السلطنة العثمانية ، ولكانت مفخرة من مفاخر آل عثمان في حفلاتهم
بالمولد النبوي الشريف ، وغيره من حفلاتهم العامة أو الخاصة . ولكانت
ذخيرة ثمينة تضاف إلى عرش الشاه الفارس ، وتحت الغوري المصري ،
الذين استولى عليهما وحفظهما في متاحف القسطنطينية للتجمل بهما .
ولكن أنى لمثل السلطان سليم باستبدال روح التخريب والتدمير ، بروح
التوطيد والتعمير ! ولله في خلقه شؤون .

* * *

ومهما قيل عن صفات السلطان سليم ، وأنه كان في نشاطه مفقود

النظير ، وفي توقد ذهنه فوق الخيال ، وفي ماضى همته من أعلى ما عهد في همم الرجال . وأنه كان شاعرا بليغا باللغات الثلاث : التركية والعربية والفارسية ، وأنه كان محبا للعلماء والأدباء ، مغرما بالعلم والعرفان ، وأنه كان لحرصه على راحة رعاياه وأمنهم ، يخرج أحيانا متنكرا فيختلط بالشعب ويطلع على أحواله ، ويقف على موضع الشكوى منه فيزيل أسبابها ويقتص من العمال والولاة الذين يتحقق خروجهم عن جادة العدل بين الرعية . إلى غير ذلك مما يصفه به بعض المؤرخين ؛ فإنه بما لا ريب فيه كان صاعقة على مصر . ولذلك فنحن لا ننظر إلى شؤونه وتصرفاته في مصر ، إلا بالعين المصرية ، ولا نقيسها إلا على الحلال الإنسانية ، والنوازع الدينية . فذلك بابها تقديره ، ويتسق معنا اعتباره .

وذكر بعضهم أن السلطان سايبا حينما استوخم القاهرة ، بعد أن أكثر فيها من القتل وإراقة الدماء ، ارتفع بجيوشه إلى الروضة وضرب فيها خيامه بجوار المقياس . وكتب بيده على عمود المقياس بيتين من شعره ، وهما :

الملك لله من يظفر بديل منى يردده حقا ويضمن بعده الدركا
لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركا

والحقيقة أن السلطان سليم إنما كتب هذين البيتين من حفظه لا من

قوله . وإنما هما من أبيات لأبى العلاء المعرى ، هي :

الموت رُبْعُ فَنَاءٍ لَمْ يَضَعْ قَدَمًا فيه أُمُورٌ فَشَاهَا نَحْوُ مَا تَرَكَ
وَالْمَلِكُ لِلَّهِ مَنْ يَظْفَرُ بِبَلِيلِ مَنْ يَرُدُّهُ قَسْرًا وَتَضْمَنُ نَفْسُهُ الدَّرَكَ
لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركا
ولو صفا العقل ألقى الثقل حامله عنه ولم تر في الهيجاء معتركا

إِنَّ الْأَدِيمَ الَّذِي أَلْقَاهُ صَاحِبُهُ يُرْضَى الْقَبِيلَةَ فِي تَقْسِيمِهِ شُرُكَهَا
دَعِ الْقَطَافَةَ فَإِنْ تُقَدَّرَ لِفَيْكِكَ تَبَتُّ إِلَيْهِ تَسْرَى وَلَمْ تَنْصُبْ لَهَا شَرَكَا
وَلِلْمَنَايَا سَعَى السَّاعُونَ مَذْخُلِقُوا فَلَا تُبَالَى أَتَنْصُرُ الرِّكْبُ أَمْ أَرْكَا
وَالْحَتْفُ أَيْسُرُ وَالْأَرْوَاحُ نَازِرَةٌ طَلَّاقَهَا مِنْ خَالِيلٍ طَالِمَا فُرِكَا
وَالشَّخْصُ مِثْلُ نَجِيبٍ رَامَ عَنَبَرَةً مِنَ الْمَنُونِ فَلَمَّا سَافَهَا بَرِكَا

الاحتفال بالمولد في العهد العثماني

١ - في عهد السلطان سليم :

لما استقرت قدم السلطان سليم بالديار المصرية ، وحل شهر ربيع الأول سنة ٩١٣ هـ أسر بإقامة معالم الاحتفال بالمولد النبوي ، وإجراء الزينات على ما جرت به العادة . وكان يوم ١١ من الشهر يوم الجمعة . قال ابن إياس : فلم يشعر به أحد من الناس ، وبطل ما كان يعمل في ليلة المولد من اجتماع العلماء والقضاة الأربعة ، والأمراء ، بالحوش السلطاني ، كما بطلت الأسمطة التي كانت تمتد في ذلك اليوم ، وألغى ما كان يُعطى للقراء والوعاظ والفقراء ، من الخلع وشقق الحرير وأنواع الإنعام ، في تلك الليلة .

أقول : وكيف يشعر به أحد من الناس ، والأمة المصرية على بكرة أبيها كانت في ماتم شامل ، وحزن عام ، من هذه النكبة التي لم تر لها مثيلاً في تاريخ مصر الماضي ، ولم تشهد لها نظيراً في أشد العهود حُلُسَكة ، وقد مرت بها حوادث المغول والتتار ، ووقائع الحملات الصليبية ، على تكررها ، فلم يشعر من ذلك كله بما شعرت به من هذه النازلة .

٢ - في عهد خير بك :

لما أزمع السلطان سليم مفارقة الديار المصرية والعودة إلى بلاده ، أقام خير بك نائباً على مصر . مكافأة له على خيانتته ، ومنحه لقب (ملك الأمراء) . وهذا اللقب ليس من ابتداع السلطان سليم ، وإنما هو من الألقاب التي كانت تمنحها سلاطين مصر لبعض الأمراء .

كما أقام جان بردى الغزالي نائباً على الشام . وهو زميل خير بك في الخيانة ثم ارتحل بعد أن قتل واغتال وسلب ونهب ، ما وسعه أن يفعل - إلى غير رجعة ...

٣ - من هو خير بك :

رأينا من تمام الفائدة أن نُعرِّفَ بهذا الرجل الذي لعب دوراً خطيراً في تاريخ مصر ، وكان اليد الشؤمى ، في الخيانة العظمى . وما أصاب مصر بعد ذلك من الكوارث والنوازل .

هو خير بك بن ملباي الأباظى الجركسى . ولد بسمسوم قريياً من بلاد الكرج . ولما ترعرع قدم به والده إلى مصر ، وقدمه إلى السلطان الأشرف قايت باى . فأنزله مع أتراه من غلمان الطبقة . ثم صار من جملة المماليك السلطانية ، ثم منحه خيلاً وقماشاً ورقاه في صف الجندارية . ثم صار خاصكياً فدوادار سكين . وفي سنة ٩٠١ هـ جعل أمير عشرة . ثم عينه الناصر محمد بن قايت باى ، أمير طبليخانة وبعثه في سفارة إلى السلطان بايزيد العثماني والد سليم ثم جعله الأشرف قانصوه جان بلاط ، أمير عشرة مقدم ألف .

ولما خرج قصره نائب الشام عن الطاعة ، وأظهر العصيان على السلطنة ،
جرد السلطان عليه العساكر بقيادة خير بك ، وكانت له معه وقائع ...

ولما بويع للعدل طومان باي الأول ، كان خير بك مجرداً من رتبة
مسجوناً في بعض جرائمه ، فلما حضر السلطان إلى مصر أمر بإطلاقه والإنعام
عليه بتقدمه ألف ، كما كان . ثم جعله الأشرف قانصوه الغوري ، حاجب الحجاب .
وكان لخير بك أخ يسمى قانصوه المحمدي البرجي وكان هذا الأخ نائباً
على الشام . فلما توفي أسند الغوري نيابة حلب إلى خير بك سنة ١٥٠١هـ ١٥٠١م
مكان سييبي الذي نقل إلى نيابة الشام . وظل نائباً على حلب إلى أن
كان من أمر السلطان سليم العثماني ما كان ، وحدثت منه تلك الخيانة
العظمى . ثم جعله للسلطان سليم نائباً على مصر عند ما رحل عنها .

وكان يلقب في الدولة المصرية (المقر السيفي) فلقبه السلطان سليم
(ملك الأمراء) وهو لقب يقرب في معناه من لقب (خديو)
ومن آثاره المدرسة المعروفة بالخير بكية بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة .

٤ - الاحتفال بالمولد في مدة نيابته :

بعد أن رحل السلطان سليم عن مصر ، وقبض خير بك على زمام
الأمر في البلاد ، أراد أن يستميل إليه الأهالي ، وأن يحسن سياسته مع
الشعب ، ففكر في أن يجرى على سنن من تقدمه من إجراء الاحتفال بالمولد
النبوي الشريف ، على القواعد المقررة ، والتقاليد الموروثة ...

فلما حل شهر ربيع الأول من سنة ١٥١٨هـ ١٥١٨م أمر بإقامة الزينات

ومعالم الاحتفال بالمولد النبوى . فلم ينهض له الناس النهوض المعتاد . وكان احتفالا تافها . قال ابن إياس : فلم يشعر به أحد من الناس ، قيل إن خيربك أحضر عنده عشر جوخ للبقرتين ... ١٤ فضجوا من ذلك وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى مولد السلطان (يريد المولد النبوى ، وهكذا كان يطلق عليه فى تلك الحقبة) لكل واحد منا مائة شقة ١١ فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخة بأشرفيين ؟ (نوع من العملة) فرسم لكل واحد منهم بجوخة بأربع أشرفيات . قال : ثم بعد العصر مد سباط بالمعد الثانى الذى بالحوش ، ليس بكبير أمر . تخاطبته العثمانية فى لمح البصر ، وبات غالب الفقهاء ، بلا عشاء .

ثم قال ابن إياس : وأين الحسام من المنجل ، بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية ، من الأسطة الحافلة ، وشقق الحرير التى كانت تدخل على جوق القراء والوعاظ ؟ ولا سيما ما كان يعمل فى مولد السلطان قانصوه الغورى . فكان يضرف على السباط فى المولد أربعة آلاف دينار ، وكان يحضر عنده فى تلك الخيمة العظيمة التى لم يبق يسمح الزمان بمثلها أبدا ، القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين : أربعة وعشرون أميراً مقدم ألف ، غير بقية الأمراء والعساكر ، وهم بالشاش والقماش ! ... فأين ذلك النظام العظيم ، كيف ذهبت أوقاته ؟ فيما أسفى على تلك الأيام ، كأنها كانت منام ... !

وفى ربيع الأول سنة ١٥١٩ هـ ١٥٢٥ م كان المولد يوم الأحد ١١ منه .
فجلس ملك الأمراء فى المقعد الذى بالحوش السلطانى بالقلعة ، وطلع إليه

خير الدين نائب القلعة ، وبعض المباشرين ، وئلة من أمراء العثمانية . كما
اجتمع عنده من القراء والوعاظ ثلاث عشرة جوقة . وفي آخر النهار مد
سماط . يصفه ابن إياس بأنه : لايسمن ولايغنى من جوع ... ثم خلع على
الوعاظ قفطانات ، واستردها بثمان زهيد .

وعلى هذا جرى الرسم في احتفال سنة ٢٦ و ٢٧ .

أما في سنة ٩٢٨ فقد كان المولد في يوم السبت ١١ من ربيع الأول ،
حيث عمل ملك الأمراء الاحتفال به . فاجتمع القراء والوعاظ (بالدهيشة)
وأرسل يقول لقضاة القضاء : لانكلموا خواطركم ولا تطلعوا إلى القلعة ،
فإن ملك الأمراء حصل عنده توهك في جسده ، فلن يحضر المولد . ثم أرسل
خلف قاضى القضاء المسالكى على انفراد - وكان من أخصائه ، ومن المقربين
عنده - وقال له : إطلع واحضر المولد ... كما أرسل إلى الأمراء الجراكسة ،
والأمراء العثمانية يقول لهم : لانكلموا خواطركم ولا تطلعوا إلى القلعة
بسبب المولد ...

قال ابن إياس : وقيل إن ملك الأمراء احتجب في ذلك اليوم في (الأشرفية)
التي بجوار (الدهيشة) ولم يجلس عند القراء ، ولا حضر السباط ، بل قعد على
رأس السباط قاضى القضاء المسالكى ، والأمراء برسباى ، والخازندار ،
وآخرون من الأمراء العثمانية ...

وقال اللواء محمد مختار باشا المصرى : وفي هذه السنة توفى خيربك باشا
بمرض جلدى ، ودفن في المدرسة التي تدعى الخيربكية التي بناها في القاهرة
بشارع باب الوزير تحت القلعة . قال : ولسكرة استبداده قيل في حقه إنه

كان ينهض من لحده ليلاً ويستغفر الله على ما أناه من الشرور في حياته .

قلت : ولا شك أن هذا من تخاريف العامة واختلاقات من يستغلونهم . وظل نواب السلطنة العثمانية وولايتها على مصر - بعد خير بك - يقومون بمراسم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بين العناية والتقصير ، حسب الظروف والأحوال ، كل على قدر همته من الرفعة والتدنى . إلى نهاية الحكم العثماني .

على أن الأمة المصرية كانت تقوم من جانبها بما تقصر عنه همم الولاة من أهل الخول والقصور .

٦ — من العادات المصرية :

قال الجبرقي : ولأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق ، لا توجد في غيرهم ... ولهم عادات في أيام المواسم ، مثل : أيام رجب ، والمعراج ، ونصف شعبان ، وليالي رمضان ، والأعياد ، وعاشوراء ، والمولد الشريف . [فكانوا] يطبخون الأرض باللبن ، والزردة ، ويملاؤن من ذلك قصاعاً كثيرة ، ويفرقون منها على من يعرفون من المحتاجين . [وكان] يجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء ، فيوزعون عليهم الخبز ، ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك اللبن والزردة ، ويعطونهم بعد ذلك دراهم ... وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من السكك المحشو بالسكر والعجمية ، والشريك : على المدافن والتراب ، في الجمع والمواسم .

في عهد المماليك البيكوات

١ - لما انتقل خيربك ملك الأمراء ، ونائب الدولة العثمانية على مصر - إلى المكان الذي ينقل إليه كل بر وفاجر - أخذت الدولة تولى إرسال الباشوات من رجالها إلى مصر نوابا عنها ، وولاية عليها . وكان بعض هؤلاء الباشوات ربما شعر من نفسه بشيء من بعد المهمة ، فيلتهمز فرصة إنشغال الدولة بالحرب مع دولة أخرى معادية - وكثيرا ما يكون ذلك - فيثور محاولا الاستقلال بحكم الديار المصرية . كانت هذه المحاولات تظهر حينما وتختفي أحيانا . لأن الدولة كانت تبادر إلى إرسال الجيوش فتقمع هذه التوثبات وتقبض على ناصية الحال . ولا تلبث فتنة ذلك النائب المتوثب أن تخدم وتذهب ربحها ... ومن أجل هذا وضعت الدولة قاعدة في تعيين ولايتها على مصر ، بأن لا تزيد مدة الولاية على سنة واحدة ، في غالب الأحيان .

ثورة على بيك الكبير :

وما زال الأمر جاريا على ذلك إلى أن اشتبكت الدولة العثمانية مع دولة روسيا في الحرب . وكان ذلك في عهد السلطان مصطفى خان الثالث . فانتهمز على بيك هذه الفرصة ، التي ظنها مواتية ، وأعلن استقلاله بشؤون الديار المصرية ، ثم زحف بجيشه مكتسحا بلاد الشام وحلب ، وما والاها ، وظل في وقائع ومعارك ومعامع ناجحة إلى أن أنزعها من الدولة العثمانية ، وأعلن انضمامها إلى أمها مصر ، كما كانت من قبل .

وكان ابتداء حكم على بيك ، مستقلا ، في سنة ١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م .

غير أن الدولة العثمانية لم تلبث أن فكرت في تدارك الأمر، واتهمت على بيك بمبالاة الروس، وبأنه إنما استمد منهم ما أعانه على ثورته، وأصدرت الأوامر بتسيير الجيوش إليه، فالتحمت معه في حرب انتهت باستردادها للبلاد التي كان استولى عليها، كما أعادت مصر إلى الحظيرة العثمانية .

على أن هذه الثورة التي قام بها على بيك، لم تذهب عواملها مع الرياح ولا نتائجها سدى، بل أنها تركت أثرا فعالا في نفوس المماليك المصرية ... وقرّ في ضمائرهم أن في الاستطاعة منازعة الدولة، والتغلب على نفوذها وسلطانها، وأن في الإمكان، مقارعتها في ساحة الحرب والطمأن ... فقويت في قلوبهم هذه النزعة، واشتدت بها شوكتهم، وعرفوا لأنفسهم قيمتها في الوجود، فقرضوا نفوذهم، وأخذوا يسابون من الباشوات مطلق سلطانهم ويقفون في كثير من الشؤون العامة في وجوههم ... وأحست الدولة بما تجددهم عليها من هم المماليك ونزوعهم نحو الاستقلال بالأمر في مصر، على أقل تقدير، فحسبت حساب ما يحملون لها فقد، وانتبهت لما يضمرون لها من كيد، ويكمنون لها من بغضاء . لاسيما وقد كانت حالتها بعد الحرب الروسية، آخذة في التراجع، وأنها في حاجة إلى فترة تسترد فيها وسائل أمنها وسلامتها، وتنظر فيها إلى إصلاح داخليتها ... فكانت تسكتفي بعد ذلك بأن يكون هم ولايتها في مصر منصرفا، على الأكثر، إلى الحصول على (الخزاة) أى الخراج الذي كانت تدفعه مصر إلى الدولة في كل سنة ... دون التعرض لأمر المماليك . بل اتخاذ سياسة المحاسنة معهم ...

وبذلك أصبح للمماليك النفوذ الواسع، في طول البلاد وعرضها ... وكانوا

مضى شاءوا إبدال وال بآخر لا تتوقف الدولة كثيرا في إجابة طلبهم ...
وفي هذه الحالة كانت مصر تتمتع بقدر غير قليل من الاستقلال الذاتي .

المولد في عهد المماليك المصرية

أما عناية حكومة هؤلاء المماليك بأمر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ،
 وإقامة معاملته في أوقاته المقررة ، فقد كانت جارية على الرسوم التي ورثوها
 عن باشوات الدولة العثمانية . وما أهونها من رسوم ١٠٠٠

إلا أن الأمة كانت تنهض به من تلقاء نفسها نهوضا بينا ، وتحتفل
 به احتفالا حسنا . وذلك تحت إشراف بيت السادة البكرية ، ورعاية شيوخه

بيت البكرى والمولد

كان بيت السادة البكرية في تلك الحقبة ، يقوم بالساحة الكبرى التي
 كانت تمتد من جنوب دار الأوبرا الآن إلى مسجد العشماوى ، وتشمل حارة
 عبد الحق السنباطى غربا ، إلى دار البريد شرقا . وكان يطل على بركة الأزبكية
 شمالا . وكان حوله ميادين واسعة .

هذا البيت العامر الجناز ، الواسع الرحاب ، والمترامى الأطراف ، المتناثى
 الأكناف ، كان موثلا لأرباب الطرق الصوفية ، ومنتدى لمجامعهم الدورية .
 وكان شيوخ آل الصديق يقيمون معالم الاحتفال بالمولد في ساحاته ،
 وينصبون الأعلام والزينات في باحاته ، ويوقدون أحمال القناديل والثريات
 في سواريه وشرفاته . ويذبحون فيه الذبائح ، ويقدمون للناس العطايا والمنائح
 فكان في أيام المولد ولياليه قبلة القاصدين ، ومحط رجال الوافدين ، وملجأ

الفقراء والمعوزين . فإذا كانت الليلة الختامية للدولة ، حضر الباشا الوالى ، وكبار رجال الحكومة ، وزعماء الإنكشارية ، وأعيان المباشرين ، وأرباب الوظائف ، وغيرهم من وجوه الأمة ، ورؤس التجار ، وأصحاب الصناعات والحرف ، لمشاهدة الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة . وكانت تمتد لكل من حضر . الاسمطة الحافلة بألوان المطاعم ، والأوانى الرحبة المليئة بالثريد عليها أبيضاض اللحوم الناضجة الشهية . فيتناول من ذلك من شاء ما لذه وطاب . وبعد الانتهاء من الطعام يصطفون على الأرائك والكراسى ، ويقعد أكثرهم على البسط والسجاجيد ، أو على الحصر المفترشة حول سارية الذكر . وهناك تقوم حلقات الصوفية وأهل الطرق ، يذكرون الله ، ويتناشدون الأناشيد المعروفة عندهم ، وتحدث لبعضهم أطوار من الجذب ، فتكون صيحات وتواجد ، وزعقات وتساند . ويظهر على السامعين الشئ الكثير من الحركات الدالة على الاستحسان والاستطراب . ويجلس فى بعض الساحات حلقات أخرى لقراءة الأحزاب ، وتلاوة الأوراد ، بأصوات مرتفعة صادرة من أقصى حلوقهم ، فيكون لها دوى خاص فى الأسماع . ولا يزالون جميعاً فى هذه الأحوال إلى الثلث الأخير من الليل . ثم يأخذون فى الانصراف .

ومما يذكر أنه فى يوم الجمعة ١١ من ربيع الأول سنة ١٢٠٢ ١٢٨٧هـ م لما أقيمت معالم الاحتفال بالمولد ، ونصبت سوارى الزينة عليها الأعلام ، ومدت الجبال وعلقت فيها الفوانيس والثريات والقناديل ، واستنارت الساحة بالأنوار المتلألئة ، وحضر المدعوون لشهود الليلة الختامية على العادة . حضر الوالى العثمانى عابدين باشا مدعوا ، واستقبل بحفاوة بالغة ، فلما

شاهد من ذلك ما لا عهد له به ، سر كثيرا وجاد ببعض الإنعامات . وكان الاحتفال بهيجا شائقا ، وكان اشتراك الامة فيه آية فى العناية واللبذل والسخاء .
فى مدة مراد بك :

ولما صار أمر الحكومة المصرية فى يد مراد بك رأس الممالك ، جرى الاحتفال بالمولد على العادة ، وأقيمت معالم الاحتفال ، وامتدت الزينات فى أرجائه . وكان بين السيد محمد افندى البكرى وبين مراد بك شىء من المغاضبة والتهاجر وسوء التفاهم ، فهض وسطاء الخير فى السعى إلى إصلاح ذات البين . وما زالوا بمراد بك حتى حملوه على الحضور إلى بيت السادة البكرية ، وأزالوا ما كان بينهما من التقاطع ، فتصالحا ، وتفاهما وتصالحا ، وزال ما كان فى نفس كل منهما من أثر . وكان لذلك رنة فرح وسرور عند الناس جميعا .

وبعد صلاة العشاء مدت الموائد الحافلة بالأطعمة الفاخرة ، لمراد بك وحاشيته ، ومن حضرها من الخواص ، فأكلوا وتبسطوا فى الأحاديث . وبعد الفراغ من تناول الطعام ، نهضوا فغسلوا أيديهم على جارى العادة ، ثم جلسوا على مقاعدهم يستمعون إلى قراءة القراء ، وإنشاد الممشدين ، وشاهدوا حلقات الصوفية وهم يتلون أورادهم وأحزابهم ، كما شاهدوا حلقات الذكر ، وترنح المترنحين ، وتمایل المتجاذبين ، وغير ذلك من المشاهد . ومكث مراد بك فى دار البكرى حتى منتصف الليل . ثم نهض وخلع على السيد محمد البكرى فروة سمور من النوع الفاخر ... وانصرف بعد ذلك راضيا مرضيا .

فى عصر الحملة الفرنسفة

فترة نابوليون بمصر:

١ - ذكر الجبرقى فى تاريخه المشهور أن دخول نابوليون بونابرت على رأس حملته الفرنسية إلى القاهرة ، كان فى ربيع الأول من سنة ١٢١٠ هـ ١٧٩٥ م . والجبرقى ، كما هو معلوم ، كان من حاضرى دخول هذه الحملة ، ومن مشاهدى إغارتها على مصر ...

لكن اللواء محمد باشا مختار المصرى يذكر فى كتابه (التوفىقات الإلهامفة) أن هذا الحادث كان فى صفر من سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م ووافق على هذا التاريخ أمين سامى باشا فى كتابه (تقویم النيل) .

والراجع أن التاريخ الأخرى أقرب إلى الصواب . لأنه من الثابت الذى لا شك فى أن نابوليون كان ، فى التاريخ الذى ذكره الجبرقى ، يحارب دولة النمسا ، ینكل بجمیوشها ، ولم یكن مشروع احتلاله لوادى النيل قد وضع بعد . وعلى كل حال فقد احتل نابوليون وجیوشه الدیار المصرفة ، إثر موقعة الأهرام ، وانهزام مراد بك وجنوده ، بعد أن ألبوا البلاء الحسن ، ودافعوا دفاع الأبطال . وبعد أن استراح نابوليون بالقاهرة قلیلا ، أرسل نوابه إلى الأقالیم المصرفة ، لمكالفة الشائرف بها ، ومطاردة المدافعفن عنها . ولضبط شؤونها وإقامة الحکم الفرنسية بها ، ثم ألف دیوانه الخصوصى بالقاهرة ، وكان مركزه قصر الألفى الذى فى مكانه الآن (شبرد أوتیل) ورفره من

العمائر . وكان من رجال هذا الديوان : الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ سليمان الفيومي ، والسيد أحمد المحروقي ، وعلى كتحدا باشى ، ويوسف جاويش باشى . كما أنشأ غيره من الدواوين والمجالس وكذلك فعل بالاسكندرية .

المولد النبوى أيام الحملة

١ - أيام نابوليون :

بعد أن رأى نابوليون أن الأمر قد استتب له ، أخذ يفكر فيما يخطئ به سخط الشعب المصرى عليه ، ويقرب قلوب الأمة إليه . فرأى أن من الوسائل التى قد تؤدى إلى ذلك ، أن يأمر بإحياء الاحتفال بذكرى المولد النبوى . فقد يدخل بهذا الاحتفال والمشاركة فيه ، شيئاً من الابتهاج والسرور على نفوس المصريين ، ويرضى عواطفهم ، ويحدد لهم ذكرى الأعياد والمواهم التى ألفوها حافلة بأسباب الأفراح ، ووسائل الخير العام والبر الشامل ، والتى كانت فى اعتبارهم ، فى عداد الواجبات الدينية ، أو التقاليد القومية .

قال الجبرتى : سأل سارى عسكر [نابوليون] عن المولد النبوى لماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ [خليل] البكرى بتعطيل الأعمال ، وتوقف الأحوال ... فلم يقبل ، وقال : لابد من ذلك ... وأعطى له ٣٠٠ ريال فرنسيا معاونة ، وأمر بتعليق تغاليق وحبائل وقناديل ... واجتمع الفرنسية يوم المولد ولعبوا ميادينهم ، وضربوا طبولهم ودبابتهم . وأرسل الطبائخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى . واستمروا يضربونها بطول

النهار والليل بالبركة (بركة الأذربكية) تحت دارة .. وهي عبارة عن طبقات كبار مثل طبقات النوبة التركية ، وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة . وعملوا في الليل حراقة نفوط مختلفة ، وسواربخ تصعد في الهواء . وفي ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكرى فروة ، وتقلد نقابة الأشراف ونودي في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب . وكان نابوليون كثيراً ما يحضر إلى بيت البكرى بالأذربكية ، يتناول فيه الطعام ، في المناسبات الداعية من المواسم والأعياد ...

٢ - أيام كليبر :

لما سافر نابوليون عن مصر ، عهد بالقيادة العامة إلى الجنرال كليبر ، إذ كان حائزاً عنده تمام الثقة .

قال الجبرقي : وفي يوم الثلاثاء ١١ من ربيع الأول سنة ١٢١٤ ١٧٩٩ م عمل المولد النبوي بالأذربكية . ودعا الشيخ خليل البكرى ساري عسكر (كليبر) مع جماعة من أعيانهم ، وتعشوا عنده ، وضربوا ببركة الأذربكية مدافع ، وعملوا حراقة سواربخ ، ونادوا في ذلك اليوم بالزينة ، وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً ، وإسراج قناديل ، واصطناع مهرجان .

نهاية الحملة الفرنسية

لاخفاء في أن العداوة والبغضاء كانت متأصلة بين الإنجليز والفرنسيين وكان الإنجليز يحقدون أشد الحقد على نابوليون ويخشون نهضته . ومن طبع الإنجليز الحقد على كل من يرفع رأسه لاستنشاق نسيم الحرية في الحياة ،

فهم يعملون بكل مافي وسعهم ، من دس وكيد ، لحفض هذا الرأس أو قطعه .
وكان نابوليون يعرف فيهم ذلك معرفة خبير ، ولهذا كان يظهر لهم أشد
الاحتقار . على أن الانجليز مع هذا لا يحبون أن يواجهوا عدوا لهم إلا إذا
تمكنوا من الاعتماد على ظهير لهم يقدمونه بين يدي مطامعهم ، بعد أن
يكونوا قد خدروا أعصابه بأساليبهم المعروفة من الكذب والغش والخداع
والنفاق ، وشراء الذمم ... وهذه هي سياستهم في كل زمان ومكان

وبينا هم ينصبون حباثلهم لرجال الدولة العثمانية ، كي تدم الدولة بجيش
يعاونهم على إخراج الفرنسيين من مصر ، ويبذلون في ذلك من أنواع الخبيث
والمكر والمال ، كل مرتخص وغال - إذا بالجنرال كليبر يغتال بيد طالب
حلبى من طلاب الأزهر اسمه سليمان . استأجره الانجليز بواسطة نائب
عكا ... وجرت محاكمة هذا القاتل أمام مجلس عسكري فرنسى ، وحكم عليه
بحرق يده ، ثم وضعه على خازوق إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة ... وكان
هذا الحكم وحشيا بلا شك ...

وفي هذه الأثناء زحف الإنجليز ومعهم الجيش العثمانى على مصر ،
وأخذوا فى مفاوضة الجنرال (منو) فى الجلاء عن مصر ... وبعد خطوب ومن
جلا الفرنسيون فى رجب سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠١ م .

ومنذ قتل كليبر فى ٢٠ من محرم سنة ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م والأحوال فى مصر
مضطربة ، والثورات متوالية ، والقمع جار فى الأهالى ، من طغاة الفرنسيين ،
والأزهر مغلق ومعتل الدراسة ، ومشتت الطلبة والشيوخ فى أنحاء البلاد .
ولما كانت المفاوضات مع الفرنسيين فى شأن خروجهم من مصر قد

بدأت من أول السنة الهجرية ، فلم يكن هناك من داع لمباشرة أى عمل من الأعمال العامة التى تهم الأمة . ولذلك لم يعن منهم أحد بحضور الاحتفال بالمولد فى هذه السنة ...

المولد أثناء مخاضات الجلاء

١ - فى يوم الأربعاء ١٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ ١٨٠١ م نودى بالاحتفال بالمولد النبوى ...

قال الجبرتى : نودى بتزيين الأسواق من الغد ، تعظيماً ليوم المولد النبوى الشريف . فلما أصبح يوم الأربعاء كررت المناداة والأوامر بالكسب والرش . فحصل الاعتناء ، وبذل الناس جهودهم ، وزينوا حوانيتهم بالشفق الحرير الزردخان ، والتفاصيل الهندية . مع تخوفهم من العسكر . وركب الوزير (العثمانى يوسف باشا الذى حضر على رأس الجيش لإخراج الفرنسيين من مصر) عصر ذلك اليوم ، وشق المدينة ، وشاهد الشوارع ... وعند المساء أوقدوا المصابيح ومنارات المساجد . وحصل الجمع (بتسكية الكشنى) على (غير) العادة . وتردد الناس للفرجة ، وعملوا المغانى والمزامير فى عذة جهات ، وقراءة القرآن ... وضجت الصغار فى الأسواق ، وعم ذلك سائر أخطاط المدينة العاسرة ، ومصر ، وبولاق .

قال : وكان من المعتاد ألا يُعتنى بذلك إلا بجهة الأذربكية ، حيث مسكن الشيخ البكرى . لأن عمل المولد من وظائفه (فى القاهرة) وبولاق فقط .

٢ - وفى ربيع الأول سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م كانت الأحوال قد هدأت فى مصر - بعد خروج الحملة الفرنسية منها - وأخذت مياه الاطمئنان

تعود إلى مجاريها ، وحل موسم المولد .

قال الجبرتي : شرعوا في عمل المولد النبوي ، وعملوا صواري ووقدة قبالة بيت [قبطان باشا] وبيت الدفتردار ، والشيخ البكري . ونصبوا خياما في وسط البركة [بركة الأزبكية] ونودي في يوم الخميس ثامنه بتزيين البلد ، وفتح الأسواق والخوانيت ، والسهر بالليل ثلاث ليال . أولها صبح يوم الجمعة ، وآخرها ليلة المولد الشريف .

تقرير مرسل إلى نابوليون

عن أحوال مصر

عثرت على هذا التقرير فرأيت أن أجعله خاتمة لآثار الحملة الفرنسية بمصر . وقد أرسله الشيخ محمد المسيري أحد أعضاء مجلس الأحكام الذي أنشأه نابوليون بالامسكندرية برئاسة السيد محمد كريم - إلى نابوليون بونابرت بعد رحيل الفرنسيين عن مصر . في شبه خطاب يشرح له فيه بعض الأحوال في البلاد المصرية ، وغيرها من بلاد الشرق . وقد رواه البارون دي ساسي في كتابه (الأنيس المفيد) وهذا نصه ، قال :

إن من أحسن ما خطر في الضمائر ، وبرز من مكنونات الذخائر ، ثناء أذكي من المسك عبيرا ، ودعاء أسرع من السحاب مسيرا ، إلى حضرة من أثار لعشيرة في الأنام ذكرا ، ورفع لهم لواء لا يستطيع غيره له نشره ، المتوصل بثاقب فكره إلى المطالب القاصية ، والمذلل برأيه وسياسته جراح النواصي العاصية ، الظاهر بمظهر الجلال ، والسابق بحزمه إلى المراتب العوال ، ذي المهابة والوقار عند جميع الأجناس ، والشهامة والسكياسة عند

الخاص والعام من الأكياس . حضرة صارى عسكر الجمهورية الفرنسية ،
ولإنسان عينهم فعليه مدار القضية : بونابارت . جعل الله همته مصروفة
في الرشاد والصلاح ، ونظمه في سلك أهل الخير وعداد أهل الفلاح ،
وأجرى على يديه راحة العباد ، وأجلى به الهموم والغموم والأنكاد ، وصان
ذاته من كل نقص وشين ، وتولى أمره باللطف في الدارين ، ولحظه بعين
عنايته في حركانه وسكناته ، وكان له موفقا في جميع تقلباته وتصرفاته .

أما بعد بسط يدي بصالح الأدعية ، ونشر الشاء في جميع الأندية .
فإنا نحمد لكم الله الذي لا إله إلا هو ، على كل حال ، ونسأله أن يلطف
بالجميع في جميع الأحوال . وإننا لم ننس لكم ذكرا ، ولم نغفل عن الدعاء
لكم سرا وجهرا .

ونعرفكم عن أحوال طرفنا : وهو أن البلاد المصرية ، حاكمها بمصر ،
المتصرف في أمورها (محمد باشا) وباشا الإسكندرية خورشيد باشا . ولكن
الكلام والتصرف في الإسكندرية لطائفة الإنجليز . وأما الدخل والخرج
فهو بيد العثملي^(١) والغز - يعني الممالك - كانوا في الصعيد ، فتعين عليهم
عساكر مرارا ، فتلاطموا معهم ، ووقعت بينهم محاربات وانهازات
وجراحات ، وأمور كثيرة . والآن جاؤا إلى أرض الفيوم ، وبرزت لهم
تجريدة عسكر كبيرة . وما ندرى الآن ما حصل بينهم ، هل تلاطموا أولا لا ؟
ومع الغز طائفة من الفرنسية ، وهربت لهم عساكر من الأرتود .

والنيل كان وافيا . وشاع في البلد أن عساكر من مصر متوجهة إلى
أرض الشام مساعدة لمحمد باشا أبي مرق وإلى يافه ، لأنه وقع بينه وبين

(١) يريد بالعثملي : الأتراك العثمانيين .

والى عكة مشاجرة ، فحاصرة ، فاستغاث بالدولة ، فأغاوثه بمراكب ، صارى
عسكرها (أنجه بك) الذى وقع مركبه فى بوقير . ثم وقعت بينهم وبين
عسكر (الجزار) ^(١) ملاطمة . ثم جاء (أنجه بك) مصر ، وهو الآن بها .
وشريف مكة مات وتولى أخوه . وذكروا أن بينه وبين ابن أخيه
حروباً منصوبة . وباشا جدة الحجاز توفى . وذكروا أن والى دمشق ووالى
عكة اصطلحا بعد وقوع حروب بينهما . ووقع أيضاً بينه وبين أهل دمشق
حروب وأخذ قلعتها . وإلى الآن (أبو مرق) محاصر فى يافه .
وربنا يصلح أحوال البلاد ، ويهتئ جميع العباد ، ويلهم خلقه الرشيد
والسداد ، وتفصيل الأمور يطول .

والله تعالى يحرى فضله فى عباده ، ويعاملهم بلطفه وإحسانه ، وييسر
لهم الاستقامة ، ويجعلكم ممن رفع له فى الملاء الأعلى ذكراً ، وأجرى على
أيديهم لعباده نفعاً وخيراً ، ولا يجعلكم ممن لعبت به الحياة الدنيا ، بل يجعلكم
من همته عليا ، ويختم لكم بالخير والإحسان . آمين

فى ٢١ جمادى الثانية سنة ١٢١٧ من الفقير : محمد المسيرى لطف الله به
ولم أثبت هذا الخطاب أو هذا التقرير هنا لبلاغة إنشائه ، أو لأنه يصح
أن يكون من نماذج الكتابة فى ذلك العهد ؟ فقد كان فى كتاب تلك الفترة
من يحسن أن يكتب أفضل من هذا . وإنما ذكرته لأنه يدل على أن نابوليون
وهو بمصر قد جذب إليه بعض القلوب ، وأعجب بمواهبه رجال لا بأس
بفضلهم . على أن ما ذكره المسيرى فى خطابه ليس فيه من الشؤون الداخلية
بالديار المصرية ما يفيد بونابرت كثيراً . وإنى لألمح من خلاله أنه خطاب
(١) هو أحمد باشا الجزار والى عكة .

استهناح ، أكثر منه تقرير يبين الأمور الجارية في مصر بإيضاح .

٤ — عود الى المولد

وفي ربيع الأول من سنة ١٢١٨ هـ ١٨٠٣ م شرعوا في إقامة معالم المولد النبوي الشريف . قال الجبرتي : في يوم الجمعة ١١ منه كان المولد النبوي ، ونادوا بفتح الدكاكين [ليلا] ووقود القناديل ، فأرقدت الأسواق تلك الليلة واليلة قبلها ، ولكن دون ذلك .

قال : وأما الأذربكية فلم يعمل بها وقدة إلا قبالة بيت البكري . لاستيلاء الخراب عليها .

٥ — وصف الأذربكية قبل هرابها

قال العلامة الشيخ حسن العطار ، يصف الأذربكية قبل أن يحل بها الدمار :
أما بركة الأذربكية فهي مسكن الأمراء ، وموطن الرؤساء ، قد أحدثت بها البساتين الوارفة الظلال ، العديدة المثال . فترى الخضرة في خلال تلك القصور المبيضة ، كتياب سندس خضر على أبواب مفضضة . يوقد بها كثير من الشرج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يُدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من الشوة مخمور . ولطالما مضت لي بالمسرة فيها أيام وليالي ، هن في سمط الأيام من يتيم اللآلى ، وأنا أنظر إلى انطباع صورة البدر في وجنتها ، وفيضان لجين نوره على حافاتها وساحاتها ، والسميم بأذيال ثوب مائها الفضي أعاب ، وقد سل على حافاتها من تلاعب الأمواج كل قرضاب ، وقام على منابر أدواحها في ساحة أفراحها مُغرّدت الطيور ، وجالبات السرور . فلنذ العيش بها موصول ، وفيها أقول :

بِالْأَزْبَكِيَّةِ طَابَتْ لِي مَسْرَاتُ
حَيْثُ الْمِيَاهُ بِهَا وَالْفُكْ سَابِجَةٌ
وَقَدْ أُدِيرَ بِهَا دُورٌ مُشِيدَةٌ
قَدَّتْ عَلَيْهَا الرُّوَابِي خُضْرُ سُنْدُسِهَا
وَالْمَاءُ حِينَ سَرَى رَطْبُ النَّسِيمِ بِهِ
كَسَابِغَاتُ دُرُوعٍ فَوْقَهَا نُقْطُ
مَرَاتِعَ لُظْيَاءِ التَّرْكِ سَاحَتِهَا
وَلِلنَّدِيمِ بِهَا عَيْشٌ مُتَجَدِّدُهُ
يُرُوحُ فِيهَا صَرِيحَ الْعَقْلِ حِينَ يَرَى
وَلِلرَّفَاقِ بِهَا جَمْعٌ وَمُفْتَرَقٌ
وَأَذَلِّي مِنْ بَدِيعِ الْإِنْسِ أَوْقَاتُ
كَأَنَّهَا الزُّهْرُ تَحْوِيهَا السَّمُوتُ
كَأَنَّهَا لِبَدُورِ الْحَسَنِ هَالَاتُ
وَعَرَّدَتْ فِي نَوَاحِيهَا حَمَامَاتُ
وَحَلَّ فِيهِ مِنَ الْأَدْوَاكِ زَهْرَاتُ
مِنْ فِضَّةٍ وَاحْمَرَّارِ الْوَرْدِ طَعْنَاتُ
وَالْأَسْوَدُ بِهَا فِيهِنَّ غَيْضَاتُ
أُبْدَى الزَّمَانِ وَلَا تُخْشَى جُنَايَاتُ
عَلَى مُحَاسِنِهَا دَارَتْ زُجَاجَاتُ
لَمَّا غَدَتْ وَهِيَ لِلنَّدَمَانِ حَانَاتُ

عصر الدولة المحمدية العلوية

١ - من أعمال محمد على ومزاياه :

بعد أن رحلت بقايا رجال الحملة الفرنسية، وأخلت الديار منها ، ظلمت الحال في مصر مضطربة ، والشؤون غير مستقرة ، ولإدارة مرتبكة ، والنفوس قلقة ، والقلوب وجلة ، والأمن مزعزع الأركان ، والعن تشور وتحمد في كل مكان . إلى أن شامت إرادة الله تعالى أن تنهض مصر من كبوتها ، وأن تسترد نشاطها وحيويتها ، وأن تسير الأمة المصرية غيرها من الأمم الناهضة في سبل التقدم والعلاء . فأتاح لها ذلك العبقري الفذ ، نابغة الأدهار ، وصفوة الأجيال والأعصار ، (محمد على الكبير) فهياً الله لها على يديه عوامل الرقي والفلاح ، ومهد لها طرق العزة والنجاح ، فدفعها بقدم ثابتة إلى الأمام ، وخطا بها خطاً واسعاً في منافسة الأمم في التفاضل والإقدام ، وبعث فيها روح الحياة القيومية ، وأحيا فيها موات النهضة الكريمة ، وقادها بعزيمة ماضية إلى قمم الرفعة والسمو ، وشعثات العز والمجد .

كان محمد على من أئرد الدهر حقاً ، ومن نوابغ الرجال بلا منازع ، وإن كان بعضهم يحب أن يقرن به رجالاً من مشاهير عصره ، أمثال : عبد القادر الجزائري ، وبشير الشهابي ، وعلى تبه دلي ، وشامل الداغستاني ، وأحمد الجزار . والحق أنه كان يفوق هؤلاء بسعة مواهبه ، وامتداد آفاق تفكيره . بل كان أكثر توفيقاً وأبقى أثراً ، من نابوليون نابغة عصره الفريد في الغرب . وأرى أنه ليس لمحمد على من شبيهه في أبطال التاريخ الإسلامي ، إلا أن يقرن

بأمثال عبد الملك بن مروان ، وأبي جعفر المنصور ، ومن جرى على نهجهم ،
في إقامة الدول ، وتأسيس الممالك .

٢ - محمد علي وإبراهيم :

وما من الله به على محمد علي أن وهبه خير الأولاد ، وصفوة الأعضاء :
إبراهيم . فكان قطب رحي حياته ، ويده اليمنى في حروبه وغزواته . ولم
يكن إبراهيم باشا بأقل من والده في مزاياه ومواهبه ، ولا بدونه في رسم
خطه ومذاهبه . وهذا بلا شك توفيق من الله تعالى لم يتيأ لكثير من أفراد
الرجال . وما أحراهما بقول شاعرة العرب (الخدساء) في وصف أبيها
وأخيها حيث تقول :

جَارَى أَبَاهُ فَاقْبِلَا وَهَمَا	يَتَعَاوَرَانِ مُسْلِمَةً الْحُضْرَ
حَتَّى إِذَا نَزَتْ الْقُلُوبُ وَقَدْ	لُزَّتْ هُنَاكَ الْعُذْرُ بِالْعُذْرِ
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ إِلَيْهِمَا	قَالَ الْمَجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرَى
بَرَزَتْ صَحِيفَةُ وَجْهِهِ وَالِدِهِ	وَمَضَى عَلَى غُلُوبَائِهِ يَجْرَى
أَوَّلَى فَأَوَّلَى أَنْ يُسَاوِيَهُ	لَوْلَا جَلَالُ السِّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا	صَقْرَانِ قَدْ حَطَّآ إِلَى وَكْرِ

٣ - ولوية محمد علي على مصر :

وكان تمام أمر ولاية محمد علي على الديار المصرية في سنة ١٢٢٠ ١٨٠٥ م
وذلك باجماع أهل الرأي واختيار العلماء والمشايخ ، والوجوه والأعيان ، ورؤساء

العساكر ومقدمى الجيش ، وموافقة الباب العالى .

وهذه أول مرة فى تاريخ مصر يحدث فيها اختيار الحاكم بإجماع الأمة ،
بمختلف طبقاتها ، ورضى الرأى العام فيها .

ولما استقر الأمر لمحمد على ، واستتب له النفوذ ، شرع فى أعمال
الإصلاح بهمة جبارة لاتعرف السكل ، وإزالة أسباب الفساد بعزيمة بعيدة
عن عوامل الملل . فضرب على أيدي العابثين ، وأباد رؤس التوثب من
الطامحين ، وما زال يعمل فى جد واجتهاد حتى أعاد الأمن إلى نصابه ، وأقر
السلم فى قرابه . ثم اتجه نحو الأسباب الكفيلة بنهوض الأمة إلى مصاف
الأمم الكريمة ، وبذل جهوده الموفقة فى جلب كل ما يفيد البلاد وينفع
العباد ، ويعم الرعايا بالخير والإسعاد : من علوم عصرية ، وصناعات مدنية ،
ونظم حديثة ، وعلماء أكفاء . مما هو مفصل فى تاريخه المجيد ... كما نظر فى
مرافق الأمة من جهة الحكومة وأنظمتها ، وما يجب أن تكون عليه من
الحكمة والسداد وحسن الإدارة ، حسب ما أرشدته إليه فطنته ، وأملتة
عليه خبرته . فصرف من على همته ماذر به شؤونها ، وأحسن تقسيم
مسئولياتها ورتب أمورها ، وساسها بالحزم والإقدام ، وأجرى أحوالها
على الضبط والإحكام . ماواتته الظروف وأعانتة الوسائل واقتضاء الروح
العام . ثم دفعها بقوة قاهرة إلى الأمام .

وكذلك توجهت إرادته القوية ، إلى الشؤون الإدارية ، والحربية ، والعلمية
والطبية ، والأدبية ، والتعليمية . تلك الشؤون التى تنشئ الرجال ، وتربى طبقات
الأمة . فوجهها إلى الأهداف الصالحة . مما لم يسبقه إليه أحد من قبل .

وقد عُنِيَ عناية خاصة بنشر أعلام الأمن في أقاصى البلاد وأدانها ،
وإذاعة الطمأنينة في ربوعها ونواحيها . فأمن الناس على أموالهم وأنفسهم ،
وثمرات أعمالهم ، ومنتجات جهودهم . وبهذا كله جعل الأمة المصرية في قليل
من الزمن ، دولة تفوق بخصائصها ومزاياها : الدولة العثمانية ، في كثير من
دواعى الثبات والاستقرار ... وكان في إحياء هذه الأمة المصرية الكريمة
وبعضها من رقدة الخمول ، وتمهيده لها مختلف السبل إلى العزة القومية ، والكرامة
الوطنية : المثل المضروب على وجه الدهر ، والآية الباقية على الأيام .

العناية بالمولد النبوى

٤ — المولد في عهد محمد علي :

وكان مما عُنِيَ به محمد علي باشا من الأمور التي تمنحها الأمة الكثير من
اهتمامها ، والاحتشاد لها ، والتحفى بها : التفكير في إحياء الاحتفال بذكرى
المولد النبوى الشريف . فلما حان وقته أمر بإقامة معامله ، وأن تجرى الأمة في إظهار
مراسمه على ما جرت به عادتها ، وبالقدر الذى تسمح به الظروف وتقتضيه الأحوال
قال الجبرتي : في يوم الثلاثاء ١١ من ربيع الأول سنة ١٢٣٠ ١٨١٥ م
كان المولد النبوى ، فنودى في صبحه بزينة المدينة وبولاق ومصر القديمة .
ووقود القناديل ، والسهر ثلاثة أيام بلياليها . فلما أصبح يوم الأربعاء ،
والزينة بحالها إلى بعد أذان العصر ، نودى برفعها ... ففرح أهل الأسواق
بإزالتها ورفعها . لما حصل لهم من التكاليف والسهر في البرد والهواء .
خصوصاً وقد حصل في آخر ليلة رياح شديدة باردة .

قلت : إن النداء بإحياء ثلاث ليال من ليلة ١٢ من الشهر جرى على

غير المؤلف ، فكان خطأ . ولهذا استدرك هذا الخطأ بإلغائه في اليوم التالي
وكان في هذا الاستدراك ، رافة بأهل الأسراق .

وصف الاحتفال بالمولد النبوى فى القاهرة

سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م

وفى هذا العهد كان العالم الإنجليزى (ادوارد وليم لين) يزور القاهرة ،
فشاهد الإحتفال بالمولد النبوى ، فوصفه وصفاً شيقاً ، فكان طرفه من
أحسن الطرف ، وجاء تحفة من أجمل التحف . وقد أثبتته فى كتابه « أحوال
المصريين الحديثين وعاداتهم » فرأيت من الخير إيراد هذا الوصف فى كتابى
هذا لاطلاع قراء العربية عليه ، وإتماماً للفائدة العائدة منه . وقد تفضل
حضرة صديقى المفضل الأستاذ محمد الصادق حسين بك ، بنقله عن الإنجليزية
إلى العربية . فله جزيل الشكر وعظيم الأجر .

قال العلامة ادوارد وليم لين :

« فى أول ربيع الأول ، الشهر الثالث من شهور السنة الهجرية ، يبدأ
الاستعداد للاحتفال بمولد النبى ، وأكبر ساحات هذا الاحتفال شأناً : الجزء
الجنوبى الغربى لذلك الفضاء الواسع المعروف ببركة الأزبكية . وهو فضاء
يكاد ينقلب كله فى موسم الفيضان إلى بركة . وفى هذه الحالة يكون الاحتفال
على حفافى البركة . ولقد كان الحال كذلك لعدة سنين مضت . لكن جفاف
البركة فى هذه السنة ، وفى موعد المولد ، جعلها الساحة اللائقة بالاحتفال .

« فى هذه الساحة أقيمت حيوانات كثيرة ، جلها للدراوش . وفيها
يجتمعون كل ليلة للقيام بحلقات الذكر ، مادام الاحتفال بالمولد . وبين

هذه الصيوانات ينصب «صارى» يشبث بالحبال ، ويعلق فيه من القناديل اثنا عشر ، أو أكثر . وحول هذا الصارى تقوم حلقة الذكر . وهى تتكون عادة ، من نحو خمسين أو ستين درويشا .

«وعلى مقربة من حلقة الذكر ينصب «القائم» وهو مكون من أربعة «صواري» فى خط مستقيم ، بين كل اثنين منها مدى بضع ياردات ، وقد شدت بينها ، ثم إلى الأرض تحتها ، حبال عدة ، علق بها القناديل الكثيرة ، فى أوضاع مختلفة ، وأشكال متنوعة ، يراها الرأى فى شبه أزهار ، وفى صور آساد ، وفى هياآت أخرى متناسقة . ومنها ما ترسم به كلمات كاسم الله ، أو اسم النبى ، أو كلمة التوحيد ، أو غير ذلك من الكلمات المأثورة . وقد تكون مجرد أشكال للزينة .»

«وفى اليوم الثانى من الشهر ، ينتهون من إقامة معالم الاحتفال ومعداته . فى العادة . ثم يشرعون فى اليوم التالى ، فى مظاهر الإحتفال ليلا ونهارا ، إلى الليلة الثانية عشرة من الشهر . وهى فى طريقة الحساب الإسلامية : الليلة السابقة لليوم الثانى عشر ، وهى ليلة المولد الكبرى . فى تلك الأيام التسعة والليالى التسع ، تحتشد الجوع فى الأربكية .»

«وأنا أدون ملاحظاتي هذه فى أثناء المولد ، فأصف احتفال هذه السنة ، سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م ، وأذكر بضع أمور اختلف فيها احتفال هذا العام عن احتفالات الأعوام السابقة .»

«فى أثناء النهار يتسلى الناس ، فى الساحة الكبرى ، بالاستماع إلى الشعراء ، وهم رواة «قصة أبوزيد» وبالتفرج على الحواة و«الخلايص» وغيرهم .

أما الغواني فقد أكرهتهم الحكومة ، من عهد قريب ، على التوبة وترك مهنتهن من رقص ونحوه . فلا أثر لهن في احتفال هذه السنة . وكن في الموالد السابقة من أكثر العاملين في الاحتفال اجتذابا للبتفرجين . وفي عدة أماكن من الشوارع المجاورة لساحة الاحتفال ، أقيمت « مراجيح » قليلة و « نصبات » لبيع الحلوى كثيرة .

« وفي بعض الاحتفالات الماضية كنت ترى من يلعبون على الجبال من « الغجر » لكن لا أثر لهؤلاء في مولد هذا العام . »

« أما في أثناء الليل فتضاء الشوارع المحيطة بساحة المولد ، بقناديل كثيرة تعلق - غالبا - في فوانيس من الخشب . ومن دكاكين المسأكولات ونصبات الحلوى ما يبيت مفتوحا طول الليل . وكذلك القهاوى التي قد يكون في بعضها ، وفي غيرها من الأماكن : شعراء ومحدثون ، ينصت إليهم كل من أراد من المارة . »

« وفي هذا الحى - في كل ليلة من ليالى المولد - تمر مواكب الدراويش ، بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر ، وهم في مواكبهم الليلية هذه يحملون « مناور » وهى عبارة عن عصى طويلة فى أعلاها عدد من القناديل . وذلك بخلاف مواكبهم بالنهار ، فإنهم يحملون فيها رايات . والموكب من مواكب الدراويش ، يسمى فى عرفهم « إشارة الطائفة » سواء أكان من مواكب النهار بالرايات ، أم من مواكب الليل بالمناور . »

« وهؤلاء الدراويش ، أكثر ما يكونون ، من الطبقات الدنيا . وليس لهم زى خاص يمتازون به . بل جلهم يلبسون العاثم المعتادة . ومنهم من يقتصر

على الطربوش أو اللبدة . وغالبهم يلبس القمصان الزرق ، أو الزعابيب . وهو
زيهم الذى يظهرون به عادة فى أعمالهم اليومية ، أو فى دكاكينهم .
« أما فى الليلتين الأخيرتين فيكون المولد أكثر زحاماً ، وأسباب التفرج
والمسليات أعظم منها فى الليالى السابقة » .

« وسأصف فيما يلى مشاهدته فى الأولى من هاتين الليلتين :
« كان القمر عالياً يبت الحياة فى مناظر الاحتفال . فذهبتُ إلى الشارع
المعروف بسوق البكرى ، تبع بركة الأزبكية ، لأشاهد ذِكْراً قيل لى إنه
سيكون خير أذكّار تلك الليلة . وكانت الشوارع التى اخترقناها غاصة بالجماهير
وقد سُمح للبارة بالتجول دون أن يحملوا فوانيس . أما النساء فلم يكدن يكون
لهن أثر بين المارة . وهذا مألوف بالليل . ولما وصلتُ إلى محل الذكر
فى سوق البكرى ، وجدته أكثر أما كن المولد ازدحاماً ، ووجدت به نجفة
ضخمة قد علقت فى وسطه » .

(وهذه النجفة عبارة عن شمعدان ، بل عدة شمعدانات ، أكثر موادها
الزجاج . وهى طبقات بعضها فوق بعض . وقد وُضعت بكيفية تجعلها
كأنها شمعدان واحد)

وكان بالنجفة ما يقرب من مائتى قنديل أو ثلثمائة . وحول النجفة كثير
من الفوانيس الخشبية ، قد تدلت من كل منها عدة قناديل .

مولد الشيخ العشماوى

« ولم يكن الغرض من هذه الأنوار كلها مقصوراً على الاحتفال بالمولد
النبوى . بل لوحظ فيها أنها قريبة من زاوية فيها ضريح (الشيخ درويش
(١٢)

العشماوى) وكانت هذه ليلة مولده . وعند زاويته هذه تقوم حفلة ذكر كل ليلة جمعة . ولكنها لا تبلغ من الفخامة ما بلغت هذه الليلة ، بمناسبة المولد النبوى .

« وما لفت نظرى أنى شاهدتُ كثيراً من مسيحي القبط بعنائهم للسود . ولما كنت لم أكد أرى منهم أحداً فى غير هذا المكان تلك الليلة ، وكنت أسمع الباعة يكثرُونَ من الجهر بقولهم « ملحة فى عين اللى ما يصلى على النبى » فكنت أحسب أن المسيحيين واليهود يكونون معرضين للأذى أو للإهانة على الأقل ، فى هذا الوقت الذى اشتدت فيه حماسة المسلمين ... وقد سألت عن السبب فى وجود كثير من الأقباط فى حفلة الذكر هذه ؟ فعلمتُ أن قبطياً منهم أسلم ، وهو الذى تبرع بكل نفقات الاحتفال بمولد الشيخ العشماوى ، هذا ، وقد كان للشيخ العشماوى عند الناس مقام كبير . وكان مجذوباً يعمل ما يعمل المجانين . وكثيراً ما كان يدوس على الخبز وغيره من المأكولات أو يقذف بها فى القاذورات . ثم يأتى من الأعمال مالا يبيحه الشرع ... ! ومع هذا ، فقد كان معدوداً من كبار الأولياء ... ! والناس يعدون مثل هذه الأعمال أثراً من آثار انصراف النفس إلى الروحانيات ... ! »

« أما وفاة الشيخ فكانت من نحو ثمانية أعوام . »

« جلس الذكيرة ، وكانوا نحواً من ثلاثين « مربعين » على حصر قريبة من البيوت ، فى جانب من الشارع . وكانوا حلقة فى شكل مستطيل ، وفى داخل الحلقة ، فى وسط الحصر ، أقيمت ثلاث شمعات كبيرة ، طول كل واحدة منها نحو أربعة أقدام . وقد أثبتت فى شمعدان قليل الارتفاع .

وكان أغلب الذكيرة (أحمدية) من الطبقات الدنيا، وفي زى حقير، وعلى كثير منهم عمامة خضر. وقد جلس في أحد طرفي الحلقة أربعة من المشدين معهم صاحب «ناي».

«أما أنا فقد حصلت، من قهوة قريبة من الحلقة، على كرسي من الجريد وبشيء من المجهود أعانني عليه خادمي، تمكنت من أن أجد لي محلاً مع المشدين وهناك قعدت أشهد مجلساً كاملاً من مجالس الذكر. وها أنا ذا أصفه وصفاً كاملاً بقدر المستطاع، كي يوجد في ذهن القارئ صورة من مجالس الذكر الذي تألفه القاهرة وترضى عنه،

«بدأ الذكر في نحو الساعة الثالثة - أي بعد الغروب بثلاث ساعات - واستمر ساعتين ... بدأه الذكيرة بقراءة الفاتحة معاً، بعد أن قال شيخهم أورتيسهم بصوت مرتفع «الفاتحة» ثم تلوا مترنين، الدعاء الآتي، وهو:

«اللهم صل على سيدنا محمد في الأولين، وصل على سيدنا محمد في الآخرين، وصل على سيدنا محمد في كل وقت وحين، وصل على سيدنا محمد في عليين إلى يوم الدين، وصل على الأنبياء والمرسلين في السموات والأرضين. ورضى الله تبارك وتعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن أوليائه المقربين. وحسبنا الله ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يا واسع المغفرة يا أرحم الراحمين. اللهم آمين،

«ثم لازموا الصمت ثلاث دقائق أو أربعاً، ثم أخذوا في قراءة الفاتحة سرا،

«أقول: وهذه المقدمة لمجالس الذكر، بما اعتاده كل دراويش مصر

على اختلاف طوائفهم»

«بعد هذه المقدمة ، شرعوا في الذكر وهم جلوس ، على الوصف المتقدم ،
يلشدون على مهل : (لا إله إلا الله) ^(١) وهم في إنشادهم هذا ينغضون
رؤوسهم ، ويثنون أجسامهم مرتين في كل مرة يلشدون فيها : (لا إله إلا الله)
ولبشوا على هذه الحال ما يقرب من ربع الساعة . ثم ردّدوا هذه العبارة ،
هذه المدة أيضاً ، ولكن بنغمة سريعة ، تصحبها حركات أسرع . وفي خلال
ذلك يُلشد الملشدون ، مرشحات أو قصائد ، بأنغام مناسبة لأنغام الذكر .
وهذه القصائد والمرشحات من قبيل أنشودة سليمان وموضوعها ، في العادة ،
حب النبي ومدحه ^(٢) ،

«وكان يتخلل الذكر صياح أحد الملشدين بقوله (مدد) ومعنى مدد ،
في هذا المقام ، استمداد العون الروحي من الله . وبعد أن فرغ الذكيرة
من شأنهم أخذوا يرّدّدون قول (لا إله إلا الله) مدة تقرب من المدة التي
قدمت ذكرها ، ولكن بنغمة جديدة . يبتدئون ببطء ثم يسرعون ^(٣) ثم

(١) وهنا وضع الكاتب طريقة الإنشاد في نوتة موسيقية .

(٢) وهنا قال الكاتب : وإنّ مورد هنا ترجمة موشح من تلك الموشحات ، وهي
كثيرة . وإنما أترجم واحداً منها تريك أسلوبها . وهي مأخوذة من كتاب حوى جملة
من تلك القصائد اشتريته في هذا المولد من درويش يرأس كثيراً من مجالس الذكر .
وهو الذي اختار هذه القصيدة التي أترجمها لأنها مألوفة في الأذكار . وقد أنشدت
فعلاً في المجلس الذي أنا بصدد وصفه . ثم ترجم القصيدة شعراً باللغة الإنجليزية
تحزى فيه التقرب من الأصل العربي بقدر ما استطاع . ثم اتبعها بغيرها وذكر وجه
الشبه بينهما وبين أنشودة سليمان ثم مضى في الوصف .

أقول : يريد بأنشودة سليمان قطعة من نشيد الإنشاد الوارد في بعض أسفار التوراة
المنسوبة لسليمان بن داود عليهما السلام .

(٣) وهنا رسم الكاتب نوتة موسيقية بطريقة الإنشاد .

نهضوا وقوفا بالترتيب الذى كانوا عليه وهم قعود ، وردّدوا العبارة نفسها
بنغمة أخرى . وهنا انضم إليهم عبد أسود طويل القامة ، حسن البزة ،
حملنى مظهره على أن أعرف من يكون ؟ فعرفت أنه خصى من خصيان
الباشا ^(١) ثم أخذ الذكيرة يُردّدون عبارة (لا إله إلا الله) وهم لا يزالون
وقوفاً ، بنغمة عميقة ، وصوت أجش ، شدّدين النبر على (لا) وعلى المقطع
الأول من آخر لفظ الجلالة (الله) وأحسبهم كانوا يبذلون فى النطق شيئاً
كثيراً من الجهد . فكان صوتهم أشبه بالصوت الذى تسمعه إذا ضربت على
حافة طنبور . وكان كل ذكر يترنح إلى اليمين ثم إلى الشمال ، كلما ردد
(لا إله إلا الله) . .

« أما الخصى الذى أشرنا إليه فقد صار ، فى هذا الدور من أدوار
الذكر ، إلى حالة مايسمونه « ملبوس » أو « مطور » فكان يُلوّح بيديه
وينظر إلى أعلى ، وقد تجهم وجهه تجهماً خفيفاً ، وأخذ يصيح بأعلى صوته ،
فى عنف وسرعة ، بقوله : الله . الله . الله . الله . ل . ل . ل . ل .
ل . ل . ل . ل . ل . ل . ل . لاه . ياعمى . ياعمى . ياعمى . عشاوى ،
يا عشاوى . يا عشاوى . يا عشاوى . ثم ضعف صوته تدريجاً ... ثم خر
صريعاً ... بالرغم من أن الدرويش الذى كان بجانبه كان يسنده . وأرغى ،
وأغض عينيه ، واضطربت أعضاؤه ، وأمسك إبهاميه بأصابعه ... لقد
انتابته نوبة لا يظن من يراها أنها مفتعلة ، بل هى بلا شك نتيجة انفعال

(١) الباشا المراد هنا : هو محمد على الكبير . وكان فى ذلك التاريخ يوالى
حروبه بالشام .

دينى شديد ، ولم يدesh لها أحد من الحاضرين . لأن أمثالها فى مجالس الذكر كثيرة الوقوع .

« فى هذا الدور من أدوار المجلس بدت على الذكرية أمارات الانفعال . فقد كانوا يذكرون بسرعة متزايدة ، ويديرون رؤسهم بعنف ، وينزلون بجميع أجسامهم ، بل منهم من كان يقفز ... وأطوار الخصى مرات ... وقد لاحظت أن النوبات كانت تلتابه عادة عقب إنشاد الموشد يدياً أو يديتين ، يجهد نفسه وهو يلشد هما ، فى تهيج سامعيه . وفى الحق أن الإنشاد كان فى ذوقى مما تستريح إليه النفس »

« وقبيل اختتام المجلس أطور جندى شارك فى مجلس الذكر من أوله فأخذ يزجر بكيفية مزعجة ، ويحرك رأسه بعنف يمنية ويسرة . ومما يثير العجب خاصة ، بُعد ما بين حالة الذكرية فى ختام المجلس ، وحالتهم فى مبدئه تلك حالة مجهود عنيف ، وهذه حالة وقار ورزاة وهدوء ،

« هذا ، وقد جُمعت أثناء الذكر نقود للبلشدين . أما الذكرية فلا أجر لهم ، ولقد رأيت إشارة مرت بنا فى مجلس الذكر الذى وصفته ، وهو ذكر يستمر طول الليل حتى أذان الفجر ، ولا يستريح الذكر إلا بين كل دورين . وفى فترة الاستراحة يتناولون القهوة عادة ، ومنهم من يدخن ،

عود إلى المولد النبوى

« انتصف الليل قبل أن أتحوّل من هذا المكان إلى بركة الأزبكية ، فلما وصلت إليها وجدت بها أثراً غريباً لضوء القمر ، ونور القناديل ، وإن كان كثير من قناديل (القائم) وقناديل (الصارى) وقناديل الصراوين قد أطفئت

وشاهدت كثيراً من الناس نياماً قد افترشوا الأرض يأخذون قسطهم من راحة الليل ، وكان ذكر الدراويش حول الصاري قد انتهى ، فاعتمدت فيما بلى من وصفه على مشاهدته في الليلة التالية «
« هذا ، وبعد أن شاهدت كثيراً من مجالس الذكر في الصوارين عدت إلى بلتي لأنام ،

« وفي الغد ، وهو اليوم السابق لليلة السكري ، ذهبت إلى الأذربكية قبل الظهر بنحو نصف ساعة ، فلم أجد خلقاً كثيراً هناك ، ولم يكن في ساحة المولد كثير من دواهي تسليتهم . فلم أر هناك من الحواة والخلايص المضحكين والشعراء ، سوى اثنين أو ثلاثة ، حول كل منهم حلقة صغيرة من المتفرجين والسامعين ... لكن لم تلبث الجوع أن زادت شيئاً فشيئاً . وأحسب أن ذلك راجع إلى رغبتهم في مشاهدة منظر رائع تحتشد له كل عام ، في مثل هذا اليوم ، جموع النظارة . ذلك منظر (الدوسة) وقد آن لي أن أصفه ،

وصف الدوسة

« اليوم يوم الجمعة . وقد ذهب شيخ الطريقة السعدية - السيد محمد المنزلاوي - إلى مسجد الحسين - وكان هو خطيبه - ليؤدى صلاة الجمعة فيه . بعد أن قضى - كما يقال - شطراً من الليلة السابقة في الخلوة ، مصلياً داعياً تالياً للقرآن . فلما قضيت صلاته وخطبته ، قصد إلى بيت الشيخ البكري ، وهو شيخ مشايخ الطرق الصوفية في القطر المصري . ويده قبله بركة الأذربكية ملاصق للبيت القائم في الزاوية الجنوبية الغربية ،

« وفي أثناء مسير السيد المنزلاوي من المسجد الحسيني إلى بيت البكري ،

« لم يبدُ على أحد من ديسوا على هذا النحو ، ما يدل على أنه قد لحقه من الحصان أذى ، بل كل منهم كان يثب بمجرد مرور الحصان عليه ، ويسير خلف الشيخ . ولاحظت أن كلا منهم أصابه من الحصان دوستان ، واحدة من رجله الأمامية ، وأخرى من رجله الخلفية ،

« ويقال أن هؤلاء الدراويش وشيوخهم أيضاً ، يتلون في اليوم السابق ليوم الدوسة أوراداً ودعوات تعينهم على احتمال دوسة الحصان ولا يلحقهم منها ضرر . وأن غيرهم ممن لم يعتدوا بتلك الأوراد والدعوات لما عرضوا أنفسهم للدوسة ، قُتلوا أو أصيبوا بإصابات خطيرة . وحدث ذلك غير مرة ، في زعمهم . فهم لهذا يعدون عملية الدوسة كرامة لشيخ السعدية . ويزعمون أن ثاني شيوخ السعدية ، أي خليفة الشيخ الأول مؤسس الطريقة ، كان يدوس بحصانه أكواماً من الأواني الزجاجية فلا تسكسر منها آنية . ومن الناس من يُصر على أنهم يخلعون حدوة الحصان قبل هذه العملية . لكنني أحسبني لاحظت أن ذلك لم يكن الواقع . ومنهم من يقول إن الحصان يدرّب تدريباً خاصاً ، فإذا صح ذلك لم يكن تعليلاً إلا لأقل حوادث الدوسة غرابة . أعني كوز الحصان يدرّب على أن يدوس الناس . لكن المعروف أن الحصان الذي يستعمل في الدوسة ينهر من دوس الناس نفوراً بيناً ،

« هذا ، وقد لبث شيخ السعدية الحالي عدة سنين يرفض القيام بالدوسة ، ثم ألحوا عليه حتى أناب غيره في القيام بها . وقد نجح النائب ، وكان مكفوفاً ، لكن الشيخ نزل بعد ذلك على حكم دراويشه ، وواظب على أن يتولى هو الدوسة ، .

« وبعد أن فرغ الشيخ من هذه العملية العجيبة ، دون أن يقع حادث ما ،
ولو طفيفاً على ما يظهر ، دخل حديقة بيت البكرى راكباً ، ثم دخل البيت
وليس معه إلا القليل من الدراويش ... وقد انضمت إلى من دخلوا البيت
بمساعدة خادم كان عند الباب ، فرأيت الشيخ قد ترجل وجلس على سجادة
فُرشت على البلاط إلى جانب أحد جدران التختبوش في حوش البيت .
جلس منحنيًا مطرقًا تترقق عيناه بالدموع ، ولسانه لا يكاد يكف عن البسبسة
وكنت واقفاً قريباً منه أكاد أكون إلى جانبه . وكان يجلس معه ثمانية
أشخاص . أما الدراويش الذين دخلوا معه - وكانوا نحو العشرين - فقد
وقفوا أمامه على حُصر فُرشت لهم في شكل نصف دائرة . وأحاط بهم نحو
خمسين أو ستين شخصاً . ثم خرج من نصف الدائرة ستة دراويش وتقدموا
قدر ياردين ، نحو الشيخ وأخذوا يذكرون الله بقولهم (الله حي) ويضربون
على الباز ، كل قد أمسك البازة بيدسراه قابضاً على الجزء الثاني من أسفلها
ويضرب عليها بسير قصير من الجلد . وهم على ذلك بضعة دقائق إذا بعبد
أسود قذف بنفسه وسط الدراويش وقد (أطوّر) وصار (ملبوساً) وأخذ
يُلَوِّحُ بيديه ويصيح : الله . لا . لا . لا . لا . لا . فسنده بعض الحاضرين
ثم لم يلبث أن أفاق وعاد إلى صوابه . ثم أخذ الدراويش جميعاً يذكرون
ثانية وهم وقوف في شكل نصف دائرة ، وبعضهم يقول (الله حي) وبعضُ
(يا حي) وهم في أثناء ذلك يتمايلون يميناً وشمالاً ، وظلوا على هذا الحال
نحو عشر دقائق . ثم أخذوا يصيحون : دايم . يا دايم . وهم على حالتهم
من الوقوف والحركات نحو عشر دقائق أيضاً ،

«وهنا شعرت بدافع ، لا قِبَل لي بمقاومته ، يدفعني الى أن أجرب الذكر معهم ، دون أن يفتنوا إلى أني دخيل فيهم ، فدخلت في صفهم ، واشتركت في الذكر ، ونجحت إلى حد أني لم ألفت أنظارهم ، ولكنني قد شعرت بحرارة شاعت في جسمي لم أقو على احتماها ... »

«وبعد انتهاء الذكر أخذ أحد القراء يرتل عشرًا من القرآن بتجويد حسن . غير أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الذكر ، وظلوا فيه نحو ربع الساعة ثم أخذ أغلب الحاضرين في لثم يد الشيخ ، وصعدوا إلى الطابق العلوي ،

أكل الشعابيين

«كان من عادة بعض السعدية ، في مثل هذا الموسم ، أن يبدؤا بعد الدوسة ، بأكل الشعابيين الحية . تلك العملية التي شاعت عنهم . وكانوا يأكلونها في بيت البكري ، على مرأى من جماعة مختارة . لكن شيخهم الحالي قد بذل مجهوداً حتى أبطل هذه العادة في العاصمة منذ عهد قريب . وكان مصيباً فيما فعل . لأنها ليست من الإسلام في شيء ، فقد حرم فيما حرم من الحيوان أكل الشعابيين ، وذلك فضلاً عن أنها مما تشتمل منه النفوس وتنفر الطباع ...

«ولقد كان السعدية ، عند زيارتي الأولى لمصر ، كثيراً ما يأكلون الشعابيين والعقارب ، وكانوا قبل أكل الشعابيين ينزعون أنيابها الساقة ، أو يمنعون أذاها بثقب فكها الأعلى والأسفل وربطهما من الجانبين بخيط من الحرير حتى لا تتمكن من النهش . أما الشعابيين التي يحملونها في المواكب دون أن يأكلوها فكانوا يخزموها بحلق من الفضة بدل خيط الحرير . وكان السعدى إذا أكل ثعباناً حياً - دفع إلى ذلك أو زعم أنه دفع إليه ، بشبه جنون -

فكان يضغط بطرف إبهامه ضغطاً شديداً على عنق الثعبان دون الرأس بنحو
بوصتين . ثم يأكل الرأس والجزء الذى يليه إلى المكان المضغوط . وذلك
على ثلاث دفعات أو أربع ، ثم يرمى بسأره ،

«على أن تداول الثعابين ليس دائماً سليم العاقبة ، ولو كان المتداول
من السعدية . فقد حدث منذ بضع سنين أن درويشاً منهم كان يسمى (الفيل)
لضخامة جسمه وقوة عضله . كان أشهر آكلي الثعابين فى عصره ، بل يكاد
يكون أشهرهم فى كل عصر ، رغب فى تربية ثعبان سام وجده بين مجموعة
ثعابين جاء بها ابنه من الصحراء . فوضع الفيل هذا الثعبان فى سبت وأجاعه
أياماً ليضعفه ، ثم مديده ليخرجه ويزيل أنيابه ، فعض الثعبان إبهامه ،
فصاح مستغيثاً فلم يُعنه أحد ، ثم وجدوا ذراعه كله قد تورم واسود . فمات
بعد بضع ساعات ،

«لم يكن فى يوم الدوسة ما يستحق الذكر غيرها . وكان الاحتفال أقل
مرحاً من الاحتفالات السابقة ، لعدم اشتراك (الغوازي) فيه ،

عود إلى المولد النبوى

«وفى ليلة المولد الكبرى ذهبت إلى الساحة الرئيسية . فرأيت ذكراً
قوامه نحو ستين درويشاً حول صارى . وكان ضوء القمر كافياً لإضاءة الساحة
من القناديل . وكان الدراويش حول الصارى من طوائف مختلفة . لكن
كان ذكرهم من النوع المألوف عند البيومية . وفى أحد مجالس هذا الذكر ،
أوفى دور من أدواره ، كان الذكيرة يقولون (يا الله) ثم يرفعون رؤوسهم

وَيَصْفَقُونَ جَمِيعًا بِأَيْدِيهِمْ أَمَامَ وَجُوهِهِمْ . وَكَانَ دَاخِلَ حَلْقَةِ الذِّكْرِ خَلْقٌ كَثِيرٌ قَدْ جَلَسُوا عَلَى الْأَرْضِ . وَلَبِثَ الذِّكْرُ يَذْكُرُونَ ، عَلَى هَذَا النِّحْوِ ، مِقْدَارَ نِصْفِ سَاعَةٍ . ثُمَّ انْقَسَمُوا جَمَاعَاتٍ كُلُّ جَمَاعَةٍ مِنْ خَمْسَةِ أَوْ سِتَّةٍ . وَاسْكَنَهُمْ بِقَوَا يُكُونُونَ حَلْقَةً وَاسِعَةً . ثُمَّ أَمْسَكَ أَفْرَادَ كُلِّ جَمَاعَةٍ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كُلُّ مِنْهُمْ ، مَاعِدَا الْأَوَّلِ ، قَدْ وَضَعَ ذِرَاعَهُ الْيُمْنَى عَلَى ظَهْرٍ مِنْ يَلِيهِ يَسَارًا ، وَيَدُهُ عَلَى السِّكْفِ الْيُسْرَى ، كَتَفٍ مِنْ يَلِيهِ . ثُمَّ انْجَبَهَا إِلَى النِّظَارَةِ خَارِجَ الْحَلْقَةِ وَأَخَذُوا يَذْكُرُونَ (اللَّهُ) بِصَوْتِ أَجَشِّ عَمِيقٍ ، وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْأَمَامِ خُطْوَةً ، ثُمَّ إِلَى الْوَرَاءِ خُطْوَةً ، مَعَ تَحْرُكِ كُلِّ مِنْهُمْ قَلِيلًا إِلَى الْيَسَارِ ، فَكَانَتِ الْحَلْقَةُ كُلُّهَا تَدُورُ وَلَكِنْ ببطء شديد ، وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يَمُدُّ يَدَهُ الْيُمْنَى نَحْوَ النِّظَارَةِ خَارِجَ الْحَلْقَةِ مُشِيرًا بِالتَّحِيَّةِ . وَهَؤُلَاءِ ، أَوْ أَغْلَبُهُمْ ، كَانُوا يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَى الذِّكْرِ ، وَأَحْيَانًا كَانَ بَعْضُهُمْ يَقْبَلُ الْيَدَ الْمُتَدَبِّعَةَ إِلَيْهِ إِذَا قَابَلَتْ وَجْهَهُ ، مَتَى كَانُوا قَرِيبِينَ مِنْهُمْ .

« وَمِنْ الْعَوَائِدِ الْمُتَبَعَةِ عِنْدَهُمْ أَنْ يَسْكُتَ مَنْ فِي الصَّوَارِينِ مِنَ الذِّكْرِ ، مَتَى كَانَ الذِّكْرُ حَوْلَ الصَّارِي ،

« وَقَدْ شَاهَدْتُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مَجْلِسَ ذِكْرِ آخِرٍ . وَهُوَ تَكَرَّرَ لِمَجْلِسِ اللَّيْلَةِ الْبَارِحَةِ ، فِي سَوْقِ الْبَكْرَى ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ سِوَى الذِّكْرِ بِمَا يَجْذِبُ الْمُتَفَرِّجِينَ أَوْ السَّامِعِينَ ، غَيْرَ رَوَاةِ الْقَصَصِ ،

« وَعِنْدَ أَذَانِ الْفَجْرِ انْتَهَى الْإِحْتِفَالُ ، وَتَقَوَّضَتْ مَجَالِسُ الذِّكْرِ بَعْدَ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ بِنَحْوِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ ، مَاعِدَا الذِّكْرِ الَّذِي كَانَ فِي سَوْقِ الْبَكْرَى وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ أُزِيلَ الْقَائِمُ وَالصَّارِي وَالصَّوَارِينُ وَغَيْرُهَا ،

* * *

قلت : ومن الطبيعي أن يستمر العمل على إحياء ذكرى المولد النبوى الشريف ، والاحتفال به على الرسوم التى تجددت فى عهد محمد على باشا ، مع الافتتان بإظهار فخامته وجلاله ، والتوسع فى النفقات ، على ما جرت به العادة ، من توزيع الصدقات ، وإسداء المبرات ، وتعميم الخيرات ، والابتداع فى إقامة الزينات ، وشمول العناية به فى أنحاء البلاد ، طوال أيام أولاده ولاية مصر : إبراهيم ، وعباس الأول ، وسعيد ، وفى عهود أحفاده من الخديويين : إسماعيل العظيم الذى منح المولد من على همته ، وواسع كرمه ومروأته ما جعله غرة فى جبين الموالد التى سبقت العناية بها ، وأعاد له تلك التقاليد المحببة إلى نفوس الأمة ، والمشبعة فيها أسباب السرور والابتهاج . وكذلك كان فى عهد الخديو توفيق ، على قدر همته وعوامل ظروفه ،

٤ - المولد فى بيت البكرى

وكان لبيت السادة البكرية فى إحياء المولد النبوى ، الشأن العظيم ، والقدحُ المُعَلَّى ، والعناية الفائقة ، منذ دهر ، على ما مر بك .
قال على باشا مبارك فى خطه :

« وللسادة البكرية ، فى ظل الدولة المحمدية العلوية ، من العناية فى كل عام ، ما يتحدث بزائد شرفه الركبان ، ويفاخر به هذا الزمان على غيره من الأزمان ، لاسيما فى عهد الحضرة الفخيمة الخديوية ، وعصر الطلعة البهية التوفيقية . فإنه وصل فيها الاحتفال بأمر المولد النبوى الشريف إلى حده الأعلى ، وبلغ الاعتناء بشأنه المبلغ الأعلى .

«وذلك أنه في أوائل العشرة الأخيرة من شهر صفر الخير من كل عام ،
تصنع بمنزلهم بالخرنقش ، مأدبة فاخرة ، يدعى إليها كافة مشايخ الطرق والأضرحة
والتكيا ، والوجوه والأعيان والغدوات . فتدخل أرباب الطرق بالبيارق
رافعين أصواتهم بالذكر والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم يعين
لكل واحد من السادة الصوفية ما يخصه من ليالى المولد الشريف لإحيائه ،
«وفي اليوم الثانى تفتح المقارىء بالمنزل المذكور ، مؤلفة من نحو مائتى
قارىء [من يحسنون القراءة ويحيدون الترتيل] ويتلى أيضاً المولد النبوى
الشريف بعد حزب البكرى . ولا تزال تحيا به الليالى تلاوة وذكرًا ، بحيث
يحضر إليه كل ليلة أرباب طريقة من الطرق ، مع إيقاد الشموع الجملة
الكثيرة العظيمة ، مجتمعين جماعة جماعة ، رافعين أصواتهم بذكر الله والصلاة
على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم . يعقبهم شيخهم ، فيستقبل
بتلاوة الفاتحة ، ويخلع عليه فرجية من طرف السيد البكرى . ويؤمر بضرب
خيامه فى المكان الذى عينته الحكومة للمولد الشريف ، بحيث تكون
الخيام على شكل دائرة . ولا يزال ذلك إلى ليلة الرابع من شهر ربيع الأول .
ثم تمت بساحة المولد الشريف كل ليلة - بعد ذلك - أرباب طريقة من الطرق
التي لم تحضر بالمنزل قبل . حتى تلمهى إلى خيمة السيد البكرى . فبعد امتقبالهم
بالكيفية السابقة ، تخلع على شيخهم فرجية »

«وفي الحادى عشر من الشهر المذكور - الذى هو ختام المولد الشريف -
تزدان خيمة السيد البكرى [بتشريف] الجناب الحديوى ، ويهدى السيد
بفرو نفيس من قبله »

«وما يزيد رونق الساحة بهاء ، وحسناً وازدهار ، ما جرت به الخاصة السفية من ضرب خيام دواوينها هناك مزينة بأبهى زينة . لاسيما خيمة الحضرة الفخيمة الخديوية ، بجانب خيمة السيد البكرى المعينة له من الحكومة ، فإنها لا تزال تزدهى بالأنوار ، ويانع الأزهار ، إلى انتهاء المولد الشريف ...»

«أما خيمة السيد البكرى فإن لياليها جميع تلك المدة تكون زاهية بالتلاوة والدلائل والأذكار . باهية من أضواء الشموع بسواطع الأنوار ، زاهرة أيامها بالخيرات وأنواع المبرات ، من إطعام الطعام ، وبذل الإكرام ، لعموم الزائرين ، وجميع الوافدين ، من أى جنس كان . وكذلك تكون خيام أرباب الطرق في ليالى المولد الشريف»

«ويبلغ مقدار ما يصرف من طرف السيد البكرى في شؤون المولد الشريف ، نحو ثلثمائة جنيه مصرى . والمرتب له من الحكومة السنوية نحو ٣٥ جنياً»

* * *

قلت : هذا المبلغ الذى كان يصرف في ذلك الوقت كان يناسب تلك الحالة . أما الآن فلا يكفي لذلك أضعافه . والذى أعلمه أن الحكومة المصرية لم ترضَ على بيت البكرى بالمزيد ، على تراخى الأعوام وتطور الظروف وتنقل الأحوال . وقد تعددت له طرق الإعانات والمساعدات ، وتنوعت جهاتها . أما الاحتفال بالمولد فلا يزال على رسومه المعتادة في هذا البيت . فقد حضرت بعض لياليه في البيت المذكور بالخرنفس في عهد مشيخة السيد عبد الحميد البكرى . كما شاهدها في سراقه بساحة المولد بميدان الرصدخانة

بالعباسية ، فرأيت مصداق ما أنبته على باشا مبارك ، وأكثر منه وأنغم .
أما الشموع فقد مضى زمانها وخلفتها الأنوار الكهربائية ، التي تتلأل في سماء
الدار والسرادق كالنجوم الدرية . غير أن الشموع لا تزال توقد بها
بعض الفوانيس الخاصة بأرباب الطرق ، المصنوعة من أنابيب الصفيح
والمكسوة بالقماش الشفاف ، وهم يحملونها بين أيديهم عند مسيرهم جماعات
ويضعونها في وسط حلقة الذكر عند شروعه فيهم .

* * *

وقد اطرد الأمر على ذلك مدة الخديوي عباس حلمي الثاني ، وأيام
السلطان حسين كامل . رحم الله الجميع .

فى عهد الملك فؤاد

١ - عنايته الكبرى بالمولد :

أما فى عهد هذا الملك العظيم فؤاد الأول بن إسماعيل ، أسكنه الله
فسيح جناته ، فقد رأينا الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة ، ذكرى مولد
النبي عليه الصلاة والسلام ، وبفضل عنايته ، وكريم رعايته ، رحمه الله ،
بلغ الغاية التى لا ترام ، من الإجلال والاعظام ، وتناول الذروة العليا من
البهجة والجمال ، والمنزلة السامية من العظمة والجلال . وشهدنا الزينات تتألق ،
والخيرات تتدفق ، والصدقات توزع وتفرق ، والمبرات تمنح بسخاء ، لأهل
الحاجة وذوى اللاأواء ، بمن يغشون ساحة المولد بالعباسية . وحضرنا
الولائم الحافلة تمتد موائدنا فى الكثير من السرايدات المقامة فى هذا الميدان
الفسيح ، يصيب منها المدعوون ، ويتناول من ألوانها الوافدون ولا يحرم منها
الواردون . على اختلاف طبقات الناس ، وتباين حالاتهم . وبهذا وأمثاله
كانت أيام المولد مواسم ، ولياليه أعيادا بواسم ، يعم فيها السرور ، ويشمل
فيها الابتهاج والخبور ، يتمتع بها كل رائح وغاد ، من صنوف أبناء البلاد :

٢ - اهتمام الحكومة بالمولد :

ولوزارات الحكومة المصرية فى هذا الموسم الكريم ، سنن وعادات
وتقاليد ، تقوم على رعايتها والعناية بها خير قيام . فما من وزارة إلا لها
سرادق خاص تقيمه فى ساحة المولد ، عند استهلال شهر ربيع الأول ،

يفشاه الزوار طوال أيام المولد ولياليه ، من جميع طبقات الأمة ، ويفد إليه الناس أفواجا من سائر أنحاء البلاد ، فيقدم لكل أحد منهم ما تشتهي نفسه ، من أطيب الماء كولات ، وأهنا المشروبات ، وأنواع الحلوى والمسكرات . ويتمتع الجميع بسماع آى الذكر الحكيم من مشاهير القراء ، ومذاكير المجودين ، كما يستمعون متبهجين لخطب الوعظ والإرشاد ، وما يلقى إليهم من بدائع قصة الميلاد . وكل ذلك من ذوى الأصوات الحسنة ، والإلقاء الجيد .

٣ - وزارة الأوقاف والمولد :

ولوزارة الأوقاف فى هذا الشأن ، فائق السبق ، ومتقدم الامتياز . فإنها كثيرا ما لا تكتفى بما تصنعه فى سرادقها من بالغ الحفاوة وعيم الإكرام ، وما تبذله فى أيام المولد ولياليه من صنوف الخير ، وأنواع الإحسان والبر ، بل لا تزال تجرى على سنن تفردت بها ، من توجيه الدهوة إلى كبار رجال الدولة من الوزراء والوكلاء ، وغيرهم من العظماء والوجوه والأعيان ، وزعماء الهيئات من العلماء والأدباء ، وسواهم من ذوى الأخطار وأرباب الوظائف بالحضور إلى الإحتفال الخاص الذى تقيمه عادة فى صبيحة الليلة الختامية للمولد الشريف بالمشهد الحسينى ، حيث يشنفون آذانهم بسماع ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، من أفاضل المقرئين ، ثم يستمعون إلى قصة المولد الشريف . حتى إذا ما انتهى قارئ القصة من إلقائها ، وزعت فيهم أنواع الحلوى والمسكرات ، وصنوف النقل وسائغ المشروبات . كما تفرق الصدقات فى الفقراء والمساكين وذوى الحاجة . ويكون بذلك يوما من أجل أيام المولد الختامية ، وأحفلها بالخير والبركات .

عصر الملك فاروق الاول

١ - عهد الخير والبركة :

أما في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول ، فقد جرى الأمر فيه على النهج الذي رسمه والده العظيم الملك فؤاد الاول ، أسكنه الله فسيح جناته - من صرف بالغ العناية بمولد سيد المرسلين ، وإمام الهداة والمتقين : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، والاقتنان في إحياء ذكره الكريم ، بما يليق به من الفخامة والجلال ، والآبهة والجمال . فقد رأينا آثاره الفاروق العالية في الاحتفال بالمولد الشريف ، وقد جاء آية من آيات الروعة والبهاء ، والبهجة والرواء .

٢ - وصف الاحتفال :

ومن الليالي الغر التي لا أنساها ما حييت ، ليلة الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٦٤ هـ ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ والتي تعد بحق مثالا لما يجب أن يكون عليه الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في كل عام .

فقد شهدت في ساحة المولد بصحراء قايت باي - المعروفة عند العامة بصحراء الحفير - معالم الزينة التي تأخذ بالآلباب ، ومظاهر الاحتفال التي بدت في شكل نفيم ، ونظام جليل . هناك ، وفي هذا الميدان المترامي الأطراف ، أقيم السرادق الملكي البديع ، وقد تجلى في زخارفه ، وماس في أستاره ومطارفه ، وفرش بالطنافس الثمينة ، وصفت في رحابه الأرائك المحلاة

بالذهب ، وانتشرت في جنباته النمارق الموصوفة ، واسترسلت في ساحاته الكلال
الحريرية، ورفعت على سواريه الأعلام الملكية ، وعلقت في مداخله المصابيح الباهرة
الأنوار ، وفي سماواته الثريات الآخذة بالأبصار ، والجامعة الليل فيه كوضح
النهار . كما فرشت أرض الميدان بالرمال الأصفر والأحمر ، ووقف على أبوابه
رجال الحرس الملكي في ملابسهم الزركشة ، وشارانهم الجميلة . وعلى مقربة
منه رجال البوليس وحراس الأمن ، لحفظ النظام ، ومنع الزحام ، وتسهيل
حركة المرور ، على الواردين في السيارات ، والمقبلين في العربات ، من
مختلف الطبقات . ووفد على هذا السراشق وزراء الدولة ، وشيوخ الأزهر
وطوائف العلماء ، ووكلاء الوزارات ، ومديرو الإدارات ، ورؤساء المصالح ،
وكبار الموظفين ، وقواد الجيش وصنوف الضباط ، وكبراء الأئمة ، وأعيان
الناس من ذوى المراتب والألقاب . وجميع هؤلاء قد وقف في جلال ووقار ،
انتظارا لتشريف حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، أو من ينتدب
الإنيابة عن جلالته في حضور الاحتفال .

وفي قبيل الظهر بساعة ، بينما هذا الجمع الحاشد في الانتظار ، إذ تعالت
هتافات الجماهير المحتشدة على قوارع الطرق المؤدية إلى ساحة المولد؛ بحياة
صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، وحياة مصر الخالدة . فكان ذلك
إذانا بوصول الركب الملكي الفخم . وقد أقبل جلالته بوجهه المشرق على
هذه الجموع مشيرا بيده الكريمة لإشارة التحية والسلام . وكان إلى يسار
جلالته في عربة التشريف الكبرى حضرة صاحب الدولة أحمد ماهر باشا
رئيس مجلس الوزراء (إذ ذاك) ولما اقتربت العربة من السراشق وأشرقت

طلعته البهية ، خف إلى استقبال جلالته : حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ
الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، وحضرة صاحبها
السعادة رئيساً مجلسى الشيوخ والنواب ، وأصحاب المعالي الوزراء ، وعبد اللطيف
طلعت باشا كبير الأمراء ، ومراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية ، والفريق
إبراهيم عطا الله باشا ، وحسن يوسف بك وكيل الديوان الملكى ، وسائر
كبار رجال القصر ، والياوران ، وبدوى خليفة باشا وكيل وزارة الداخلية ،
ومحمد صبرى شبيب بك وكيل وزارة الأوقاف ، ومحمد عمر دمرداش بك وكيل
وزارة الأوقاف المساعد ، ومحمود غزالى بك مدير الأمن العام ، والسيد
محمد شاهين باشا محافظ القاهرة . وغيرهم من عليّة الناس الذين شذت
أسمائهم عن الذاكرة .

ومن شاهدتهم فى هذا الحفل العظيم ، من ممثلى الدول العربية والشرقية
الشقيقة : صاحب الدولة السيد جميل مردم بك وزير خارجية الدولة السورية ،
والشيخ يوسف نائى وزير خارجية الدولة العربية السعودية ، والسيد محمد
صادق المجددى وزير دولة الأفغان المفوض ، والسيد تحسين العسكرى وزير
الدولة العراقية ، والشيخ فوزان السابق القائم بأعمال المفوضية العربية السعودية
والأستاذ تقى الدين الصلح بك مستشار المفوضية اللبنانية ، والدكتور فوزى
الملقى القنصل العام لامارة شرق الأردن ، وغيرهم من رجال الدول الشقيقة .
وعند ما وصلت المركبة الملكية قبالة السراى الملكى العظيم ، سمعت
طلقات المدافع تدوى تحية للمليك الكريم . وتعالّت أصوات قوات الجيش
هائفة بحياة جلالة القائد الأعلى . ثم أخذت الموسيقى تصدح بأنغامها الشجيّة ،

بالسلام الملكي . ولما ترجل جلالة الفاروق عن مركبته الملكية . تفضل بمصافحة مستقبله في مرور وابتهاج ، ثم شرف السراقد متصدرا الاحتفال في حالة من الوزراء والعلماء وكبار رجال القصر . ثم لم يلبث أن نهض متجها نحو العلم ووقف تحت ظلالة يحف به رئيس مجلس الوزراء ، والوزراء ورئيس هيئة أركان حرب الجيش المصري ، وكبار الحاضرين . فعرض بعض فرق الجيش من أسلحته المختلفة ، فكان أول ما عرض : فرقة الفرسان ، ثم فرقة الموسيقى الراكبة ، ففرق من السيارات الثقيلة والحفيفة برجالها ، ففرقة المدافع المضادة للطائرات ، ثم كتائب من المشاة ، فرجال سلاح الإشارة ، ففرقة القسم الطبي . وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تحيي جلالة الملك عند مرورها بين يديه .

وبعد الانتهاء من عرض الجيش تقدمت بين يدي جلالته مشايخ الطرق الصوفية برجالها ومريديها ، حاملين لأعلامهم وشاراتهم ، وكل شيخ يمر بين يديه يقف هنيئة لقراءة الفاتحة وتلاوة بعض الأدعية المأثورة ، بطريقتهم المعروفة ، في القراءة والدعاء . ثم يهتفون جميعا بحياة الفاروق ثلاثا .

ولما انتهى مرور أصحاب الطرق ، عاد جلالته إلى السراقد الملكي ، حيث قدمت صنوف الحلوى ، وأنواع المرطبات ، فتناول منها جميع الحاضرين . وبعد فترة قصيرة بارح جلالته السراقد الملكي ، قاصدا تشریف سراقد السادة البكرية ، وما هو أن أشرف عليه حتى نهض حضرة صاحب السماحة السيد أحمد مراد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وحوله جمع من كبار المشايخ ، لاستقبال جلالته بما يليق بمقامه الكريم ، من الإجلال والتعظيم ولما شرف جلالته حفظه الله صدر المجلس الخاص قام حضرة صاحب

الفضيلة السيد محمد الببلاوى نقيب الاشراف ، وأخذ فى إلقاء قصة المولد الشريف ، وما هو أن وصل إلى ذكر مولده صلى الله عليه وسلم ، حتى نهض جلالة الملك واقفا ، لإجلالا وإعظاما ، لهذه الذكرى الكريمة . وبوقوفه وقف الجمع الحاشد فى كمال الخشوع والإكرام . وعند الانتهاء من إلقاء القصة والدعاء لجلالة الملك المعظم ، بدأ القراء فى تلاوة ما تيسر من القرآن الكريم ، بترتيل حسن ، وتنظيم مطرب جميل . وجميع القراء من مشهورى المجودين ، ومذكورى الملحنين ، وأصحاب الاصوات الشجية ، والأنغام العذبة الندية ... ثم تقدم الخدم والفراشون بصواني الحلوى وأكواب المرطبات ، إلى بين يدى جلالاته ليتناول منها ما يشاء ، كما أديرت بعد ذلك على سائر الحاضرين ، فتناول كل أحد منهم ما لذ له وطاب .

وفى أثناء إلقاء القصة الشريفة لم تنقطع المدافع عن دويها المطلق بنظام محكم ، وترتيب بديع . كما أخذ المذيع بالراديو فى ترديد القصة من أبواقه لإسماع الجمهور . وبعد ذلك نهض جلالة الملك وقرأ الفاتحة ، وشاركه فى قراءتها جميع الحاضرين . وعند ما هم بمغادرة السرادق أقترب من السيد الببلاوى وقبله . ورفع السيد يديه إلى السماء بحاز الدعاء لجلالاته بدوام العز ومديد العمر ، وأمن الحاضرون على دعائه . ثم تعالى هتاف الجماهير الحاشدة بحياة الملك الصالح فاروق الأول ، فرقى جلالاته حفظه الله ، مركبته الملكية عائدا إلى القصر العامر ، تحف به القلوب وترمقه الأبصار .

٣ - الحكومة والاحتفال بالمولد :

ومن الرسوم المقررة ، أن تقوم الحكومة في هذا الاحتفال العظيم بنصيب وافر ، وحظ كبير . إذ تقام سرادقاتها المختلفة متسقة أمام السرادق الملكي أبدع تسيق . فترى سرادق وزارة المالية مجاوراً لسرادق وزارة الداخلية ، وإلى جانبه سرادق وزارة الأشغال ، فسرادق وزارة العدل ، فسرادق وزارة المعارف ، ثم المواصلات ، والزراعة ، والأوقاف ، والشؤون الاجتماعية ، والتجارة والتموين . يتوسطها سراق رئاسة مجلس الوزراء ، ويقاربها سرادقات مجلسي الشيوخ والنواب ، فالأزهر الشريف والخاصة الملكية ، ومحافظة القاهرة . وكلها متجاورة وعلى أبعاد متفاوتة وقد فرشت هذه السرادقات بأنواع البسط والسجاد الفاخر ، من المصانع المصرية والشرقية . وصفت في أرجائها المقاعد المذهبة ، والكراسي الموطدة ، ورفعت على سواربها الأعلام المصرية ، وأعدت فيها الثريات الكهربائية ، للإنارة ليلاً .

وكذلك أقيمت سرادقات مشايخ الطرق الصوفية ، حافة بسرادق السادة البكرية ، وعلى جوانب سرادقات الحكومة . على الرسم المقرر . وعلى أبوابها البيارق ، وعلى سواربها الأعلام ، مزدانة بشاراتهم المعروفة .

٤ - زوار المحتفلين بالمولد :

وبعد مبارحة جلالة الملك المعظم ساحة المولد الشريف . أخذ الوزراء والوكلاء ، وكبار رجال الدولة ، وقادة الجيش ، ووجوه الأمة - في زيارة

السراديات على اختلاف أنواعها ، من حكومية ، وأهلية ، يتبادلون التهانى ويستمعون إلى قراءة القراء ، وأدعية الداعين ، وإنشاد المذمدين على حلقات الذكر ، ويتناولون صنوف الحلوى ، وألوان المرطبات ، والقهوة والشاي ، وهم فى خلال ذلك يتجادثون فى سرور ، ويتسامرون فى ابتهاج وحبور ، إلى الثلث الأخير من الليل . ثم ينصرفون فى أمن وسلام .

٥ - المولد فى سنة ١٣٦٥ هـ :

وفى ربيع الأول من سنة ١٣٦٥ هـ فبراير سنة ١٩٤٦ م شرع فى إقامة معالم الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، فى ميدانه الفسيح من صحراء قايت باى . وفى هذه الساحة الكبيرة نصبت للسراديات على الرسم المعتاد ، بتسويق بديع ، وترتيب جميل ، ورفعت عليها الأعلام ، وأعدت بمختلف الأنوار الكهربائية ، لإعادة الساحة فى لياليها نهارا ، وأخذت زخرفها وأزيلت بكل أنواع الزينة المعتادة . وحفل الميدان بكل ذى قدر من رجال الحكومة وأعيان الأمة . ووقفوا صفوفًا متراسة انتظارا لتشريف نائب الحضرة الملكية .

وما وافت الساعة الرابعة بعد الظهر ، حتى أقبل حضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا رئيس مجلس الوزراء ، فى موكبه العظيم نائبًا عن حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول حفظه الله . تحيط بركبه كوكبة من فرسان البوليس بقيادة أحد البكباشية . فلما وصل إلى باب السرادق الملكى ، صدحت الموسيقى بالسلام الملكى ، وأطلق ٢٤ مدفعًا تحية الاستقبال ، وحيته فرقة من جنود الجيش التحية العسكرية .

وكان في استقباله - غير الوزراء والعظماء وكبار رجال الدولة ، وأعيان الأمة - الأمير سيف الإسلام عبد الله نجل الإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن ، وضيف مصر ، وسفراء الدول الشرقية ، ومفوضو الممالك العربية . فكان استقبالا حافلا . وجرت المراسم كالمعتاد .

ولما انتقل دولته إلى سرادق مشيخة الطرق الصوفية . ألقى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية ، قصة المولد الشريف ، بين يديه . ثم عاد دولته في موكبته الرسمي بين التهليل والتكبير والدعاء بحياة جلالة الملك ، وتحية نائبه الكريم . وجرت الرسوم كلها على ما سبق بيانه .

٦ - في الأزهري الشريف :

وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الثاني عشر من ربيع ، أقامت إدارة الأزهر احتفالا شائقا بذكرى مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم .

٧ - خطبة الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبر الرازي :

وبعد افتتاح الحفلة بتلاوة ما تيسر من آي الذكر الحكيم ، نهض حضرة صاحب الفضيلة الامتاز الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر ، وألقى خطبة قيمة في موضوع المولد الكريم جاءت آية من آيات البلاغة ، ومعجزة من معجزات البيان ، وقد تضمنت من الفكر الصالحة ، والآراء الناضجة ، ما لا مزيد معه لمستزيد . ولما كان رحمه الله قد سبق له الاطلاع على نماذج من هذا الكتاب دعت إلى الثناء عليه والتشجيع على إعداده وطبعه

فقد تفضل وبعث إلى بصورة من الخطبة لإثباتها به . وهذا نصها :
قال رحمه الله تعالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم » :

« لم يكن من سنة العرب أن يحتفلوا بتاريخ ميلاد لأحد منهم . ولم تجر
بذلك سنة المسلمين فيما سلف . ويظهر أن عادة الاحتفال بميلاد النبي عليه
السلام ، من العادات المحدثه . اللهم إلا أن أهل مكة - فيما رواه بعض
المؤرخين - كانوا يتبركون بزيارة الموضع الذي ولد فيه عليه السلام ، في
يوم ميلاده . وما هي بالبدعة السيئة أن يحمل الناس يوما من أيام العام
خاصا بتذكار محمد رسول الله ، أكبر أبناء آدم بركة على الإنسانية ، وأبقاهم
في صحائف التاريخ أثرا » .

« لم تشعر الأمة العربية بذلك اليوم العظيم الذي وضعت فيه حملها
الأيام الفقيرة آمنة بنت وهب ، أرملة عبد الله بن عبد المطلب . حتى لقد
خفي على العرب عام ميلاد النبي . وخفي عليهم موضع الدار التي جاء لآمنة
فيها المخاض ، واختلفوا في ذلك اختلافا كثيرا » .

« وقد يتبين من هذا أن ما ذكره بعض أرباب السير من أن إرهابات
وحوادث سماوية وأرضية وقعت في يوم مولده الشريف ، فيه من الغلو
مالا يقوم عند التحميص ، ولا يحققه التاريخ » .

« وليست سيرة النبي العظيم محمد بن عبد الله ، محتاجة إلى نافلة من
خيال المؤرخين » .

إن محمداً لعظيم في طفولته بين ذلِّ اليتيم والفقر ، وعظيم في كهولته

بين جلال الإسلام ومجد العرب . وهل حفظ التاريخ مجدا أكبر من مجد
النبي العربي صاحب الدين الخالد ، والهدى الراشد ؟ ... »

« كان محمد في صدر حياته يشعر بما عليه قومه من سخافة عقائدهم ،
واستيلاء الأوهام عليهم ، وتفرق كلمتهم ، وتفانيهم بتسافك الدماء بينهم ،
ولاشرافهم على الهلاك باستعباد الغرباء لهم ، وتحكم الأجانب في كثير من
بلادهم . وكان يلتمس السبيل لتقويم عقائدهم ، وجمع كلمتهم ، وإيقاظهم
من سباتهم ، وإصلاح شأنهم ، وإصلاح العالم بهم . فيحار في ذلك فكره ،
ويضل فيه رأيه . « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَأَعْتَى » .

« وللخلاص من هذه الحيرة كان يطلب الخلوة بغار حراء ، ويلتمس
هداية ربه ، في جوانب قلبه ، وهو يمتلي النفس هما وطموحا وقلقا ، حتى
ملكت عليه هذه الخواطر كل مشاعره . فهو يشهدا يقظة ، وهو
يشهدا مناما . »

« ولما بلغ سن الأربعين جاءه الوحي من الله ، وبُعث رسولا نبيا .
فأدى بمكة رسالته ، يتحمل من قريش كل أذى في سبيل الله . »

« وأقام محمد بمكة صابرا على الفتنه ، جاهدا في الدعوة إلى ربه ، والهداية
إلى الخير والبر ، يوافي المواسم ، يتبع الحاج ، حتى إنه ليسأل عن
القبائل ومنازلها ، قبيلة قبيلة ، يدعوهم أن يمنعوه حتى يُبلغ رسالات ربه ،
فيردونه ويؤذونه خوفا من قريش ، ويقولون : قومك أعلم بك ! ولم يكن
شيء من ذلك ليضعف من عزم محمد عليه السلام ، في بيان ما عليه الناس

من شر ، وإرشادهم إلى طريق الخير . وكان آخر ما نزل عليه من آيات القرآن بمكة : «وَيْلٌ لِلطَّافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ إِلَّا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

«ثم لقي عند وفد يثرب من الأوس والخزرج ، معينا على نصرته ، فأعطوه موثقا . وأخذ يخرج إليهم من كان قد دخل في الإسلام من أهل مكة . وخرج إليهم محمد مهاجرا في سبيل الله ، تاركا وطنه وماله وأهله ليؤدي حرا أمانة الله ، وليؤدي شعائر دينه حرا » .

«ويروى أن محمدا حين خرج من مكة نظر إلى البيت وقال : والله إنك لأحب أرض الله إلي ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت . وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس . وكانت سن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلاثا وخمسين سنة . وذلك بعد أن بعثه الله بثلاث عشرة سنة » .

«هذه هي الحادثة الكبرى في تاريخ انتشار الإسلام التي جعلت بعد ذلك بداية للتاريخ الإسلامي » .

« تألفت في يثرب التي سميت منذ الهجرة (المدينة) جماعة إسلامية تربطها وحدة العقيدة ، على اختلاف المناسب والديار ، وسوى الدين بين أفرادها فهم إخوة في الله ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، وأمرهم شورى بينهم . وما محمد إلا رجل منهم اختاره الله لوجيه ورسالته . قامت هذه الجماعة حية ناهضة بما بث فيها الإيمان من قوة وأمل

وشجاعة وصبر .

« عاش محمد في المدينة عشر سنين ، غزا فيها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة . أما بعوثه وسراياه فكانت ٣٨ والذي يعرب عن سر الجهاد في الإسلام ووجهة هذه الغزوات والسرايا ، هو ما جاء في القرآن : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ . وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » .

« لم تكن حروب محمد طمعاً في مال . فإن المجاهدين الأولين من المسلمين كانوا يوثرون الموت في سبيل الله لينالوا الشهادة والحياة الباقية « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » .

« لم تكن حروب محمد للإكراه في الدين . فإن القرآن ينادى « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » ،

« كانت غاية محمد من حروبه ألا تكون فتنة ، ويكون الدين لله . وكان إذا أمر أميراً على جيش أو على سرية ، أوصاه في خاصته بتقوى الله ،

ومن معه من المسلمين خيرا . ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، الحديث رواه مسلم

« وقد بذل محمد في عشر سنين من الجهد العقلي والبدني ، مالا تقوم به طاقة البشر ، وهو يومئذ من عمره بين الخمسين والستين »
« ومضى محمد إلى ربه بعد أن بلغ الرسالة ، ورسمت دعائم دعوته ، وترك في الناس دينا خالدا ، هو دين الإسلام »

« وقد جمع الرسول عليه الصلاة والتسليم صفوة دعوته وأصول دينه ، في حديث - رواه مسلم - قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك - وفي رواية غيرك - قال : قل آمنت بالله ، ثم استقم . ويقول الرسول لعمر بن الخطاب : أذن في الناس أن من شهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصا ، دخل الجنة . »

« والإخلاص هو أساس الدعوة المحمدية ، وهو أساس الدين الذي جاء به محمد عليه السلام . ويدل على ذلك اسم هذا الدين (الإسلام) المأخوذ من السلامة وخلّص القلب . وفي القرآن الكريم : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »

٨ - وزارة الأوقاف والأوقاف :

وقد جرت وزارة الأوقاف بالاتفاق مع وزارة الشؤون الاجتماعية ، على سنة حميدة ، هي القيام بتنظيم محاضرات تلقى على الناس في الوعظ والإرشاد ، في أوقات مناسبة ، حتى يستطيع أكبر عدد ممكن من الاستفادة

من خطباء الوزراء ووعاظهما ، في تهذيب نفوسهم وإرشادهم إلى الخير في دينهم ، والصلاح في دنياهم . فينتشر الخطباء والوعاظ في مختلف السراقات المقامة بساحة المولد كل ليلة ، ويلقون على الناس ما ينفعهم ويصلح من شأنهم ثم توزع من كل من الوزراء أنواع الخيرات ، وصنوف المبرات ، على الفقراء والمعوزين . وكذلك تصنع سائر الوزارات في صواوينها ، على أنحاء متفاوتة ، وأساليب متقاربة .

كما احتفلت وزارة الأوقاف ، على جرى عاداتها ، بإلقاء القصة النبوية في مسجد أبي عبد الله الحسين ، صبيحة المولد . ووُزعت أنواع من الحلوى والنقل والمرطبات ، على كل من شهد الحفل من غنى وفقير .

وكما يحدث في سرادات الحكومة من إسداء المبرات إلى الغادى والرائح في ليالى المولد وأيامه ، يحدث مثله في سرادات أرباب الطرق الصوفية وغيرهم ، من الجماعات والهيئات والنقابات ، وبعض أهل الخير من الأفراد ، كل على قدر طاقته ، وأساليب افتتانه .

٩ - المولد في سنة ١٣٦٦

وفي موسم سنة ١٣٦٦ هـ احتفل بذكرى المولد النبوى الشريف في جميع أنحاء البلاد ، وقد تجلت في الاحتفال الرسمي الذى أقيم في ساحة (الخفير) بالعباسية ، مظاهر الروعة والجلال ، فتعددت السراقات في جوانب الساحة ، يتوسطها سرادق الخاصة الملكية ، وإلى جانبه سرادق مشيخة الطرق الصوفية . ثم سرادات الوزارات ، والبرلمان ، ومشايخ الطرق .

وحدات الجيش

وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، اصطفت وحدات الجيش المصرى فى مكان الاحتفال بأعلامها وموسيقاها . وكانت الجماهير قد احتشدت على جانبى الطريق ، وفى أنحاء الميدان حتى ضاقت بها على سعتها .

فى سرادق الخاصة الملكية

وما وافت الساعة الثانية والنصف حتى أخذ المدعوون يفدون على سرادق الخاصة الملكية ، يتقدمهم أصحاب الدولة والمعالى والفضيلة : رئيس الوزراء ، والوزراء ، وناظر الخاصة الملكية ، وفضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والعلماء ، ورئيس المحكمة الشرعية ، والمفتى ، ووكيل وزارة الداخلية والأوقاف ، ومحافظ العاصمة ، ومدير الأمن العام ، ووكيل المحافظة وكبار الموظفين ، وضباط الجيش والبوليس .

نائب جلالة الملك

وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، أقبل موكب صاحب السمو الملكى الأمير محمد على ، تتقدمه ثلة من فرسان البوليس ، فلكوكبة من فرسان الحرس . وما أن وقفت المركبة التى تقل سموه أمام السرادق ، حتى صدحت الموسيقى بالسلام الملكى ، وأدت قوات الجيش والبوليس التحية الملكية وأطلقت بطارية المدفعية طلقاتها ، تحية لسمو نائب الملك ، ورفع العلم المصرى على السارية الكبرى المقامة هناك . وبعد أن صافح سموه مستقبليه ، جلس فى صدر السرادق وإلى يمينه شيخ الجامع الأزهر ، فشيخ مشايخ الطرق الصوفية

(الشيخ أحمد الصاوي) فالعلماء، وإلى يسار سموه: رئيس الوزراء، والوزراء .

عرضه الجيش :

وبعد قليل عرض نائب الملك قوات الجيش ، حيث كانت موسيقى الجيش تصدح بنغماتها . وبعد العرض عاد سموه إلى السرايق ، فأديرت المرطبات والحلوى على الحاضرين . وقد شكر سموه لمعالى أحمد عطية باشا، وسعادة الفريق إبراهيم عطا الله باشا، على نظام الجيش ، وحسن العرض .

ثم تفضل نائب الملك باستقبال مشايخ الطرق الصوفية . وكانت كل طائفة منهم تحمل شاراتها وأعلامها ، فقرأوا الفاتحة ، وتلوا بعض الأدعية . ثم هتفوا بحياة جلالة الملك .

تمرة القصة :

ثم قصد سموه إلى سرايق مشيخة الطرق الصوفية ، يتبعه كبار المدعوين حيث استمع إلى حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد البيلاوي نقيب الأشراف وهو يلقي القصة النبوية أمام مكبرات الصوت . ولما وصل فضيلته إلى ذكر مولد الرسول ، وقف سمو نائب الملك ، كما وقف الحاضرون ، لإجلالا وتكريما . وبعد الانتهاء من القصة قرأ كل من الاستاذين الشيخ شديد الشطنوفى والشيخ محمد عبد الحليم ، بعض آى الذكر الحكيم . ولما هم سموه بالانصراف ، تحدث إلى فضيلة نقيب الأشراف . ثم عزفت الموسيقى بالسلام الملكي . وغادر نائب الملك مكان الاحتفال بين مظاهر التعظيم والتبجيل . وظلت السرايدات الأخرى تموج بزائرها يستمعون قارئ القرآن الكريم

حتى الثلث الأخير من الليل :

وكان من بين الذين رأيتهم في زيارة مكان الاحتفال : رئيس بعثة سيلان
الموفدة إلى الأزهر ، والسيدة قرينته . وثلاثة من ممثلي الإدارة الدبلوماسية
الإسلامية في التركستان الروسية .

وفي منتصف الساعة الثامنة مساء ، قام قسم الأسلحة والمهمات بإطلاق
السهم النارية ، ابتهاجا بذكرى المولد الشريف .

وفي صبيحة يوم ١٢ من ربيع الأول ، عطلت أعمال الحكومة ، في وزاراتها
ودواوينها ومصالحها ، كما عطلت الأعمال في الدوائر المالية والتجارية ، احتفالا
بذكرى المولد النبوي الشريف . على جرى العادة . وقصد الكبراء والعظماء
إلى قصر عابدين العامر حيث قيدوا أسماءهم في سجل التشريفات ، رافعين
فروض التهنئة والولاء إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم .

١٠ - في الشهر الحسبي :

وفي منتصف الساعة الحادية عشر من هذا اليوم . احتشد المسجد الحسيني
بجماهير من العلماء والكبراء والأعيان ، لسماع القصة النبوية . وحضر صاحب
السعادة محمد السيد شاهين باشا محافظ القاهرة ، نائبا عن جلالة الملك ،
يرافقه الأمير الای عبد الفتاح نصر بك مساعد الحكمدار . فاستقبله هذا
الجمع الحاشد . ولما أخذ مكانه من صدر المجلس قام صاحب الفضيلة الشيخ أحمد
الصاوي شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وألقى القصة النبوية الشريفة . فلما وصل
إلى ذكر مولده الكريم ، وقف سعادة نائب الملك والحاضرون ، تعظيما وإجلالا .
ثم زار سعادته ضريح الإمام الحسين ، وحجرة الخلفاء النبوية . ثم
بارح المسجد مودعا بالتجلة والإكرام .

١١ - اهنفال الجماعات والرهيات :

وكثير من الجماعات والهيآت المؤلفة للأعمال الصالحة ، والأغراض النافعة ، يقوم بشؤون الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، بعناية وحفاوة ، وتبذل فى أيامه ولياليه وافر الصدقات ، وكريم المبرات . أمثال : جمعيات الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية للحج ، وجمعية البر والإصلاح الاجتماعى ، وجمعية مساجد الخلفاء الراشدين ، وجمعية المحافظة على القرآن ، وجمعية الوثبة المباركة ، وجامعة أدباء العربىة ، ونادى التجارة المالىكى ، ونادى جهة مصر ، ومؤسسة رباط الخدمة الاجتماعية ، وبعثات الكويت . كما يقوم بذلك : أسلحة الجيش المصرى ، والكلية الحربىة ، وكلية الطب ، ومديرية الجزيرة ، ونقابة الصحفيين . وغيرها مما لم تح الذكر أسمائها .

فى الإسكندرية

١٢ - اهنفال بالمولر فى الاسكندرية :

أما فى الإسكندرية ، فإن الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف يبلغ فى أرجائها من الكمال غايته ، ومن البهاء والجلال نهايته . فقد قامت إدارة البلدية بتشديد سرادقها الفخم ، فى ميدان محمد على . وزانت بالاعلام المصرىة وبالثرىات والمصاييح الكهربائية ، ونضدت فيه المقاعد المذهبة ، والكراسى المنجدة ، وبسطت فيه الأبسطة والسجاجيد الفاخرة . وحضر الاحتفال به حضرة صاحب السعادة عبد الخالق حسونه باشا ، نائباً عن حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم . وكان فى استقباله حضرات : مدير البلدية العام ،

ومديرو المصالح ، وكثير من العلماء والأعيان وكبار الموظفين ، من مختلف الدوائر والإدارات . وبعد أن أخذ مكانه من صدر المجلس افتتحت الحفلة بتلاوة آى من الذكر الحكيم ، رتلها المقرئ الشهير الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى بصوته الرخيم . ثم نهض الشيخ حمزة الخوانى وألقى القصة النبوية . وبعد الانتهاء منها ، أعقبه الشيخ أحمد حسن حلفاية بمحاضرة فى موضوع الذكرى الكريمة . ثم تلاه السيد أحمد مختار الناضورى نقيب الأشراف بالاسكندرية ، بكلمة طيبة فى معنى الذكرى ، وما كان فى حياته عليه السلام من الموعظة والاعتبار ، والقذوة الصالحة للناس جميعا . وبعد ذلك بارح نائب الملك مكان الاحتفال مودعا من الحاضرين بمظاهر التجلة والتكريم ، والدعاء بحياة جلالة الملك العظيم . . ولبت الحاضرون فى السمر والذكريات ، والاستماع إلى محكم الآيات ، من مشاهير القراء ، حتى ساعة متأخرة من الليل .

١٣ — احتفال إدارة الأوقاف بالاسكندرية :

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم ، احتفلت إدارة الأوقاف فى مسجد أبى العباس المرمى ، بذكرى المولد النبوى الشريف ، وغص المسجد بالمدعوين ، وتوافدت إليه الجماهير من أنحاء المدينة . وحضر الحفلة صاحب السعادة محافظ المدينة ، نائبا عن حضرة صاحب الجلالة الملك حفظه الله . وبعد سماع القصة النبوية ، وزعت الحلوى والنقل على الحاضرين ، كما فرقت الصدقات فى الفقراء والمعوزين .

وكذلك أقيمت الزينات ، ومعالم الاحتفالات ، فى أنحاء المدينة ومساجدها

الشهيرة ، وانتظمت المواكب الصوفية ، في كثير من أحيائها ، طوال أيام المولد ولياليه .

وكانت الحكومة أصدرت في التاسع من شهر ربيع الأول ، منشوراً تذكر الناس فيه بما عليهم من واجبات الاحتفال بذكرى صاحب المولد الشريف ، وما تقتضيه من العناية والبذل ، فيما يعود على الناس بالفع والخير ، مع الافتنان في إقامة الزينات ، وإسداء المبرات . ولهذا كانت العناية بالاحتفال في هذا العام شاملة سائر المديريات والمراكز والمدن والقرى في أنحاء البلاد .

الاحتفال بالمولد في الأقاليم المصرية

وبما تجب الإشارة إليه ، ويحسن إثباته في هذا المقام ، أن الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، لم يكن قاصراً على القاهرة أو الإسكندرية ، ولم يستأثرا به دون غيرهما من مدن القطر وبلاده . بل إنه كان وما زال عاما في الولايات والمراكز ، لا بل في كثير من القرى والبنادر . وما برح الحكام والأعيان يقومون في هذا الشأن بما يستوجب التدوين ، ولا يستحق الإغفال . وإنى أصف ما يأتى عن مشاهدة حضور ومشاركة :

فقد رأيت في البلاد التى اتفق لى الإمام بها في شهر المولد من العناية بالاحتفال به ما يجدر عرضه في هذا الكتاب تخليداً له : رأيت أعيان البلاد ووجوه المدن ، متى أوشك شهر ربيع الأول على الحلول ، يجتمعون لدى حاكم البلد ، إن كان مديراً ، أو مأموراً ، للتفاهم فيما بينهم على إحياء ليالى المولد الشريف كلها ، وكيفية إقامة الزينات ، وتسيير المواكب ، وتوزيع

الذبايح ، والتوسع في إنارة المساجد ، وتنظيم حلقات الذكر داخلها أو في الصواوين التي تنصب لذلك . وفي إمداد الطرق الصوفية بما يلزمها من الزيوت والشموع وغيرها ، وفي مد الموائد لإطعام الوارد والوافد ، وبسط الاسمطة للرائح والغادي من الفقراء وأهل الحاجة ، وتفريق أنواع الحلوى والنقل والمشروبات المسكرة على البادي والحاضر . ثم ينصرفون وقد تعهد كل واحد من موسريهم بالإفناق على ليلة أو ليلتين ، من ماله الخاص . وبهذا لا تلبث الزينات أن تقوم معالمها في الشوارع والأسواق ، وتنصب الخيام والصواوين في الساحات المعدة للاحتفال في البلد ، وترفع الأعلام على سواريتها . والمصاييح في مداخلها وأبائها ، وتزايد الأنوار في لياليها ، ويحتمع أرباب الطرق الصوفية لوضع النظم في تسيير مواكبهم . فتنبعث في أوقاتها المقررة ، أما في النهار فتتقدمها أعلامها وبنودها ، وطبوعها وزمورها في الأزياء الحسنة ، والهيئات الجميلة . وأما في الليل فتتقدمها وتتخللها المشاعل الموقدة ، أو المصاييح البيضاء السكروية الشكل ، مضادة ومرفوعة في أعواد من الخشب مستطيلة ، يحملها فريق من الفراشين أو طائفة من الاتباع والمريدين . وفي أثناء هذه المواكب التي يسمونها (الزحف) يحمل بعض الاتباع نوعاً من الفوانيس مصنوعة من أنابيب الصفيح ومغطى بالشاش الرقيق ، وبها الشموع المتقدة ... وبعضهم يحمل (البازات) وهي نوع من الطبول الصغيرة تمسك باليد اليسرى ويضرب عليها بسير من الجلد باليد اليمنى . وبعضهم يحمل الدفوف وينقر عليها نقرًا يتناسب مع النطق بذكر الله تعالى .

تسير هذه المواكب يتلو بعضها بعضا ، كل شيخ طريقة بموكبه الخاص
فى بعض أحياء المدينة ، أو فى شوارعها الكبيرة ، بين النهليل والتكبير ،
وإنشاد المدائح النبوية ، والصلاة والتسليم على خير البرية ، مع قراءة بعض
الأوراد والأدعية الخاصة بشيخ الطريقة الأول . حتى يصلوا ، إما إلى المسجد
المقرر إقامة الاحتفال فى جواره ، وإما إلى بيت السرى المتعهد بالإنفاق ،
ولما إلى صيوان أكبر شيخ للطريقة فى البلدة . حيث تقوم حلقة الذكر
حول الصارى القائم فى الوسط .

وعلى صاحب الليلة - أى المتعهد بالإنفاق عليها - مراقبة احتياجات
كل شيخ طريقة ، أو صاحب حرقة مشترك فى الاحتفال ، فيؤدى إليهم
طلباتهم فوراً . وذلك غير ما يقوم به من الولايم العامة ، وتوزيع اللحوم
والخبز على المحتاجين ، والشموع وأصناف الخاوى على كل مريد أو طالب .
وعلى الجملة يكون بيت هذا السرى أو صيوانه ، فى يومه وليلته ، مصدراً
لكل خير ، ومظهراً لكل بر ، وعاملاً من عوامل السرور والابتهاج ...
طوال أيام المولد ولياليه .

وفى يوم وليلة كل سرى ، يجتمع الناس فى بيته ، أو فى صيوانه ، أو فى
المسجد المنفق عليه ، لسماع آيات القرآن الكريم من مشاهير قراء البلد ،
ويشهدون حلقات الذكر وإنشاد المنشدين وقراءة الأوراد والأحزاب
والأدعية الماثورة . وفى أثناء ذلك تدار عليهم أكواب الشاى ، أو فناجيل
القهوة ، أو بعض أنواع المشروبات المسكرة .

وفى الليلة الختامية تفقد على المدينة وفود هائلة من القرى المجاورة فترتج

البلد بهم ، وتسير المواكب فيها سيرا بطيئا لكثرة الزحام ، ويكون السرور شاملا ، والابتهاج عاما .

* * *

هذا ما شاهدته بنفسى فى عهد كل من الخديوى عباس الثانى ، والسلطان حسين كامل ، والملك فؤاد ، رحمهم الله جميعا . وقد كان ذلك فى طنطا ، والمنصورة ، والزقازيق ، وبنها ، ودمهور ، وفى المحلة الكبرى ، وزفتى ، وميت غمر . كما علمت أن أمثال هذه الاحتفالات تقوم فى مديريات الوجه القبلى ومدنه . مع كثير من التنوع والتصرف على ما يقتضيه تخالف البيئات ، وتباين الحالات ، بين سكان الأقاليم واستعدادهم .

* * *

وهذا ما كان ، وما يزال يصنع فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف بالديار المصرية ، فصلته بما لا يحتاج إلى مزيد .

* * *

وقد رأيت إتاما للفائدة ، وإكالا للوضوح أن ألقى نظرة على ما كان يصنع من ذلك فى بعض الممالك الإسلامية . وأن إفرده بباب خاص ، تراه بعد هذا . والله الموفق .

الاحتفال بالمولد في الممالك الإسلامية

بعد أن وفيت موضوع البحث في شأن الاحتفال بذكرى مولد النبي عليه الصلاة والسلام ، بالديار المصرية ، بكثير من التفصيل والإسهاب ، عنى لى أن أبحث فيما كان له من شأن في بعض الممالك الإسلامية الأخرى . ليكون الموضوع حائزاً صفة السكال والشمول ، على قدر الإمكان . فوجهت رائد التنقيب والاستقراء ، وأعملت مطايا التحقيق والاستقصاء ، وما زلت جاذباً في ذلك حتى عثرت ، بعد جهد مضن ، على كلمات متفرقة ، وعبارات غير متلاحقة ، في شتى المراجع ، ومختلف المصادر ، ومتباعد الأسفار ، فألفت بين متفرقاتها ، ولاءمت بين آبدها ، وجمعت شاردها بواردها . إلى أن استوى لى منها ما حسبته صالحاً للعرض في هذا الباب ، وما رأيته جديراً بالإفادة والاعتبار عند ذوى الألباب .

في السلطنة العثمانية

١ - الأعياد الرسمية

كان لسلطين آل عثمان عناية بالغة ، ورعاية فائقة ، بالاحتفال بجميع الأعياد والمواسم المعروفة عند الأمم الإسلامية كافة ، وكذلك كانت الأمة العثمانية ، على اختلاف أجناسها وشعوبها ، لها في هذا الشأن نهوض محمود ، واهتمام ملحوظ . فكانوا كغيرهم من ملوك الإسلام وأئمه وشعوبه ، يحتفلون بعيدى الفطر والأضحي . وكان لهم في الاحتفال بهذين العيدين اختصاص

في التفرد ببعض الرسوم .

٢ — رسوم عبرى الفطر والاضمى

فقد كان السلطان عبد الحميد يجرى في الاحتفال بهذين العيدين على الرسوم التي جرى عليها آباؤه وأجداده ، من سلاطين آل عثمان . مع تفرده بخصوصيات دونهم ، اقتضتها ظروفه وملابساته . فكان يخرج من قصر « يلدز » العامر ، لصلاة العيد في موكب نفخ ، تحف به المهابة والجلال ، إلى جامع بشكطاش ، وتعلوه الآهية والجمال . وقد ارتدى جلالتة حلة ملازم من ضباط الجيش ، وعلى صدره النيشان العثماني العلى الشأن . وبعد أن يؤدي صلاة العيد ، يقدم إليه جواد مطهم من خيرة الجياد السلطانية . فيعلو صهوته ، ثم يسير في موكبه الباهر ، ويمشى بجوار ركابه الغازى عثمان باشا ، يليه الصدور والوكلاء والوزراء . وجميعهم مشاة على مقربة من جواد السلطان ولا يزال الموكب سائراً بين تهليل الشعب وتسكيره ، وجنود الجيش متراصة على جانبي الطريق ، حتى يصل إلى سراى (طولمه بغجه) فيترجل متجها نحو القاعة الكبرى حيث يجلس على تخت السلطان الغورى المرصع باللؤلؤ والياقوت ، والحلى بالذهب الإبريز .

وهو التخت الذى استلبه السلطان سليم من مصر فيما استلب من تراث سلاطينها .

ثم تجرى التشريفات فيكون أول من يمثل بين يدي جلالتة ، نقيب الأشراف . فينهض السلطان واقفا لاستقباله . فيهنئ ويدعو بطول العمر ودوام التأيد . ثم يدخل الصدر الأعظم فيقبل طرف ثوبه . وكذلك يفعل

شيخ الإسلام . ثم يُؤذن للوكلاء فيدخلون منحنى الرؤوس فيقبلون رجله ويقفون بإزائه صفا . وهنا يجامس جلالة السلطان . ثم يؤذن بالدخول لأرباب المناصب ، فيدخلون على طبقات مراتبهم القلبية والملكية والعسكرية فيقبلون (السجق) وهو عبارة عن هدايا من الحرير ، يمسك أحد طرفيه الغازی عثمان باشا وهو واقف عن يمين التخت . فإذا انتهت التشریفات عاد السلطان في مركبته المملوكة الخاصة ، وفي موكبه الفخم : إلى قصر «يلدیز» وهناك يتلقى التهاني والتبريكات من سفراء الدول بواسطة راجعهم .

* * *

هكذا كان الشأن في الاحتفال الرسمي بالعيدين : ولا يتمايزان إلا بشيء واحد ، وهو أن الخطيب في عيد الفطر كان لا يعدو في خطبته أن يروی من الأحاديث إلا قوله (إن الله جميل يحب الجمال) كما لا يعدو في خطبة عيد الأضحى قوله (سمنوا ضحايكم) .

وهذا الالتزام لم يحدث إلا في عهد السلطان عبد الحميد فقط . أما في عهود غيره من السلاطين المتقدمين ، فقد كان الخطيب غير مقيد إلا بما يدعو إليه الشرع ، ويتفق والتقاليد الموروثة .

وبما كان يمتاز به عيد الأضحى أن السلطان يأمر بنحر ثلاثين كبشا توزع لحماتها على من يقع عليه الاختيار . وكان يقوم بنحر هذه الكباش عن جلالتة ، موظف خاص يسمى (قربانچی باشی) .

٣ - رسوم عيد أول السنة :

وأما عيد أول السنة ، فقد كان السلطان بأمر بأن تضرب فيه نقود

بالضربخانة السلطانية بالآستانة ، مؤرخة بالعام الجديد . وكان يصرف من هذه النقود الجديدة على رجال الدولة ، ووجوه الأمة ، ممن يفدون على السراى السلطانية للتهنئة والتبريك ، بحسب درجائهم ورتبهم ، من ألف ليرة عثمانية إلى ليرة واحدة .

٤ - رسوم عيدى الميلاد والجلوس السلطانى :

وأما عيدى الميلاد والجلوس السلطانى ، فقد كان يحتفل بهما فى عاصمة الدولة (الآستانة العلية) كما كان يحتفل بهما فى سائر الولايات العثمانية ، احتفالا شائقا ، يتردد صداه فى أنحاء البلاد ، بما تكتبه الصحف والمجلات من بارع الأوصاف ، وفائق عبارات التمجيد والتفخيم . وقد كانت مصر تُعنى بالاحتفال بهما عناية خاصة ، كما شهدناه بأنفسنا . وكان الشعراء ، منهم : شوقى وحافظ وحفنى ناصف والسيد توفيق البكرى وغيرهم ، يتبارون فى نظم القصائد ، فى مدح السلطان ووصف أعياده ، وربما تضمنت بعض القصائد شيئا من الأمور السياسية ، ويكون لذلك موسم عظيم بحديقة الأزبكية ، تعمل فيه المباريات ، وتوزع الجوائز للمتفوقين .

٥ - المواسم الرسمية :

موسم ليلة النصف من رمضان :

وكان يحتفل بليلة النصف من رمضان احتفالا رسميا شائقا ، فى السراى القديمة التى كان يسكنها سلاطين آل عثمان . وهى واقعة على بوغاز البوسفور ومتصلة بجامع آيا صوفيا من جهة ، وبالباب العالى من جهة أخرى . وكانت

نحوى الخلفات النبوية الشريفة ، موضوعة فى صندوق من الفضة الخالصة

وهذه الخلفات هى - فيما يزعمون - : البردة النبوية ، وسن من أسنان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبضع شعرات من شعره الشريف ، وقطعة من رايته التى كانت تسمى (العُقاب) ونعاله ... ومنها أيضاً إناء آن من الحديد . يزعمون أنهما كانا للخليل إبراهيم عليه السلام وأنه كان يشرب بهما الماء من بئر زمزم . وذراع يقال إنه كان ليعحي بن زكريا عليهما السلام . وجبة كانت للإمام أبى حنيفة النعمان .

وكان الرسم المقرر أنه متى استهل شهر رمضان ، يجرى انتخاب عشرة من العلماء . وعلى كل عالم من هؤلاء المنتخبين اختيار عشرة من طلابه الأذكياء . وبهؤلاء جميعاً تعقد مجالس العلم فى شكل أقواس . وعلى العلماء طوال ليالى الشهر إلقاء محاضرات فى تفسير القرآن الكريم ، يتخللها أسئلة توجه إليهم من الطلاب . وكان يقع ذلك كله بمشهد من جلالة السلطان ، وبمسمع منه .

وقد كان من الرسم أن يتناول جلالة السلطان طعام الإفطار فى هذه السراى ، أغلب ليالى الشهر المعظم . وكان يُدعى إلى مائدته السلطانية عظماء الدولة ، وكبار رجال المايين ، وقواد الجيوش العثمانية ، وبعض أكابر الضيوف ، وغيرهم من ذوى الأخطار ، وأرباب الدرجات والمراتب العلمية ، من ملكيين ، وعسكريين ، كما يُدعى إليها غيرهم من العلماء والوجوه والأعيان . وكان الرسم أن يُعطى لكل من يتناول طعام الإفطار على المائدة السلطانية فى هذا الشهر المبارك ، مبلغ من المال يسمى باللغة التركية (ديش كراسى)

أى أجرة الأسنان .

٦ — مواسم أخرى :

وكان هناك ، غير ذلك ، ليال يحتفلون بها ، وتسمى (ليالى القنديل) وهى خمس ليال ، هى : ليلة القدر ، وليلة المعراج ، وليلة النصف من شعبان . وهذه الليلة تسمى بالتركية (ليلة برات) وليلة الجمعة الأولى من رجب ، وتسمى بالتركية (ليلة رغائب) والخامسة ليلة المولد النبوى .

وتسمية هذه الليالى (بليالى القنديل) ترجع إلى أن جميع منائر الجوامع والمساجد توقد فيها بالقناديل . وكان الاحتفال بهذه الليالى على الرسم الذى يحتفل به فى ليلة المولد النبوى الشريف ، وهى التى نعرض لوصفها بعد .

* * *

وما ذكرت هذه الأعياد والمواسم ، إلا لتكون نماذج لما كان لها من شأن فى بلاد السلطنة العثمانية قبل أن ينقلب فيها الحال وتصير جمهورية . ولأن الباحث المنقب لا يستطيع العثور عليها فى غير هذا الكتاب .

٧ — الاحتفال بالمولد النبوى فى الاسكندرية

لم أعر على شىء أصف به ما كان من الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى عهود الماضين من سلاطين آل عثمان . الذين لاشك أنهم كانوا يولون هذا الاحتفال عناية مشكورة . ولذلك فقد رأيت بعد البحث والتحرى الاكتفاء بعرض ما كان من ذلك فى العهد القريب



السيد جمال الدين الأفغاني

في عهد السلطان عبد الحميد

وقد لمحت في مطالعة خاطفة أن السلاطين السابقين كانوا يحتفلون بالمولد النبوي في أحد الجوامع الكبيرة بالاستانة، حسب اختيار السلطان .
فلما تولى السلطان عبد الحميد في سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م ، قصر حفلاته التقليدية على الجامع الحميدي .

فقد كان الاحتفال بالمولد في عهده ، متى كانت الليلة الثانية عشر من ربيع الأول ، يحضر إلى باب الجامع عظماء الدولة وكبرائها . وفيهم الأمراء والمشيرين ، والعلماء ، وذوو المراتب العلية ، وكبار أرباب الوظائف بأصنافهم ، وجميعهم بالملابس الرسمية وكساوى التشريف ، وعلى صدورهم النياشين تتلأ بألوانها . ثم يقفون في صفوف متراسة ، ونظام تام ، انتظاراً لتشريف صاحب الجلالة السلطان .

وفي هذه الليلة يخرج جلالة السلطان من قصر يلدز العامر ممتطياً جواداً مطهماً ، من خيرة الجياد السلطانية . يسرج من الذهب الخالص . وقد خف بجلالته موكب نفخ ، ورُفعت على رأسه الأعلام ، وأنيرت الثريات بالشموع الموكبية ، أو بالسواطع الكهربائية . ومشى في ركابه الغازي عثمان باشا وأحدثت به الصدور العظام ، والوزراء الفخام . ويسير هذا الموكب بين صفين من جنود الجيش العثماني في أبهة وجلال ، وخلفهما جماهير الأمة ، إلى أن يصل إلى باب الجامع ، وهناك يترجل جلالته ، وقد يكون في استقباله : شيخ الإسلام ، والسيد جمال الدين الأفغاني ، والسيد فضل باشا العلوي ، والسيد أسعد القيصرلي المديني ، والسيد أبو الهدى الصيادي ، وناظر الأوقاف ،
(١٥)

وبعض رجال الخاصة السلطانية . ثم يدخل باب الجامع ويجلس في مكانه الخاص فإذا تمكن في مجلسه بدأ القراء بقراءة آيات من الذكر الحكيم . ثم يقف المختص بقراءة القصة النبوية الشريفة ، فإذا انتهى منها أخذ فريق من الصوفية في قراءة دلائل الخيرات . ثم ينتظم بعض مشايخ الطرق في حلقات الذكر ، فيشدشد المنشدون وترتفع الأصوات بالصلاة والسلام على خير الأنام ، وبالدعاء للحاضرة السلطانية بطول العمر ودوام التأيد .

وبعد فترة يفيض جلالته في أهله وبهائه ، فيمتطي جواده ، وأحياناً مركبته السلطانية ، عائداً في موكب الفخيم إلى مقر عرشه بقصر يلدين . وتكون العساكر في حال مجيئه وذهابه ، لاتزال واقفة بنظام ، تحت إشراف ضباطها العظام ، تستقبله بالتحية وتودعه بالسلام ؛ وفي خلال ذلك لاتزال الموسيقى الشاهانية ، تصدح بأنغامها الشجية .

وفي صباح اليوم الثاني عشر من ربيع ، يفد على أبهاء المسابن كبار الدولة على اختلاف رتبهم ، لتهنئة الحاضرة السلطانية . كما يهنئ بعضهم بعضاً بهذه الليلة المباركة .

وبما لايب فيه أن هذه الأعياد والمواسم ، والليالي المباركة ، كانت توزع فيها الهدايا والصدقات ، وتفرق فيها المنح والهبات ، ويتذوق فيها فريق من أهل الخصاصة بعض مايفرج كربهم ، ويلطف من وطأة العيش عليهم . كما كان أرباب الطرق الصوفية يساهمون في إحيائها بنصيب وافر ، في تكاياهم ومنازلهم ، في جميع أنحاء بلاد السلطنة .

الاحتفال بالمولد في تلمسان

كان فيما وقفت عليه من الاحتفالات بالمولد النبوي التي تسترعى النظر ، ما كان يحدث من ذلك في مملكة تلمسان من ممالك أفريقيا الإسلامية . فقد كان سلاطين آل زِيَّان أصحاب هذه المملكة يحتفلون بالمولد الشريف ، على رسوم وتقاليد ، غاية في البهجة والجلال . وكانوا يتبارون في الحفاوة به ، والافتنان في شؤونه ، بما يجعل رسومه وتقاليده متجددة . . لا سيما في عهد السلطان (أبو حَمْو) من آل زيان . فقد عني به عناية خاصة تفوق بها على أسلافه . وقد كان ذلك في القرن الثامن للهجرة .

وقد ذكر الحافظ أبو عبد الله التنسي التلمساني ، فيما نقله عنه العلامة المقرئ في نفح الطيب ، أن هذا السلطان (أبو حَمْو) كان يحتفل بليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم . كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله . قال :

كان [السلطان أبو حَمْو] يقيم ليلة الميلاد النبوي بِمَشْورِهِ من تلمسان المحروسة ، بمدعاة حفيلة ، يحشر فيها الأشراف والسوقة ، والخاصة والعامة . فاشتت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبشوة ، وبسط موشاة ، ووسائد بالذهب مُغشاة ، وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالهالات ، ومباخر كالقباب ، يخالها البصر التبر المذاب . وقد رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ، وقد علت الجميع أبهة الوقار والجلال . وتقدم إليهم أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، مما تشتهيهِ الأنفس وتستلذه النواظر ، ويخالط حسن

رياحها الأرواح ويُخامر . وأعيان الحضرة على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون ، وبأيديهم مباحر ومِرْشاة [يتبخر منها الحضور ، ويتطيب بطيها الجمهور] وينال كل منها بحظه . وبعقب ذلك يحتفل المُسمِعُونَ بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبمكفرات ترغب في الإقلاع عن الآثام . يخرجون فيها من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب . ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس ، وترتاح إلى سماعه القلوب .

وبالقرب من [مقعد] السلطان ، خزانة (المنجاة) وقد زخرفت كأنها حلة يمانية ، ذات تمائيل لجُين محكمة الصنعة ، وبأعلاها أَيْكة تحمل طائرا ، فرخاه تحت جناحيه ، وفي جذر الأَيْكة كُوة يخرج منها أرقم يذهب صاعدا لِيَخْتِلَ أحد الفرخين . وبصدر الخزانة أبوابٌ مُرتجة ، على عدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفها بابان كبيران ، وفوقها - دُوين الرأس - قر يسير على خط الاستواء ، سير نظيره في فلك السماء . ويسامت أول كل ساعة بابها المُرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عُقابان ، في مِخْلَب كل واحد منهما صَنْجَة صفر يلقيا في طاست من الصفر مجوف ، بوسطه ثقب يفضى إلى داخل الخزانة ، فيرنّ ، ويقع النقر بقدر حساب الساعات الماضية من الليل . ويحاول الأرقم نهش أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فعند ذلك يفتح باب من أبواب الساعات المذهبة فتبرز منه [دُمِية] جارية صُورَتْ في أحسن صورة كأظرف ما أنت راه ، وفي يدها اليمنى رقعة مشتملة على أبيات من الشعر فيها اسم الساعة . فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويدها اليسرى على فها ، كالمبايعة بالخلافة .

أما الآيات التي ترد في رقعة الجارية فهي : إذا مضى من الليل ساعتان :

أَخْلِيفَةَ الرَّحْمَنِ وَالْمَلِكِ الَّذِي	تَعْنُو لِعَزِّ عُلَاهِ أَمْلَاكِ الْبَشَرِ
لِلَّهِ مَجْلِسُكَ الَّذِي يَحْكُمُ عُلَا	بِكَ مَا لَكَ أَفْقُ السَّمَاءِ لِمَنْ نَظَرَ
أَوْ مَا تُرَى فِيهِ النُّجُومُ زَوَاهِرُ	وَجْهِ الْخَلِيفَةِ بَيْنَهُنَّ هُوَ الْقَمَرُ
وَاللَّيْلُ مِنْهُ سَاعَتَانِ قَدْ انْقَضَتْ	تُثْنِي عَلَيْهِ ثَنَا الرِّيَاضِ عَلَى الْمَطَرِ
لَا زَالَ هَذَا الْمَلِكُ مَنْصُورًا بِكُمْ	وَبَلَغْتَ عَمَّا تَرْجَى أَسْنَى الْوَطَرِ

وفي مضى ثلاث ساعات :

أَمْوَلَايَ يَا بَنَ الْمُلُوكِ الْأَلَى	لَهُمْ فِي الْمَعَالِي سَنِيَّ الرَّتَبِ
تَوَلَّتْ ثَلَاثُ مِنَ اللَّيْلِ أَبَقْتُ	لَكَ الْفَخْرَ فِي مُجْمَعِهَا وَالْعَرَبِ
قَدْ دُمَّ حُجَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ	تَنَالِ الَّذِي شَفَعْتَهُ مِنْ أَرْبِ

وفي مضى ست ساعات :

يَا مَا جَدًّا وَهُوَ فَرْدٌ	تَخَالَهُ فِي عَسَاكِرِ
سِتُّ مِنَ اللَّيْلِ وَلَتْ	مَا إِنْ لَهَا مِنْ نَظَائِرِ
دَامَتْ لِيَا لِيْلِكَ حَتَّى	إِلَى الْمَعَادِ نَوَاضِرِ

وفي مضى ثمان ساعات :

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ ذَاتًا	وَأَشْرَفَ النَّاسِ أَسْرَهُ
مَرَّتْ ثَمَانٌ وَأَبَقْتُ	فِي الْقَلْبِ مِنْ حُسْرِهِ
فِيهِنَّ كَانَتْ شَبَابِي	أَخَا نَعِيمٍ وَنَضْرِهِ
وَلَى بِهَا الدَّهْرُ عَنِّي	تُرَى لَهَا بَعْدُ كَرَّهِ ؟
فَاللَّهِ يَبْقِيكَ مَوْلَى	يُطِيلُ فِي السَّعْدِ عَمْرَهُ

وفي مضي عشر ساعات :

يا مالك الخير والحيل التي حكمت	له بعز على الأيام مقتبل
هذا الصباح الذي لاحت بشائره	والليل ودعنا توديع مرتحل
لله عشر من الساعات باهرة	مضين لاعتقلى منا ولا ملل
كذا تمر ليالي العمر راحلة	عنا ونحن من الآمال في شغل
نُسمى ونُصبحُ في هُو نُسرُّ به	جهلا وذلك يُدنيننا من الأجل
والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفى	عليه إذ مر في الآثام والزلال
يا ليت شعري غدا كيف الخلاص به	ولم نقدم له شيئاً من العمل
يارب عفوك عما قد جنته يدي	فليس لي بجزاء الذنب من قبَل
يارب وانصر أمير المسلمين أبا	خُمو الرضى وأنله غاية الأمل
وأبق في العز والتكفين هده	وأعل دولته الغرا على الدول

قلت . ولا يسعني إلا أن أقرر أن ما كتب في هذه الرقاع من أبيات الشعر ، لا يعد من الشعر في شيء . وقد كان في غاية من الركافة ، لكنى اضطررت إلى إيراده إتماماً للبحث ، وإكمالاً للوصف . ولولا هذا السبب مارويته .

وفي أثناء هذه الساعات ، لا يزال المسمعون آخذون في إنشاد المدائح النبوية ، حتى إذا فرغوا منها في آخر الليل ، قدمت إليهم الأطعمة فتمد موائدهم ، ويتناول كل أحد منها ما تشتهيه نفسه ، وتلد عينه . والسلطان في خلال ذلك لا يفارق مجلسه حتى يؤذن بصلاة الصبح .

وما من ليلة مولد مرت في أيامه إلا تبارى فيها الشعراء بنظم القصائد

في مدح خير البرية ، يبتدىئ بها المسمع في أول الحفل فينشدها ، ثم تلشد القصيدة التي وقع عليها الاختيار من شعر الشعراء . وهكذا مضت ليالى المولد طوال أيام الدولة الزيانية .

الاحتفال بالمولد بالمغرب الأقصى

أما في المغرب الأقصى ، فقد كان لسلاطينه ، بالاحتفال بالمولد الشريف ، همة عالية ، ومروءة واسعة . لاسيما في عهد السلطان أبي العباس أحمد المنصور الذي تولى الملك في أواخر القرن العاشر من الهجرة . قال القشتالي - وكان وزيرا لهذا السلطان في أوائل القرن الحادى عشر - : كان ترتيب [السلطان أحمد] في الاحتفال بالمولد النبوى ، إذا طلعت طلائع ربيع الأول ، صرف الرقاع إلى الفقراء ، أرباب الذكر على رسم الصوفية ، من المؤذنين النعارين في الأسحار بالأذان . فيأتون من كل جهة ، ويحشرون إليه من سائر حواضر المغرب .

ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع وإتقان صنعها . فيتبارى في ذلك مهرة الشماعين ، كما يتبارى النحل في نسيج أشكالها لطفا وإدماجا . فيصوغون أنواعا من الشموع تحير الناظر ، ولا تزيل زهورها النواضر . فإذا كان ليلة المولد النبوى ، تهيأ لملحها وزفاف كواعبها ، الحمالون المحترفون لجل خدور العرائس عند الزفاف . فيتزينون في أجمل شارة ، وأحسن منظر . ويجتمع الناس من أطراف المدينة لرؤيتها . فيمكثون حتى يسكن حر الظهيرة وتجنح الشمس للغروب . فيخرجون بها على رؤسهم كالعذارى يرفان في حلال الحسن . وهي عدد كثير كالنخل . فيتسابق الناس لرؤيتها ، وتمتد الأعناق إليها ،

وتتبرج ذوات الخدور ، وتتبعها الأبطال والأبواق من المعازف والملاهي ،
حتى تستوى على منصات معدات لها بالإيوان الشريف . فتصطف هناك .
فيذا طلع الفجر خرج [السلطان] فصلى بالناس وقعد على أريكته ،
وعليه حلة البياض ، شعار الدولة ، وأمامه تلك الشموع المختلفة الألوان ،
من بيض كالدمى ، وحمى جلبيت فى ملابس أرجوانية ، وخضر سندسية .
واستحضر من أنواع المسك والمباخر ، ما يدهش الجالس ويهرق الناظر .
ثم يدخل الناس أفواجا ، على طبقاتهم . فإذا استقر بهم المجلس ،
تقدم الواعظ فسرده جملة من فضائل النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعجزاته ،
وذكر مولده وإرضاعه وما وقع فى ذلك باختصار . فإذا فرغ اندفع القوم
فى الأشعار المولديات . فإذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزمعون بكلام
الشعترى وكلام غيره من الصوفية . ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين .
فيذا فرغوا من ذلك كله ، قام الشعراء ، فيتقدم قاضى الجماعة ، بلبل منابر
الجمع والاعباد : قاسم بن على الشاطبي . فينشد قصيدة يستفتحها بالتغزل
والنسيب ، ثم يتخلص لمجد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يختم بمدح المنصور
والدعاء له ولولى عهده . ثم يتقدم الإمام المفتى أبو مالك عبد الواحد بن
أحمد الشريف الفلالى ، فينشد قصيدته على ذلك المنوال . ثم يتلوه الوزير
أبو الحسن على بن منصور الشياظمي . ثم يتلوه الكاتب أبو فارس
عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم القشتالى . ويليه الكاتب أبو عبد الله محمد بن على
القشتالى ، ويليه الأديب أبو عبد الله محمد بن على الهوزالى المعروف بالنابغة ،
ويليه الفقيه الأديب أبو الحسن على بن أحمد المسديوى .

فإذا طوى بساط القصائد ، نُشرِ خوان الأطعمة والموائد . فيبدأ بالآعيان ،
على مراتبهم . ثم يؤذن للناس فيدخلون جملة . فإذا انقضت أيام المولد
الشريف ، برزت صلوات الشعراء ، على أقدارهم .

هكذا كان دأبه في جميع الموالد . ولا يحصى ما يوزع فيه ، من أنواع
الإحسان على الناس .

وذكر صاحب المسكية أنه حضر المولد الشريف في بلاد المغرب بعد
قوله من بلاد الترك ، فقال :

استدعى المنصور الناس لإيوانه السعيد ، واستدخلهم لقصره البديع
المحتوى على قباب عالية ، وقد مهدت فيه فرش الحرير ، وصفت النمازق ،
وتدلت الأستار والسكرال والحِجَال المخصوصة بالذهب ، على كل قبة وحنية
كل سرير . ودار على الحيطان حيطيات الحرير التي هي كأزهار الخنازل ،
مارويت قط في عهد الأوائل . مرفوعة الجوانب على قواعد وأساطين من
رخام مُجَزَّع ، مطلية الرؤس بالذهب الذائب ، مفروش جملها بالمرمر الأبيض
المخطط بالسواد . يتخلل ذلك ماء هذب . فيدخل الناس ، على طبقاتهم ،
ويأخذ كل منهم مرتبته ، من : قضاة ، وعلماء ، وصلحاء ، ووزراء ، وقواد ،
وكتاب ، وأضياف ، وأجناد . حتى ليخيل لكل واحد منهم أنه في جنة النعيم .
ويجلس السلطان في أنفر ملابسه ، تعلوه الهيبة والوقار ، وترمقه الآهين
والأبصار ، بالتعظيم والإكبار . ويجلس من عادته الجلوس ، ويقف على
رأس السلطان الوُصفاء ، والعُلُوج ، وعليهم الأقبية والمناطق المدورة ،
المشدودة المذهبة ، والحُزْم الذهبية ، مما يدهش الناظر . ورُكزت أمامه

الشموع ، وأذن لعامة الناس من أصناف القبائل فدخلوا ، على أجناسها ، من الأجناد ، والطلبة ، وسكنت بعد حين الجلبة . وأتى بأنواع الطعام في القصاع المالحية والبلبلية المذهبة ، والأواني التركية والهندية . وأتى بالطسوس والأباريق ، وصب الماء على أيدي الناس ، ونصبت مباخر العنبر والعود ، وأبرزت صحائف الفضة والذهب ، وأغصان الريحان الغض ، فرش بها من ماء الورد والزهر ، ما يبقى منه الأثر . وتكلم المنشدون ، وأحسن إليهم الأمير . ثم ختموا المجلس بالدعاء للسلطان .

قال : فإذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبداع من الأول . وهذه كانت سيرته دائما .

الاحتفال بالمولد في تونس

بحثت في كثير من المراجع عما قد يكون لتونس ، من حظ في شأن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، وترجح لدى أنه لا بد أن تكون قد ساهمت في هذا الأمر بقسط حسن . غير أني لم أهد إلى ذلك ، بعد الاستقصاء ، وبينما أنا بين الرجاء والأمل ، نهني صديقي المفضل الأستاذ حسن عبد الوهاب مفتش الآثار العربية إلى أنه يذكر أن شيئا من هذا وقع تحت نظره ، وأنه يرجح أن يكون في كتاب (المؤنس في أخبار أفريقية وتونس) فرجعت إليه فإذا بمؤلفه الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار يقول :

ومن أعيادهم المشهورة ، ومواسمهم المذكورة ، ومساعدتهم المشكورة ،

تعظيمهم لليلة المولد الشريف . وذلك لأجل محبتهم لمن ولد فيه ، وهو سيد الكائنات ، صلى الله عليه وسلم .

وأول من غنى بتعظيمه في البلاد المغربية وأظهر شعائر الولادة المحمدية : السلطان أبو عنان المريني ، شكر الله سعيه ، ثم اقتدى به بنو أبي حفص في الديار التونسية . وأولهم أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز . وكان في أول المساء الثامنة . واحتفل بتشييد شعائر هذا اليوم المبارك ... واقتدى به بنو أبي حفص من بعده ، ولم تزل عاداتهم مستمرة على تعظيمه . [لاسيما] ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول . ويفشدون الأشعار في المكاتب وربما يحملون ديدوبانات ، وهي المعبر عنها بالاصططبات . وتقرأ فيها التخمائيس ، وتشد الأبيات الشعرية التي تضمنت مدائح خير البرية وتوقد القناديل ، وتسرج الشموع ، وتكون هذه الليلة أشهر ليالي سنتهم . ويصنعون الأطعمة الفاخرة ، احتساباً لله . وربما يجعلها بعضهم للباهظة والتفاخر . ولكل امرئ ما نوى .

وتكون ليلة عظمى بدار نقيب الأشراف ، يحضرها الأجلة من الناس والقراء ، والفقهاء . ويقع فيها السماع والأناشيد بالمدائح النبوية . ويهرع الناس إليها من أطراف البلد . وتكون عندهم من الليالي العظم . ولنقيب الأشراف عادة يأخذها من السلطنة ، من زيت وشمع ، وما يحتاج إليه . وهذه العادة جارية من زمن بني أبي حفص . ودامت هذه الدولة عليها .

وأدركنا قبل اليوم بالزاويتين المشهورتين : القشاشية ، والبكرية ، محاسن جمعة ، بحيث تدوم زيتها ١٥ يوماً ، لا تخلبان من المدائح ، وتهرع الناس

للتفرج والمبيت . وقد تلاشى الحال . وأما غيرهما فبحسب الإمكان والأوقات
وهذا الشهر المبارك له حرمة عند أهل الحضرة (تونس) لتعظيمهم
لهذا اليوم ...

* * *

إلى هنا أمسك القلم عن الاسترسال ، وأختتم القول بالحمد لله حمد
الشاكرين ، وأسأله العون على ما اعتزمته من تحرير كتاب (المواسم والأعياد)
الذى سأجعله متما لهذا البحث الطريف ، إن شاء الله تعالى ، ومنه أستمد
التوفيق وحسن الختام ؟

القاهرة في ٢٠ من شعبان سنة ١٣٦٧ هـ و ٢٧ من يونيو سنة ١٩٤٨ م

حسن التروبي

فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
٩٩ ٤ - الممالك البحرية والمولد	٢ الفاتحة
١٠١ ٥ - في الاسرة القلاوونية	١٠ كلة في ذكرى المولد النبوى الشريف
١٠٢ ٦ - وفود سلطان أفريقيا	١٧ عصر الإسلام الأول
على مصر	١ - في عصر النبوة
١٠٥ عصر دولة الممالك الجراكسة	٢ - في عصر الخلفاء الراشدين
١ - تحليل نسبتهم	١٨ ٣ - في عصر الدولة الاموية
٢ - وصف الممالك الجراكسة	١٩ ٤ - في عصر الدولة العباسية
١٠٨ ٣ - مؤسس دولة الممالك الجراكسة	٢١ ٥ - في عهد ملوك بنى بويه
الجراكسة	٢٢ ٦ - في ابتداء المولد النبوى
١٠٩ المولد النبوى في عهد الجراكسة	٢٤ عصر الدولة الفاطمية
١ - عهد الظاهر برقوق	١ - في ظهور هذه الدولة وملاساته
١١٠ ٢ - وفود ملك العراق على مصر	٤٢ ٢ - في حقيقة النسب الفاطمى
١١٢ ٣ - شعاع مصر ومراسمها	ابتداء الفاطميين للمولد النبوى
في بغداد	٧٠ ٤ - التنويه ببعض مآثر الدولة
٤ - في عهد الناصر فرج بن برقوق	الفاطمية.
١١٣ ٥ - في عهد الظاهر سيف الدين	٧٤ عصر الدولة الايوبية
جتمق	١ - في مجمل أحوال هذه الدولة
١١٤ ٦ - في عهد الأشرف قايتباى	٧٦ ٢ - في صنيع الايوبيين بالرسوم
١١٥ ٧ - وصف السراق الاشرى	الفاطمية
١١٧ ٨ - وصف الاحتفال بايلة المولد	٨٠ ٣ - في حفلات الملك المظفر
١٢٠ ٩ - وفود الامير جم العثمانى	بالمولد النبوى.
على مصر	٨٥ ٤ - في مناقب الملك المظفر
١٢٣ ١٠ - في عهد الظاهر قانصوه	٨٧ عصر دولة الممالك البحرية
الأشرى	١ - بحث شؤون هؤلاء الممالك
١٢٤ ١١ - في عهد الأشرف قانصوه	٩٣ ٢ - نظرة في الرق وقيمته
الغورى	٩٨ ٣ - في بعض شأن الممالك البحرية

- ١٢ - وصف الاحتفال بالمولد
١٢٧ ١٣ - وفود الأمير كركود
العثماني على مصر
١٣٤ ١٤ - احتفال السلطان الغوري
بالمولد
١٣٦ إغارة السلطان سليم العثماني
على مصر
١٤٢ فترة طومان باي
١٤٣ مقسارنة بين قبيلز المسادي^(١)
وسليم العثماني
١٤٦ في عصر الدولة العثمانية
نهاية السراشق الاشرفي
١٤٦ الاحتفال بالمولد في العهد العثماني
١ - في عهد السلطان سليم
١٥٠ ٢ - في عهد خير بك
٣ - من هو خير بك
١٥١ ٤ - الاحتفال بالمولد مدة نيابة
١٥٤ ٥ - من العادات المصرية
١٥٥ في عهد المماليك البيكوات
ثورة على بيك الكبير
١٥٧ المولد في عهد المماليك المصرية
١٥٧ بيت البكري والمولد
١٥٩ في مدة مراد بك
١٦٠ في عهد الحملة العرسية
١ - فترة نابليون بمصر
١٦١ المولد النبوي أيام الحملة
١ - أيام نابليون
- ٢ - أيام كليبر
١٦٢ نهاية الحملة الفرنسية
١٦٤ المولد أثناء مخبرات الجلاء
١٦٥ تقرير الشيخ المسيري إلى نابليون
عن أحوال مصر
١٦٨ ٤ - عود إلى المولد
٥ - وصف الازبكية قبل خرابها
١٧٠ عصر الدولة المحمدية العلوية
١ - من أعمال محمد علي ومزاياه
١٧١ ٢ - محمد علي و ابراهيم
٣ - ولاية محمد علي على مصر
١٧٣ العناية بالمولد النبوي
٤ - المولد في عهد محمد علي
١٧٤ وصف الاحتفال بالمولد لكثور
لين الانجليزي
١٧٧ مولد الشيخ العشماوي
١٨٢ عود إلى المولد النبوي
١٨٣ وصف الدوسة
١٨٧ أكل الشعابين
١٨٨ عود إلى المولد النبوي
١٩٠ ٥ - المولد في بيت البكري
١٩٤ في عهد الملك فؤاد
١٩٤ ١ - عنايته الكبير بالمولد
١٩٤ ٢ - اهتمام الحكومة بالمولد
١٩٥ ٣ - وزارة الاوقاف والمولد
١٩٦ عصر الملك فاروق
١٩٦ ١ - عهد الخير والبركة

٢١٤ ١٣ - احتفال إدارة الاوقاف
بالاسكندرية

٢١٥ الاحتفال بالمولد في الاقاليم
المصرية

٢١٩ الاحتفال بالمولد في الممالك
الإسلامية

٢١٩ في السلطنة العثمانية

٢١٩ ١ - الأعياد الرسمية

٢٢٠ ٢ - رسوم عيدي الفطر والأضحي

٢٢١ ٣ - رسوم عيد أول السنة

٢٢٢ ٤ - رسوم عيدي الميلاد
والجلوس السلطاني

٢٢٢ ٥ - المواسم الرسمية

٢٢٤ ٦ - مواسم أخرى

٢٢٤ ٧ - الاحتفال بالمولد النبوي
في الآستانة

٢٢٥ في عهد السلطان عبد الحميد

٢٢٧ الاحتفال بالمولد في تلمسان

٢٣١ الاحتفال بالمولد بالمغرب الأقصى

٢٣٤ الاحتفال بالمولد في تونس

١٩٦ ٢ - وصف الاحتفال

٢٠١ ٣ - الحكومة والاحتفال بالمولد

٢٠١ ٤ - تزاور المحتفلين بالمولد

٢٠٢ ٥ - المولد في سنة ١٣٦٥

٢٠٣ ٦ - في الأزهر الشريف

٢٠٣ ٧ - خطبة الشيخ مصطفى
عبد الرازق

٢٠٨ ٨ - وزارة الاوقاف والاحتفال

٢٠٩ ٩ - المولد في سنة ١٣٦٦

٢١٠ وحدات الجيش

٢١٠ في سراق الخاصة الملكية

٢١٠ نائب جلالة الملك

٢١١ عرض الجيش

٢١١ تلاوة القصيدة

٢١٢ ١٠ - في المشهد الحسيني

٢١٣ ١١ احتفال الجماعات والهيئات

٢١٣ في الاسكندرية

٢١٣ ١٢ - الاحتفال بالمولد في

الاسكندرية

مصنفات صاحب الكتاب

أعيان البيان	طبع في سنة ١٩١٤	جزء ١
الشعراء الثلاثة	» » » ١٩٢٢	١ »
شرح على المفضليات	» » » ١٩٢٦	١ »
شرح على المقابسات	» » » ١٩٢٩	١ »
أدب الجاحظ	» » » ١٩٣١	١ »
رسائل الجاحظ	» » » ١٩٢٣	١ »
شرح ديوان امرئ القيس	» » » ١٩٣٩	١ »
أخبار المراقسة وأشعارهم	» » » ١٩٣٩	٢ »
أبو العباس المرسى	» » » ١٩٤٤	١ »
شرح على البيان والتبيين طبعة ثالثة	» » » ١٩٤٨	٣ »

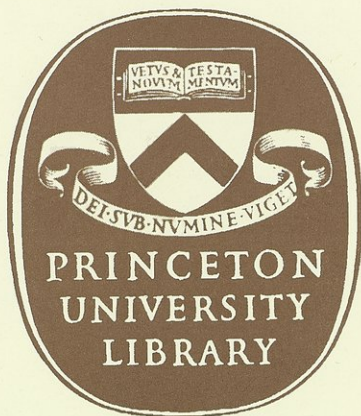
تحت الطبع

كتاب المواسم والأعياد

وسيصدر قريبا إن شاء الله

وجميع الحقوق في هذه المؤلفات محفوظة للمؤلف





PRINCETON UNIV. LIBRARY



3 2101 01352 6957

(NEC)

BP186

.34

.S263

1948